

المعايير النصّية في السور القرآنية

دراسة تطبيقية مقارنة



د. يسري نوقل

كلية الآداب - جامعة طنطا - مصر



سلسلة الرسائل الجامعية



دار النبعة للنشر والتوزيع

الطبعة الاولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

رقم الإيداع : ١٩١٩٩ / ٢٠١٤

الترقيم الدولي : 978-977-6475-31-1

حقوق الطبع محفوظة للناشر

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه فى أى نظام ميكانيكى أو إلكترونى يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أى لغة أخرى إلا بعد الحصول على إذن خطى مسبق من الناشر.

دار النبعة للنشر والتوزيع

٥٦ ش شروت أمام مكتبة التجارة جامعة القاهرة
ميامي بجوار معهد سيدى بشر - الإسكندرية
ت : ٠٠٢٠١٠٦١٤٤٦٣١٩ - ٠٠٢٠١٠٦٩٤٦٣٢٩١٦
darelnapegha@yahoo.com



المعايير النصية

بين السور الملكية والمدنية

دراسة تطبيقية

(الأعراف والنساء نموذجاً)

د. يسري السيد إبراهيم نوفل

كلية الآداب - قسم اللغة العربية

جامعة طنطا

أصل الكتاب رسالة قدمت لنيل درجة الدكتوراه من
كلية الآداب - جامعة طنطا - مصر.

الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه ولا يعبر بالضرورة عن رأي دار الناشر

إهداء

إلى رُوح أختي الحبيبة الشهيدة: (منى)

(فقد كانت...)

بَسْمَةٌ مُشْرِقَةٌ كَظِيَاءِ الشَّمْسِ ** تَجَلُّوْا عَنِ الْقَلْبِ مَا قَدْ رَانَ مِنْ نَكْدٍ

ورُوح زوجها الحبيب الشهيد: (عثمان)

(فقد كان...)

طَلِيقَ الْوَجْهِ لَيْسَ بِهِ التَّوَاءُ ** وَذَا الطَّيْعِ الْكَرِيمِ تَرَاهُ سَهْلًا

سائلاً ربي - عزوجل- أن يتغمدهما بعظيم عفوه، وواسع رحمته، وأن

يدخلهما فسيح جنته ، وأن يعجزيهما خير الجزاء .

وصلّي الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم .

شكر وعرفان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ لَا يَشْكُرِ اللَّهَ»^(١). وانطلاقاً من قول النبي - ﷺ - أتقدم بالشكر الجزيل ، والثناء والعرفان الجميل إلى فضيلة العالمين المتواضعين الجليلين أستاذي:

- فضيلة العالم الجليل الأستاذ الدكتور: محمود سليمان ياقوت
 - فضيلة العالم المتواضع الأستاذ الدكتور: صبحي إبراهيم الفقي
- فلم يألوا - سيادتهما - جهداً في إسداء النصيح والتوجيه والإرشاد، والإمداد بالمصادر والمراجع؛ حتى خرج البحث على هذه الشاكلة؛ فجزاهما الله عني وعن بحثي وعن جميع طلاب العلم خير الجزاء، ورقّاهما في قمم الأبحاد، ورزقهما الله الصحة والعافية. كما أتقدم بالشكر لكل من له على حق:

- إلى الوالدين محبةً وتبجيلاً....
 - إلى زوجتي وأبنائي الأحباء....
 - إلى إخواني وأخواتي الأعزاء....
 - إلى كل أصدقائي وجيراني المخلصين....
 - إلى كل شهداء مصرنا الحبيبة....
- جزاكم الله عني خير الجزاء....

(١) الترمذي: (محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي)، الجامع الصحيح سنن الترمذي، ت:

أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن

إليك، حديث (١٩٥٤)، ٣٣٩/٤.

قَالَ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرُّقِيْلَكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(يوسف ٢، ١)

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ



بادئ ذي بدء نشير إلى أن مصطلحات علم اللغة - في الغالب يقترب معناها اللغوي من معناها الاصطلاحي ؛ إذ يدور الأول حول مجالات دلالية معينة يمكن من خلالها التقريب بينها وبين المعنى الاصطلاحي ومصطلح النص من بين مصطلحات علم اللغة ينطبق عليه نفس القاعدة السابقة.

النص لغويًا:

يقول ابن منظور: «النَّصُّ رَفْعُكَ الشَّيْءَ نَصًّا الْحَدِيثُ يَنْصُهُ نَصًّا رَفَعَهُ وَكُلُّ مَا أَظْهَرَ فَقَدْ نَصَّ...» وَنَصَّتِ الظُّبْيَةُ جِيذَهَا رَفَعَتْهُ وَوَضَعَ عَلَى الْمِنْصَةِ أَيَّ عَلَى غَايَةِ الْفَضِيحَةِ وَالشَّهْرَةِ وَالظُّهُورِ وَالْمِنْصَةُ مَا تُظْهَرُ عَلَيْهِ الْعُرُوسُ لَتُرَى...» وَنَصَّ الْمَتَاعُ نَصًّا: جَعَلَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ...» وَأَصْلُ النَّصِّ أَقْصَى الشَّيْءِ وَغَايَتُهُ^(١). وفي المعجم الوسيط: «والنَّصُّ: صِيغَةُ الْكَلَامِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ مِنَ الْمُؤَلَّفِ وَالنَّصِّ مَا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنَى وَاحِدًا، أَوْ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ^(٢)».

من خلال القراءة المعجمية السابقة يتبين لنا مجموعة من المعاني المحورية لمادة: «نصص» وهي: الرفع، والإظهار، وضم الشيء إلى الشيء، وأقصى الشيء انتهاء. كما يرى الباحث في تعريف النص: بأنه لا يحتمل التأويل يجافي التحليل النصي - كما سيتبين لنا إن شاء الله - الذي يراعي أن النص له مبدعان هما: الأول (مرسل / منشئ النص)، والثاني (مستقبل / متلقي النص). ومن ثم نجد الدكتور صبحي الفقي يربط بين تلك المعاني وبين مستويات علم اللغة بطريقة لغوية فنية منطقية ؛ فيقول: «وكون النص أقصى الشيء ومنتهاه، فهو تمثيل لكونه أكبر وحدة

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٩٧/٧ (مادة: نصص).

(٢) مجموعة من علماء مجمع اللغة العربية بمصر، المعجم الوسيط، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، ١٩٦٥ م، ٧٧٢/٢ (باب: النون).

لغوية يمكن الوصول إليها؛ إذ تُعدّ النصّ ممثلاً للمستوى السادس من مستويات علم اللغة المتعارف عليها^(١).

النص اصطلاحاً:

وتحديد دلالة مصطلح «النص» يختلف علماء «نحو النص» حوله؛ وذلك لما يحيط به من الغموض الذي يحول دون الرؤية الواضحة لمدلوله، الأمر الذي يمثل حجر عثرة في سبيل التفهم الحقيقي لطبيعة القضايا، والمواقف التي تتردد فيها أمثال تلك المصطلحات الغامضة. ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى ضبط هذا المصطلح النقدي والنحوي وتحديد مدلوله تحديداً دقيقاً يقوم على استقرار النصوص، والتفهم الواعي لأنماط السياق وطبيعة المواقف التي تتردد عليه، فهذا التحديد يمثل خطوة مهمة في هذه الدراسة النصية التطبيقية وبدون تلك الخطوة الجوهرية يعتبر الدخول في ميدان هذه الدراسة أو تفسير ما فيها من قضايا ضرباً من التعسف، وعملاً قائماً على غير أساس. وبناءً على هذا، وقبل البدء في هذه الدراسة النصية التطبيقية، أرى واجباً على أن أحدد أولاً: ما هو النص؟ وما المقصود به؟ وما أشكاله؟ وما طوله؟ وما حدوده وأبعاده؟ غير أن تعريف النص، أو محاولة وضع حد له يبدو أنها مسألة ليست يسيرة، أو هينة، هذا إن لم تكن صعبة للدرجة تصل فيها بعض المحاولات إلى حد التناقض.

(١) المستويات المتعارف عليها هي: الصوتي - الصرفي - المعجمي - النحوي - الدلالي، والمستوى السادس الذي يقترحه أستاذي الدكتور صبحي الفقي يمثل في المستوى النصي. د. صبحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، القاهرة، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م، ٢٨ / ١.

يقول الدكتور سعيد بحيري معبراً و مصوراً لهذه المسألة: «لا توجد مصاعب تواجه علماء من العلوم مثلها هي الحال بالنسبة لعلم لغة النص، حيث إنه حتى الآن وبعد مرور ما يربو على ثلاثة عقود على نشأته الفعلية - ما يربو على أربعة عقود في وقتنا الحالي - لم يتحدد بدرجة كافية أبل إنه مسمى لاتجاهات وتصورات غاية في التباين؛ ونتيجة لذلك فإنه لا يسود حول مقولاته وتصورات ونظرياته الأساسية أي اتفاق بين الباحثين إلا بقدر ضئيل للغاية... وأبسط مثال يضرب في هذا المقام عدم وجود قدر مشترك من ملامح التوافق حول مصطلح «النص» ذاته بل إننا قد نجد لدى باحث واحد بعينه في عمل واحد بعينه أفي أكثر من موضع عدداً من التعريفات، ويختلف محتوى كل تعريف عن الآخر»^(١).

وقبل الدخول في محاولة للبحث عن تعريف النص، نود أن نؤكد: أن النحاة العرب لم يستعملوا هذا المصطلح (النص) للدلالة على ما يدل عليه اليوم، بذلك على ذلك أنه فيما اعترضنا من استعمالاته كان دالاً على الحدث، ولم يتمحض للاسمية، وبالتالي يمكن أن نقول: إن استعمال النحاة للكلمة (النص) لا يكاد يمت بصلة إلى ما نعنيه اليوم بكلمة «نص» فنصّهم يختلف عن نصنا؛ بدليل أنهم لم يعرف عندهم الشائبة المعنوية القائمة على التقابل بين معنى الحدث ومعنى الاسم التي عرفها الكلام والخطاب... ف: «النص عند النحاة القدامى لفظ دال على معنى الحدث لا يفارقه، ومن أدلة ذلك عدم عثورنا على استعمالات عمدوا فيها إلى جمع النص على نصوص؛ باعتبار أن الجمع أفضل دليل على مفارقة المفردة لقسم المصادر، وانتقالها لقسم الأسماء، أما النص عندنا اليوم: لفظ تمحض للاسمية، ويدل على معنى الاسم لا يكاد يفارقه، وبالتالي فإننا نعتقد أن استعمالات النحاة لعبارة النص كتلك التي وردت فيما

(١) سعيد بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر، (لونجمان) القاهرة، ص ١١٥.

رأيناه من أقوالهم لا يمكن أن تتركب مطية للاستدلال على استعمال هذه المفردة بالمعنى الذى أصبحنا نستعملها به اليوم»^(١). هذا، ولم يكن النحو الغربى القديم - كما أوضح أحد الباحثين المعاصرين - بأسعد حظاً من النحو العربى فى هذه المسألة، بل كان النحو العربى أسعد حظاً منه؛ حيث عرف هذه الكلمة (النص) مفهوماً، وإن لم يعرفها مصطلحاً، وأقصد بذلك معرفة النحو العربى لمصطلحات، الكلام، والخطاب، والقول.

يقول الدكتور محمد الشاوش: «إن تصفح عينات من مؤلفات النحو الغربى القديم يبين أن الكلمة (نص) لم تستعمل فيها لا من حيث هى مصطلح، ولا من حيث هى مفهوم تم التعبير عنه بطرق أخرى، كما يلاحظ ضحالة المباحث المتناولة للظواهر اللغوية المتجاوزة للجملة، والتي اعتبرت مجسمة لمظاهر الترابط، والاتساق النصى كمبحث العلاقات بين الجمل أما المباحث التى من قبيل أدوات الربط أو مباحث التعريف، والحذف، والإضمار فتناولوها كاد يقتصر على نطاق لا يتعدى حدود الجملة الواحدة، فإذا انطلقت على سبيل المثال من كتاب Grevisse bonusage وهو مؤلف يعتبر المرجع الأساسى فى النحو الفرنسى الكلاسيكى، ونظرت فى فهارسه، ومسارد المصطلحات فيه؛ لاحظت أنها رغم اتساعها وثرائها وتفصيلها لم ترد فيها كلمة النص، فأنت فى مسرد المصطلحات والمفردات التى تم التعرض إليها نجد (ص ١٥٠): Tete, Terre, Tenailles ثم ينتقل بك المسرد إلى Thermos فلا تذكر كلمة Text حتى مجرد الذكر، وهو دليل على أن هذه الكلمة كانت تعد حتى زمان تأليف Grevisse لهذا الكتاب (سنة ١٩٣٦م) غريبة تمام الغرابة عن المباحث اللغوية»^(٢).

(١) محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب فى النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، ط ١، كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، ٢٠٠١م، ١/ ١٨٣-١٨٧ بتصرف.

(٢) أصول تحليل الخطاب فى النظرية النحوية العربية، ١/ ٢٥ بتصرف.

وخلاصة القول في هذه المسألة: إن مصطلح (النص) بالمفهوم الذي له في الدراسات الحديثة أمر غريب عن النحو العربي وعن نحاته، فقد أطلقوا لفظة (النص) على نوع خاص من الكلام اعتبروا فيه جهة خاصة في حصول المعنى، فاللفظ المحكم في نظرهم هو النص أما اللفظ المتشابه فليس نصاً، لكننا إذا قارنا بين ما حدثنا به من غياب النص مصطلحاً ومفهوماً من أمهات النظريات اللسانية الحديثة بحديثنا عن غيابه في النحو العربي لاحظنا فرقاً بعيداً، فهو في الأولى غياب من حيث المصطلح والمفهوم، وهو في الثاني مجرد غياب هذه التسمية الخاصة فيما استعملوا من المصطلحات؛ وذلك لرسوخ مفاهيم أخرى في صورة مصطلحات قائمة بنوا عليها نظريتهم كمفهوم الكلام والخطاب والقول.

تعريفات النص:

أما تعريفات النص فمنها:

قول جوليا كريستيفا إن النص: «ترحال للنصوص، وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى»^(١). ولافت للنظر هنا أن كريستيفا تركز على معيار مهم من معايير النصية: وهو معيار التناص، وهو ما عبرت هي عنه بقولها: إنه (ترحال للنصوص)، و(تداخل نصي)، ونصوص عديدة تتقاطع ملفوظاتها مع بعضها البعض. هذا عن النص عند جوليا كريستيفا أما عند غيرها، فمنهم من يعد النص «تتابعاً منظماً أفقياً من الإشارات اللغوية التي تُفهم على أنها توجيهات من مرسل معين إلى مخاطب معين...»، ويقع استيعاب النص من خلال المتلقى على أساس بيانات النص والموقف والذاكرة...،

(١) جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، ط ٢، المغرب،

١٩٩٧م، ص ٢١.

والنص عنده كذلك يمكن أن يكون من كلمة واحدة، ويمكن أن يكون نصاً كلياً لرواية متعددة الأجزاء^(١). واضح أن تعريف النص هنا يحاول إبراز أمور منها:

- أن النص تابع أفقى منظم من الإشارات اللغوية، وهذا لا يكون إلا بتوفر التماسك النصي بشقيه السبك والحبك سواء قصد إلى ذلك صاحب التعريف السابق أو لم يقصد.

- إبراز أهمية الأمور التداولية (المرسل، المتلقى، الموقف بكل ما يحيط به).
- أن النص يمكن أن يكون من كلمة واحدة، ويمكن كذلك أن يكون من رواية متعددة الأجزاء.

ويذكر عدنان ذريل أن: «(قاموس الألسنية) الذي أصدرته مؤسسة لاروس يُعرّف النص على النحو التالي: إن المجموعة الواحدة من الملفوظات، أي الجمل حين تكون خاضعة للتحليل، تسمى: نصاً؛ فالنص عينة من السلوك الألسني؛ وإن هذه العينة يمكن أن تكون مكتوبة، أو محكية...، انتهى كلام القاموس...، وإن اعتبار (النص) عينة، يعنى أن يعكس بحد ذاته (ملاك) اللغة، أي: كل ما يتعلق بها بصفاتها نظام علامات لغوية تستخدم كوسيلة اتصال بين المتكلمين بها، فأياً كانت اللغة التى تنتمى إليها المادة اللغوية التى ندرسها، فالعينة منها عندما تكون محل الدراسة تسمى نصاً... وإن العالم الألسني (هياالمسليف) يستعمل مصطلح (نص) بمعنى واسع جداً فيطلقه على أي ملفوظ قديماً كان أو حديثاً، مكتوباً أو محكياً، طويلاً أو قصيراً...، فإن عبارة: **stop** أي قف. هي في نظر هياالمسليف (نص)، كما أن جماع المادة اللغوية

(١) زتسيسلاف و أورزنيك، مدخل إلى علم لغة النص ترجمة د. سعيد بحيرى مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط ١ القاهرة ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م، ص ١٥.

له (رواية) بكاملها هي أيضاً نص^(١). أما تودوروف فإنه يبدأ مقالته عن النص في مؤلفه «القاموس الموسوعي لعلوم اللغة» بقوله: «تحد الألسنية بحثها بدراسة «الجملة» ولكن مفهوم «النص» لا يقف على نفس المستوى الذي يقف عليه «الجملة»، أو القضية أو التركيب وكذلك هو متميز عن الفقرة التي هي وحدة منظمة من عدة جمل...»^(٢). أما هاليداي ورقية حسن (١٩٧٦م) فيصفان مجموعة من الجمل بأنها «نص متى توفر فيها شرط الترابط النصي - أو قل إنها يريان - «أن أهم ما يحدد ما إذا كانت مجموعة من الجمل تشكل نصاً يعتمد على علاقات الترابط النصي داخل الجمل وفيما بينها مما يخلق بنية النص».

ويوضحان ذلك بالمثال التالي: (اغسلي ونقى ست تفاحات للطبخ ضعيها في إناء ليحتمل حرارة النار) حيث يقولان عن هذا النص: من الواضح أن الضمير (ها) في الجملة الثانية يحيل إلى الورا على التفاحات الست في الجملة الأولى، هذه الوظيفة الإحالية إلى ما سبق للضمير (ها) تضيف ترابطاً على الجملتين بحيث تفهمهما على أنها كل لا يتجزأ، أو يكونان معاً نصاً^(٣).

للنص إذن عند هاليداي ورقية حسن مقومات نصية تميزه عما لا يعد نصاً، هذه المقومات النصية تتمثل في علاقات الترابط النصي التي تظهر بين الجمل أبل إنها

(١) عدنان ذريل، نقلاً عن النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق من منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠م، ص ١٥: ١٦.

(٢) ديكر وتودوروف، القاموس الموسوعي لعلوم اللغة، باريز، سوى، ١٩٧٢م، نقلاً عن النص والسلوبية، ص ٣٧٥: ٣٧٦.

(٣) ج. ب. براون ج. يول، تحليل الخطاب، ترجمة د. محمد لطفى الزليطني د. منير التريكي. النشر العلمي، جامعة الملك سعود ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م، ص ٢٢٨.

المصدر الوحيد لخاصية النص عندهما^(١). هذا ولسائل أن يسأل: إذا كانت علاقات الترابط النصي هي أهم مقومات النصية عند هاليداي ورقية حسن. فأين يبدأ النص عندهما؟ وأين ينتهي؟ وهل للنص طول محدد؟ والغريب أنها رغم تنبيهها على أن علاقات الترابط النصي هي أهم مقومات النصية فإنها يقولان بإمكانية تحقق النص في جملة واحدة أو أقل؛ فالنص عندهما يمكن أن يكون له أي طول؛ لأنه ليس سلسلة قياسية من الوحدة النحوية، وليس محتوياً على جمل، إنه لا يرتبط بالجملة إلا بوصفه محدد القانون. وبعض النصوص تتشابه في الحقيقة من حيث إنها يمكن أن تكون أقل من جملة واحدة في التركيب النحوي مثل: التحذيرات، العناوين، الإعلانات، الإهداءات... من أجل ذلك كله تميل النفس وتطمئن إلى أنه ليس للنص طول محدد وليس ينبغي أن يكون له طول محدد، فقد يطول ويقصر وهو يمكن أن يتكون من كلمة واحدة، أو جملة واحدة، أو مجموعة من الجمل، أو رواية كاملة، أو قصيدة كاملة مكونة من مئات الأبيات؛ هذا بشرط أن يتوفر في النص معايير النصية، وسوف تتضح -إن شاء الله- هذه المعايير النصية في تعريف النص الذي ستعتمده هذه الدراسة فيما يلي من سطور. أما رولان بارت Rolan Barthe فيعرف النص، أو بعبارة أكثر دقة. يصف ما يمكن أن يكون نصاً بأنه «قيمة»، وأنه لا ينشأ عن رصف كلمات تولد معنى وحيداً...، وإنما هو فضاء متعدد الأبعاد، تتمازج فيه كتابات متعددة، وتتعارض من غير أن يكون فيها ما هو أكثر من غيره أصالة، فالنص نسيج من الاقتباسات تنحدر من منابع ثقافية متعددة^(٢).

(١) براون ويول، تحليل الخطاب ترجمة: محمد لطفي الزليطني، ومشير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، ٢٠٠٢م، ص ٢٣٤.

(٢) رولان بارت، لذة النص، ترجمة فؤاد صفا - الحسين سحبان، دار توبقال للنشر، ط ٢، ٢٠٠١م، ص ٣٣.

ويقول في موضع آخر: «إننا نشدد داخل النسيج على الفكرة التوليدية التي ترى أن النص يصنع ذاته، ويعتمل ما في ذاته عبر تشابك دائم؛ تنفك الذات عبر هذا النسيج كأنها عنكبوت تذوب هي ذاتها في الإفرازات المشيدة لنسيجها»^(١). ورولان بارت في كلامه السابق يشير إلى عدة أمور:

أولها: فكرة موت المؤلف، ويفهم ذلك من قوله: «إن النص يصنع ذاته»، ومن قوله «تنفك الذات عبر هذا النسيج كأنها عنكبوت تذوب هي ذاتها في الإفرازات المشيدة لنسيجها».

ثانيها: أنه ينطلق في تعريفه للنص من الدلالة الاشتقاقية لمصطلح Text أي النص والتي تعني في اللاتينية (النسيج) Textus^(٢).

ثالثها: أن النص عنده هو «مجموعة شفرات» أو قل هو نتاج مجموعة متعددة من الخطابات الثقافية التي يتوقف فهم النص بوصفه كلاً على فهمها. وإذا كنت أشرت إلى أن النص يوصف بأنه نسيج عند رولان بارت «Rolan Barthes»، وعند غيره من النقاد الأوربيين، فالأحرى أن أشير إلى أن الدلالة المعجمية لكلمة النص عند العرب تلتقى في بعض دلالتها مع كلمة النسيج^(٣)؛ فالنص نسيج من الكلمات والجمل والتراكيب يترابط بعضها مع بعض من خلال الروابط اللفظية: كأدوات العطف، والإحالة، وغيرها - كما سنرى في فصل السبك -، وتربطاً دلالياً كتفصيل مجمل، وتفسير جملة لأخرى وغير ذلك - كما سنرى في فصل الحبك - إن

(١) رولان بارت، درس السيميولوجيا، ترجمة بنعبند العالي، دار توبقال للنشر، ط ٣، ١٩٩٣ م، ص ٨٥.

(٢) النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، ص ١٧، وانظر: عمر أوغان، مدخل للدراسة النص والسلطة، أفريقيا الشرق، ط ٢، ١٩٩٤ م، ص ٤٥. ورولان بارت، نظرية النص، ترجمة د. محمد خيرى البقاعى ص ٣٠. وقد جاء ذلك ضمن كتاب يتضمن مجموعة من المقالات جمعت تحت عنوان آفاق التناسية المفهوم والمنظور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ م.

(٣) لسان العرب، ٢/ ٣٧٦ مادة (ن.س.ج).

شاء الله -، وهذه الآليات التي تبني السبك والحبك في النص تشكل خيوطاً تجمع بين عناصر النص المختلفة، والمتباعدة في كل واحد هو ما نطلق عليه مصطلح «نص»^(١). هذا، ويرى آخر أنه متى وجدت فكرة أساسية أو رئيسية، واشتملت هذه الفكرة على عدد من القضايا المترابطة منطقياً ودلالياً عُذ ذلك نصاً، فالنص عنده: «كم منظم من القضايا التي تترابط من خلال علاقات منطقية - دلالية استناداً إلى الأساس الموضوعي للنص»^(٢). ويعول آخرون في فهمهم للنص على القارئ أو المستمع، فيرون أنه ليس ثمة «فائدة في تحديد عدد من الخصائص النحوية الأساسية التي لا بد أن تتوفر في النص حتى يكون النص نصاً، فالنصوص هي ما يعده المستمعون والقراء نصوصاً»^(٣). هذا وقد تحدث ز. س. هاريس Z S. Harris عن النص في كتابه (تحليل الخطاب 1952 «Discourse analysis»)، بوصفه تتابعاً من جمل كثيرة ذات نهاية^(٤). ولعله بهذا يقصد إلى التأكيد على ضرورة التماسك النحوي للنص، وهناك من أكد على ضرورة التماسك النحوي والدلالي للنص أفوصفه بأنه «تتابع متماسك من الجمل»^(٥).

ويوضح الدكتور سعيد بحيري الاعتبارات والأسس التي راعاها آخرون مثل: شميت s.schmidt في تعريفه للنص، فيذكر: «أنها اعتبارات مختلفة بعضها تداولي مثل: الحدث الاتصالي، ومنتج النص، ومتلقى النص، وعمليتي الإنتاج والتلقي، ومواقف ومياقات ومقامات الاتصال، ومقاصد الاتصال وغير ذلك،

(١) الأزهر الزناد، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً، المركز الثقافي العربي، ط ١، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٣ م، ص ١٢، بتصرف.

(٢) فولفجانج هاينه مان، ديتز فيهنجر، مدخل إلى لغة النص، ترجمة: سعيد بحيري، زهراء الشرق، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٤ م، ص ٤٣.

(٣) ج. ب. براون، ج. بول، تحليل الخطاب، ص ٣٢٨.

(٤) زتسيسلاف واورزنيك أمدخل إلى علم النص، ص ٥٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٥٤.

وبعضها دلالي مثل: مضمون النص، والدلالة الإحالية والبنية العميقة للنص، وغير ذلك^(١). وقد عُدَّ أيضاً «من قبيل النصوص ظواهر لغوية قد لا يتسع لها مفهوم النص إلا على حساب تلاشي معالمه، ومقوماته كاعتبارهم مؤلفات الكاتب كاملة، أو ما أودع في مكتبة من المكتبات برمته نصاً أبل إنهم اعتبروا من النصوص حتى الظواهر غير اللغوية مثل: لافتات المرور وأنماط التهيئة العمرانية؛ وبذلك لم يعد للمفهوم عندهم حدود واضحة»^(٢). وعلى الرغم من التعدد، والتباين في تعريفات النص عند علماء لغة النص^(٣)؛ تبعاً للتعدد والتباين في المدارس اللغوية التي ينتمون إليها، فإن هناك قاسماً مشتركاً بين جُلِّ هذه التعريفات، إن لم يكن بينها جميعاً، هذا القاسم هو التأكيد على خاصية ترابط النص؛ ومن هنا كان النص - عند كثير منهم - عبارة عن «نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض»^(٤). والحق أن كل هذه التعريفات السابقة تعريفات على جانب كبير من الأهمية، غير أنني لا أجد بينها تعريفاً جامعاً؛ إذ إن كلاً منها يُضيء جانباً واحداً، أو قل صفة واحدة من صفات النص، ويترك صفات أخرى مهمة، كان ينبغي أن يشير إليها ويلقي الضوء عليها؛ فبعضها يؤكد على أهمية التناص، ويكاد يحصر النص فيه كتعريف جوليا كريستيفا ورولان بارت، فليس النص عندهما عبارة عن مجموعة من الجمل المنسجمة أو المتناسكة على نحو ما نادى به آخرون.

-
- (١) علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص ٨١.
 (٢) محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١ / ١٥.
 (٣) ولمزيد من التفصيل، ومزيد من التعريفات انظر:
 • صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٦٤، الكويت، أغسطس ١٩٩٢ م، ص ٢٥٢.
 • روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ١٩٩٨ م، ص ١٠٤: ١٠٣.
 (٤) جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩٨ م، ص ٦٩ و ٧٠ بتصرف.

معايير النص:

ومهما يكن من أمر أ فالذي تميل إليه النفس هو أن للنص بنية تتأزر لأجل قيامها وانبنائها عناصر شتى يؤدي كل منها مهمة داخل مجموع النص أغير مستقلة عن سواه، ولا يمكن معايتها منفصلة عن الوظائف الأخرى. بهذا تكون للنص صفات عامة نجملها فيما يلي:

- النص بنية.
 - مركبة العناصر.
 - موحدة، بمعنى منضمة إلى بعضها.
 - كلية، يتكامل بعضها مع بعض.
 - متجانسة ومتسقة.
 - ذات أفق دلالي تؤدي إليه المستويات المتعدد للبنية^(١).
- وقد أجهل أستاذي الدكتور صبحي الفقي أهم المعايير التي لا تخرج عنها معظم المفاهيم والتعريفات للنص، وهي كالتالي:
- كون النص منظوقاً أو مكتوباً أو كليهما.
 - مراعاة الجانب الدلالي.
 - مراعاة التحديد الحجمي.
 - مراعاة الجانب التداولي.
 - مراعاة جانب السياق، وهو متعلق بالجانب السابق.
 - مراعاة جانب التماسك، وهو أهم المعايير التي يقوم عليها التحليل النصي.

(١) انظر:

- حاتم الصكر، ترويض النص الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ م، ط ١، القاهرة، ص ٤٢.
- الأزهر الزناد، نسيج النص ص ١٦٩.

- مراعاة الجانب الوظيفي للنص.
- مراعاة التواصل بين المنتج والمتلقي.
- الربط بينه وبين مفاهيم تحويلية، مثل: الكفاءة والأداء... وغيرهما.
- إبراز كونه مقيداً.

وتعد هذه المعايير سمات للنص الكامل، وإذا اختلت سمة من هذه السمات يمكن أن نطلق عليه نصاً ناقصاً، ولذا يمكن أن نُعدها شروطاً ينبغي توافرها حتى يمكن أن نطلق عليه نصاً كاملاً^(١). لذا فقد آثرت من بين تعريفات النص تعريفاً اشتمل بين جوانبه على كل هذه الصفات العامة للنص، بل معظم هذه المعايير، وأعنى بذلك تعريف روبرت آلان دي بوجرانـد Robert Alain De Beaugrand وولفجانج اولرخ دريسلر Wolfgang Ulrich Dresslar لمفهوم النص، من حيث إنه حدث تواصلي Communicative Occurance يلزم لكونه نصاً أن تتوافر له سبعة معايير للنصية مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير:

- | | |
|--------------|-----------------|
| ١- السبك | Cohesion |
| ٢- الحبكة | Coherence |
| ٣- التناص | Intertextuality |
| ٤- السياق | Situationality |
| ٥- الإعلامية | Informativite |
| ٦- القصد | Intentionality |
| ٧- القبول | Acceptability |

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ٢٩/١.

ويمكن تصنيف هذه المعايير السبعة في:

- ١- ما يتصل بالنص في ذاته Text-centered وهما معيارا السبك والحبك.
- ٢- ما يتصل بالسياق المادي والثقافي المحيط بالنص، وذلك معايير التناص والسياق والإعلامية.
- ٣- ما يتصل بمستعملي النص سواء أكان المستعمل منتجاً أم متلقياً User centered وذلك معيارا القصد والقبول^(١).

بين نحو الجملة ونحو النص:

لا يفوتنا أن نوضح باختصارٍ غير مغلٍ العلاقة بين نحو الجملة ونحو النص؛ حيث اقتصر الدرس اللساني القديم على الجملة، فبين مكوناتها وقواعدها التي تحكمها، واعتمد المنهج الوصفي الذي يقوم على تحليل المستويات اللغوية المختلفة، سواء أكانت شكلية أم دلالية، كالبنيات الصوتية، والصرفية، والتركيبية، وما يتصل بها من دلالات معجمية، ومعانٍ وظيفية نحوية بين الوحدات الصغرى للغة ذات الأنساق التركيبية والعلاقات السياقية، وينصب اهتمام أصحاب هذا المنهج على وضع الأنظمة اللغوية والقواعد النحوية الممثلة لما يعرف بـ «الصحة اللغوية» لأي لغة من

(١) انظر:

- سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية، ضمن كتاب: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، مجلس النشر العلمي، الكويت، ٢٠٠٣م، ص ٢٢٦: ٢٢٥.
- النص والخطاب والإجراء: ص ١٠٣: ١٠٦.
- الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٢.
- علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص ١٤٦.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ١/ ٣٤: ٣٣.
- إبراهيم محمد الدسوقي، نحو النص، دراسة تطبيقية لمفاهيم علم النص، رسالة دكتوراه، إشراف أ.د. تمام حسان، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٤٣.

اللغات، بصرف النظر عما إذا كانت القواعد تصوراً افتراضياً من المحلل الذي يخضع له المادة اللغوية - موضوع بحثه - أم أنها موجودة داخل اللغة ؛ ومن ثم يقوم المحلل باستنتاجها عن طريق الملاحظة الدقيقة للتركيب. ثم اتسعت دائرة البحث اللغوي لتبحث أبنية النص وصياغته، ويرتكز هذا النمط من الدراسات على الوظيفة التواصلية للغة، حيث يتصور أن النص ما هو إلا لغة في موقف تواصل حركي بين المتداولين لها ؛ فالتكلم يعتمد إلى لغته ليعبر بها عن أغراض معينة يتواصل بها مع الآخرين، فلا يعنيه عندئذ أن يقف محلاً لأدق تفاصيل اللغة، كتحليل الأصوات، أو الأبنية الصرفية والنحوية - وهي أيضاً من الأهمية التي لا يمكن الاستغناء عنها - لأنها تدخل ضمن قدرته وكفاءته اللغوية ؛ تلك التي تمكنه من إنتاج التراكيب اللغوية الصحيحة الملائمة لموقف التواصل الاجتماعي، كما تمنحه أيضاً مساحة من الحرية في توظيف لغته، فلا يلتزم بحرفية القواعد لإجراءات تداولية استعمالية يفرضها المقام وملاساته.

بيد أن هناك علاقة تكامل بين الجملة والنص، فعلم اللغة الجملي تمهيدٌ ضروريٌ لعلم اللغة النصي ؛ فلا يمكن أن يلغي أحدهما الآخر ؛ لما فيه من تجاهل لحقب فكرية مديدة من البحث اللغوي وتجاهلٍ - أيضاً - لأهم مكونات النص الشكلية التي تتمثل في الجملة ؛ ففي تراثنا العربي من الدلائل ما يشير إلى ضرورة الجمع بين المنهجين ؛ ذلك أن من مآثراتنا أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأن السنة تفصل ما في القرآن من إجمال «فالغاية هي الانتفاع بالنص في جملة ؛ لبيان وفائه بما تعلق به من أغراض، ثم بيان انتفاع النص بالنص في جلاء ما غمض من مرامي، غير أن اتحاد القصد لا ينفي اختلاف المنهج»^(١) ؛ نظراً لاختلاف معطيات كل دراسة.

(١) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م، مقدمة المترجم، ص ٤.

فمفهوم النحو في لسانيات النص يأخذ أدواراً أخرى غير أدواره في لسانيات الجملة؛ فلا يراد منه مجموعة القواعد القسرية والقوانين التي تطبق على النص، وإنما هو القوانين الاختيارية المستنبطة من النص ذاته، ولذلك فإن نحو الجملة غير كافٍ لوصف الظواهر التي تتجاوز حدود الجملة، حيث إنه يُعدُّ «قواعدها - أي الجملة - متتهى همه ومبلغ علمه، لا يُقر للنص بكيونة متميزة تُوجب معالجة تركيبه مجموعة نحوية تستجيب لمقتضيات بنيته، وتكون مؤهلة لتشخيصها ووصفها، وبهذا يقع النص خارج مجال الدرس النحوي، ويبدأ التحليل النحوي باجتزاء الجمل وعزلها تقريباً عن سياقها في النص أو الخطاب، ويصبح السلوك اللغوي مجرد تحقيق لا نهائي لعدد من نماذج الجملة، وما على النحوي إلا الكشف عن هذه النماذج، وتحديد قوانينها على مكوناتها التركيبية ليصير الكلام جميعه قيد الضبط»^(١).

وقد ظلت الجملة في أنحاء اللغات - ومنها النحو العربي في بعض الأحيان^(٢) - قديماً وحديثاً أكبر وحدة لغوية في التحليل اللساني؛ لارتباطها - كما ذكرنا سابقاً - بغاية الصواب والخطأ في إنتاج المتكلم للجمل والتراكيب، ومن ثم كانت العناية بوسائل تأليف الأصوات والأبنية الصرفية والنحوية، وتقديم الصياغة والنظم على حساب العناية بالمعاني والدلالات، ناهيك بالدلالة الاجتماعية للجمل عن طريق ربطها بالمقامات المختلفة التي تُنجز فيها.

(١) سعد مصلوح، العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، بحث ضمن الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية - جامعة الكويت، عبد السلام هارون معلماً ومؤلفاً ومحققاً، إعداد ودیعة طه نجم، وعبد بدوي، ١٩٨٩م - ١٩٩٠م، ص ٤٠٧: ٤٠٦.

(٢) فالنحو العربي - في كثير من الأحيان - لم يفصل بين أداء الجملة والموقف المحيط بها، وأما القصور المنهجي كان في اكتفائهم بالجملة - غالباً - على أنها الوحدة اللغوية الأكبر في التحليل ولم يتطرقوا إلى نحو النص بصورته المثالية. انظر: سيويه، الكتاب، ت: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٩م، باب ما يضم فيه الفعل المستعمل ٢٥٧/١، وباب الذي يكون المتبداً فيه مضمراً ويكون المبني عليه مظهراً ١٣٠/٢.

وحيال ذلك القصور المنهجي في دراسة اللغة داخل المواقف الأدائية كان من الضروري أن يُبمّم البحث اللساني وجهه نحو النص، «وهو نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبة؛ تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة، بالإضافة إلى فحصها لعلاقة المكونات التركيبية داخل الجملة «Intra sentential constituents»، وتشمل علاقات ما وراء الجملة مستويات ذات طابع تدرجي، يبدأ من علاقات ما بين الجمل «Intra sentential relations»، ثم الفقرة «Paragraph»، ثم النص «Text» أو الخطاب «Discourse» بتمامه^(١). وقد أجمل بعض الباحثين^(٢) العوامل التي نقلت البحث في اللغة من مجال الجملة إلى مجال النص وهي كالتالي:

- اجتذبت النصوص علم النحو بناءً على وجود مذاهب نقدية تركز على النص كبنية كلية، لا على الجمل باعتبارها بنى فرعية، حيث صنع ذلك تطوراً واضحاً في التحول من نحو الجملة إلى نحو النص، وسياقه، ومعانيه المتعاقبة، وظروف التواصل... إلخ.
- كثير من الظواهر التركيبية لم تجد في إطار نحو الجملة تفسيراً كافياً مقنعاً، وربما يتغير الأمر إذا اتجه الوصف في الحكم على هذه الظواهر في إطار وحدة أكبر من الجملة هي النص، وذلك من خلال دراسة أشكاله البنائية، ومعايير التماسك والترابط والانسجام بينها.

(١) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، ص ٤٠٧.

(٢) أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، صحيفة دار العلوم، العدد ١٦، مكتبة

زهراء الشرق، ط ١، القاهرة، ديسمبر ٢٠٠٠م، ص ٤٣: ٣٧.

- غلبة النظرة الاجتماعية على الدرس اللغوي، والعناية بدور اللغة التواصلية مما ساعد على توسيع مفهوم النحو؛ ليصبح مكوناً من مكونات نظرية شاملة تُفسر السلوك الإنساني من خلال ربط النص بسياقه التواصلية، لا من خلال الجملة.
- الإفادة من نحو النص في خدمة الترجمة من لغة إلى لغة أخرى؛ لحاجتها إلى الترابط في استعمالات اللغة، وذلك من المهام المنوط بها نحو النص، وهو ما لا توفره الدراسات التقليدية التي تعني بالنظم الافتراضية للنحو وللمعاجم الخاصة باللغات.
- إنه من خلال نحو النص يمكن أن نُعيد النظر في فهم بعض المفاهيم اللغوية السائدة، وذلك إما بتعميقها أو تعديلها؛ ومثال ذلك: إعادة دراسة مفهوم الوحدة العضوية في القصيدة الجاهلية من خلال وسائل التماسك الشكلية والمفهومية بين الأغراض الشعرية المتعددة، ومن ذلك أيضاً تغيير النظرة إلى التضمنين العروضي الذي عُدَّ قديماً من عيوب القافية؛ إذ يمكن أن يُدرس النحو كوسيلة للتماسك الشكلي والدلالي بين أجزاء القصيدة.

ويذكر الدكتور الأزهر الزناد سبباً آخر فيقول: «الاتصال الوثيق بين كل من علم النحو وعلم البلاغة وعلم النقد وعلم الشعر أيضاً، من بين الأسباب التي أدت إلى الإحساس القوي بضرورة توسيع الدراسات القائمة على الجملة إلى دراسات ذات إطار أوسع يتمثل في النص»^(١). ويضيف أستاذي الدكتور صبحي الفقي سبباً آخر - لما سبق - فيقول: «ونرى من أسباب اللجوء إلى الدراسة النصية كذلك العلاقة بين فقرة وفقرة، ونص ونص، وهذا يبرز عند النظر إلى السور القرآنية؛ فلا يمكن إدراك هذه الصلة والترابط من خلال نحو الجملة، بل النظرة النصية بمفهومها الواسع»^(٢).

(١) نسيج النص، ص ٥.

(٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ١/ ٥٢.

مهام نحو النص:

يجب ألا نبالغ في أحكامنا عند التمييز بين نحو الجملة ونحو النص، ومحاولة إلغاء، أو إقصاء الأول لقصوره المنهجي في حل كثير من مشكلات اللغة؛ لأن صفة التكامل بينهما قائمة في البحث اللساني، والصلة بينهما وثيقة إلى الحد الذي لم تنجح معه كل محاولات التمييز بينهما، إلا أن ذلك لا يعني الإخفاق في وضع تصورات واضحة عن مهام نحو النص. فقد رأى فان دايك Van Dijk «أن نحو الجملة يشكل جزءاً (كماً) غير قليل من نحو النص»^(١). ومن ذلك أنه يمد نحو النص في الحكم على النصوص بالتماسك والانسجام بالروابط اللغوية، كالأحالات الضميرية والإشارية، وحروف العطف... إلخ - كما سيتبين لنا في فصل السبك^(٢) - إن شاء الله - وكذلك يمدنا نحو الجملة في الحكم على النصوص من خلال الروابط الدلالية، والعلاقات المفهومية بين الجمل والعبارات المكونة له وغيرها مما سنفصله أيضاً في فصل الحبكة^(٣) - إن شاء الله -. وفي سبيل وضع تصور واضح عن مهام نحو النص عمد بعض علماء النص مثل: دي بوجراندي «Debeaugrande» إلى بيان مجموعة من الفوارق الجوهرية بين النص وبين الجملة، سوف نجملها فيما يلي:

- من ذلك أن الجملة كيان قواعدي خالص يتحدد على مستوى النحو فحسب، أما النص فحقه أن يُعرف تبعاً للمعايير الكاملة للنصية، كالسبك، والحبكة، والقصد، والقبول، ورعاية الموقف، والتناص، والإعلامية، وهذه المعايير ضمنية بأن تتغلب على قيود القواعد المفروضة على البنية التجريدية للجملة في النص، وخاصة عند تفعيل معيار السياق - وبالأخص رعاية

(١) علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص ١٣٥.

(٢) فصل السبك، ص ٨٦: ١٦.

(٣) نفسه، ص ١٤٠: ٨٧.

الموقف أو ما نسميه السياق الخارجي - الذي يحافظ على الطاقة التواصلية في النص، ومن ثم لا ينبغي للصواب النحوي أن يُعدَّ قانوناً بل يُعدُّ بديلاً معيارياً عندما تغيب القرائن الأخرى.

- ينبغي للنص أن يتصل بمقام يكون فيه، وتتفاعل داخله مجموعة من المرتكزات، والتوقعات والمعارف، وهذه البيئة الشاسعة تسمى سياق الموقف - ويسميه البحث: السياق الخارجي - أما التركيب الداخلي للنص فهو سياق البنية - ويسميه البحث السياق الداخلي -؛ ولذلك فإن الأعراف الاجتماعية، والعوامل النفسية أو ثق صلة بالنص منها بالجمال، فالوعي الاجتماعي ينطبق على الواقع لا على أنظمة القواعد النحوية التي تجعل الجملة صياغة ذهنية.
- النصوص تشير إلى نصوص أخرى بطريقة تختلف عن اقتضاء الجمل لغيرها من الجمل، وهذا الاختلاف هو المحك في التفرقة بين تعلم اللغة، وبين استعمال اللغة، فعندما نتعلم اللغة نعلم في استخدامنا للجمل على معرفة القواعد من نظام افتراضي عام، في حين نكون بحاجة عند استعمال النصوص إلى معرفة عملية بالأحداث المشابهة لها، وهو ما يعرف بالتناص^(١).

نخلص مما سبق أن بنية النص شاملة للبنى النحوية التركيبية، والدلالية، والتداولية؛ إذ هي في واقع الأمر أبنية صغرى تترابط فيما بينها بعلاقات منطقية على المستوى السطحي، والمستوى العميق للنص. وقبل أن نشرع في دراستنا التطبيقية على النص القرآني من خلال سورتي النساء والأعراف كأنموذجين للسور المكية والمدنية، أود أن أؤكد: أنه ليس معنى سعينا للإفادة بما استجد في الغرب من دراسات لغوية ونقدية معاصرة - أقول ليس معنى هذا - أن نأخذ بكل ما أتت به هذه الدراسات

(١) انظر هذه الفروق وغيرها: النص والخطاب والإجراء، ص ٩٤: ٨٩.

بغته وسمينه، ولكن ما ينبغي أن نأخذ به هو ما يتفق من هذه الدراسات مع لغتنا العربية، وما اختلف عنها، وعن مبادئها، وقوانينها تركناه؛ وذلك كله مبني على مبدأ صريح مفاده أنه «إذا كان ما يجيئنا من الغرب ليس خيراً كله فهو أيضاً ليس شراً كله»^(١)، وذلك لا شيء إلا أن لكل لغة خصائصها التي تختلف في كثير منها عن خصائص غيرها، وذلك يعني أننا لن نتقبل في رضا أو في غير رضا مبالغات أية نظرية لغوية أو نقدية حديثة. أي أنه لا ضير من الاتصال بالآخر الثقافي، غير أنه يجب علينا في اتصالنا به ألا ننسى الاختلاف، وأنه ليس كل ما ينتجه ذلك الآخر اتساقاً مع انتمااته الثقافية يتفق مع الانتماات أو حتى الولاءات التي تفرضها الثقافة العربية، وفي الوقت نفسه. فإن ذلك لا يعني أن كل ما ينتجه ذلك الآخر يختلف بالضرورة مع انتماات الثقافة العربية، ومرة أخرى إذا كان ما يأتي من الغرب ليس خيراً كله، فهو أيضاً ليس شراً كله، ولا يخرج عن ذلك القرآن الكريم، فهو أيضاً نصٌ واحدٌ يتصف بتناسك أجزائه وترباطها واتساقها، وأخذ بعضها بحجز بعض؛ فالقرآن الكريم كله - كما سنرى من خلال الدراسة التطبيقية إن شاء الله - نصٌ واحدٌ متصل الأجزاء يفسر بعضه بعضاً ومما يدل على ذلك كما يقول ابن الشجري: «إنه قد يذكر الشيء في سورة فيجيء جوابه في سورة أخرى؛ لأن القرآن يجري مجرى السورة الواحدة»^(٢). وأخيراً وليس آخراً وعند هذه النقطة، وبعد أن ارتضيت تعريف روبرت دي بوجراند ودريسلر للنص؛ فإنه قد حان الوقت لبدء الدراسة التطبيقية لهذه المعايير النصية من خلال اتخاذ سورتي النساء والأعراف - نموذجاً للتطبيق أو أول هذه المفاهيم هو مفهوم السبك، وهو موضوع الفصل التالي.

(١) عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٩٨، نوفمبر ٢٠٠٣م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، ص ٢٧٨.

(٢) ابن الشجري: أماليه، تحقيق محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، ط ١، القاهرة ١٩٩٢م، ١٤٢/٢، ١٤٥، ٥٢٤.

الفصل الأول

(السبك)

«Cohesion»

مصطلح السبك:

تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن المعنيين باللسانيات النصية انقسموا على أنفسهم في وضع صياغة دقيقة ومحددة لترجمة المصطلح الأجنبي «Cohesion» على النحو التالي:

- ١ - السبك: سعد مصلوح^(١)، ومحمد العبد^(٢)، وتمام حسان^(٣)، وجميل عبد المجيد^(٤)، وأشرف عبد البديع^(٥)، ومحمد سالم صالح^(٦)، حسان أحمد فرج^(٧)، إبراهيم الدسوقي^(٨)، وأحمد عبد الرازي^(٩).

-
- (١) في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية (نحو أجرومية للنص الشعري)، ص ٢٢٧.
 (٢) محمد العبد، حبك النص، منظورات من التراث العربي، مجلة النقد الأدبي (فصول)، العدد ٥٩، ربيع ٢٠٠٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٥٤.
 (٣) النص والخطاب والإجراء، ص ٢٩٩.
 (٤) جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م، ص ٧٧.
 (٥) أشرف عبد البديع عبد الكريم، الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٤٢.
 (٦) محمد سالم صالح، صور التماسك النصي في سورة القتال، مجلة فكر وإبداع، الجزء ٤٦، يوليو ٢٠٠٨، دار الإبداع، القاهرة، ص ٩٧.
 (٧) حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص الشعري، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٧٨.
 (٨) نحو النص، دراسة تطبيقية لمفاهيم علم النص، ص ٤٥.
 (٩) أحمد محمد عبد الرازي، نحو النص بين الأصالة والحداثة، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٠١.

- ٢- الاتساق: محمد خطابي^(١)، وفريد عوض حيدر^(٢).
- ٣- التماسك: الأزهر الزناد^(٣)، وصبحي الفقي^(٤)، وجودة مبروك^(٥).
- ٤- الربط: سعيد بحيري^(٦)، وعزة شبل^(٧)، وأحمد عفيفي^(٨).
- ٥- التضام: تمام حسان^(٩)، وإلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمدي^(١٠).
- ٦- الالتحام: تمام حسان^(١١).

وأود أن أقرر بداية أنني أثرت استخدام مصطلح السبك «Cohesion» دون غيره؛ لأنه ليس غريباً عن أدبيات النقد العربي القديم، ويمكن توضيح هذا القرب وهذا الشيع بالرجوع إلى التراث النقدي

-
- (١) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط ١، الدار البيضاء - المغرب، ص ١١.
 - (٢) فريد عوض حيدر، اتساق النص في سورة الكهف، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م، ص ١٣.
 - (٣) نسيج النص، ص ١٥.
 - (٤) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ١ / ٩٣.
 - (٥) جودة مبروك محمد، التكرار وتماسك النص (قصائد القدس لفاروق جوييدة نموذجاً)، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م، ص ١١.
 - (٦) علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص ١٢٣.
 - (٧) عزة شبل، علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م، ص ٩٩.
 - (٨) نحو النص، ص ٢٢٤.
 - (٩) نحو الجملة ونحو النص، الموسم الثقافي لجامعة أم القرى، ١٩٩٥ م، ص ١.
 - (١٠) إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، الهيئة المصرية للكتاب، ط ٢، القاهرة ١٩٩٩ م، ص ١٧.
 - (١١) النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٣.

والبلاغي عند العرب، حيث نجد النقاد يستخدمون مصطلح السبك^(١)، كما أنها الترجمة الأكثر قبولاً وشيوعاً.

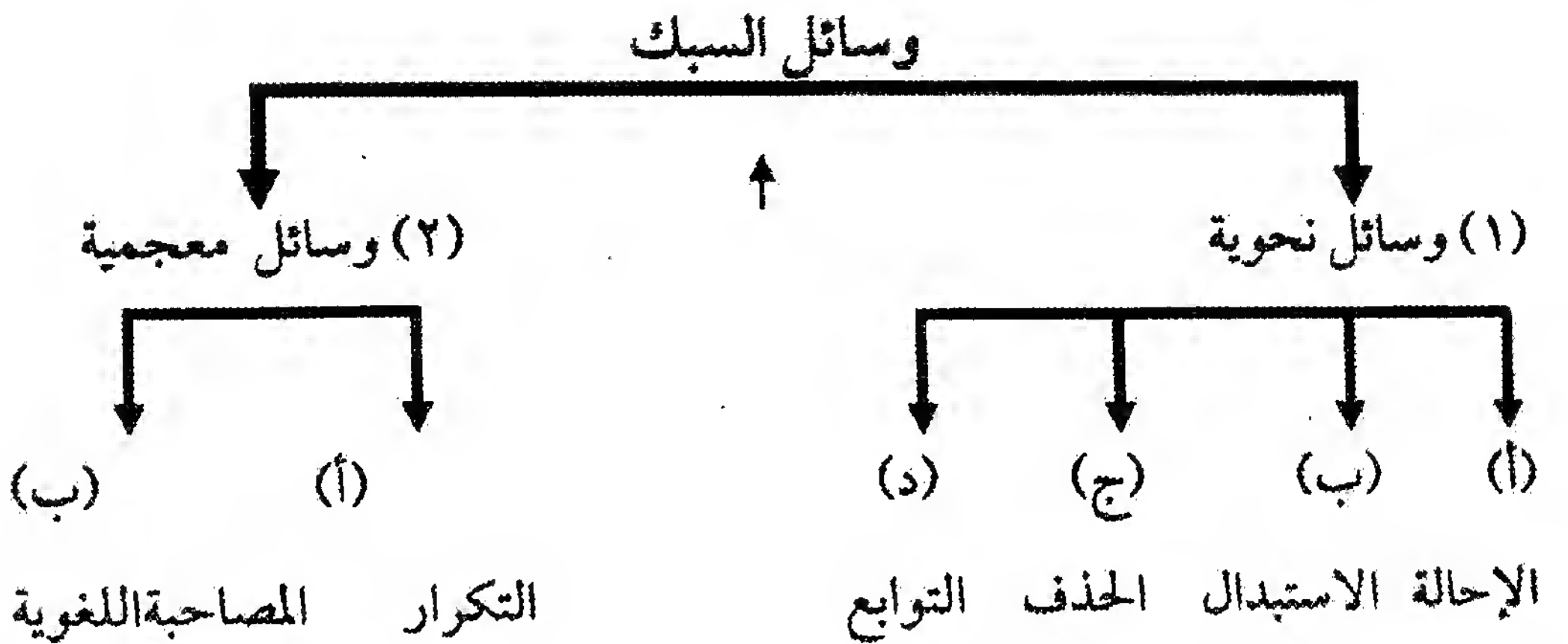
وسائل السبك:

ويختص معيار السبك بالوسائل التي تحقق بها خاصية الاستمرارية «surface text»، ونعني بظاهر النص الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني، والتي نخطها أو نراها، بما هي كم متصل على صفحة الورق، وهذه الأحداث أو المكونات يتتظم بعضها مع بعض تبعاً للمباني النحوية، ولكنها لا تشكل نصاً إلا إذا تحقق لها من وسائل السبك ما يجعل النص محتفظاً بكيونته واستمراريته. ولذا، فإن أهمية السبك تكمن في خلق نصية النص، وتحقيق الاستمرارية والاطراد، والإفادة، وفهم النص وتفسيره، وأبرز من ذلك جعل النص مجموعة من الوحدات المتداخلة والمتشابكة والمتكاملة يسري من خلالها تدفق دلالي

(١) انظر:

- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط ٣، القاهرة ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م، ص ٣٩.
- الجاحظ، البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط ٧، القاهرة ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م، ١ / ٦٧.
- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، القاهرة، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م، ص ١٦٨.
- أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، ت: عبد الله علي مهنا، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ص ١٠٠.
- ابن القيم الجوزية: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص ٢٤٨.
- ابن أبي الإصبع المصري: بديع القرآن، ت: حفني محمد شرف، نهضة مصر، ط ٢، القاهرة، ١٩٧١ م، ص ١٦٦.
- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ت: عباس عبد الستار، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤٠٢ - ١٩٨٢ م، ص ١٣١.

تفصي فيه كل فكرة إلى أختها، مع التركيز على صحة النشاط اللغوي من خلال صحة المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية^(١). وعلى هذا النحو ينبغي إدراك أن السبك مأخوذ بعين الاعتبار هو السبك المبني على الترابط الشكلي، ولكنه يسهم - لا شك - في تحقيق التماسك الدلالي (الحبسك)، فوسائل السبك وأدواته ليست هي الضمان الوحيد للنصية، وإنما هي نص ظاهر يعكس باطناً، أو علاقات في ظهر النص تشير إلى علاقات دلالية في عالم النص. وقد بينت الدراسات الحديثة أن هناك آليات مختلفة تعمل على سبك النص، منها: الضمائر، وأسماء الإشارة، وأداة التعريف، والأسماء الموصولة، وأدوات العطف، والمناسبة المعجمية، وغير ذلك من الوسائل التي تربط بين مكونات النص ربطاً خطياً أو ملفوظاً أو سياقياً يعمل على تتابع النص وتواصله. ويمكن تقسيم وسائل السبك إلى قسمين من خلال الشكل التوضيحي:

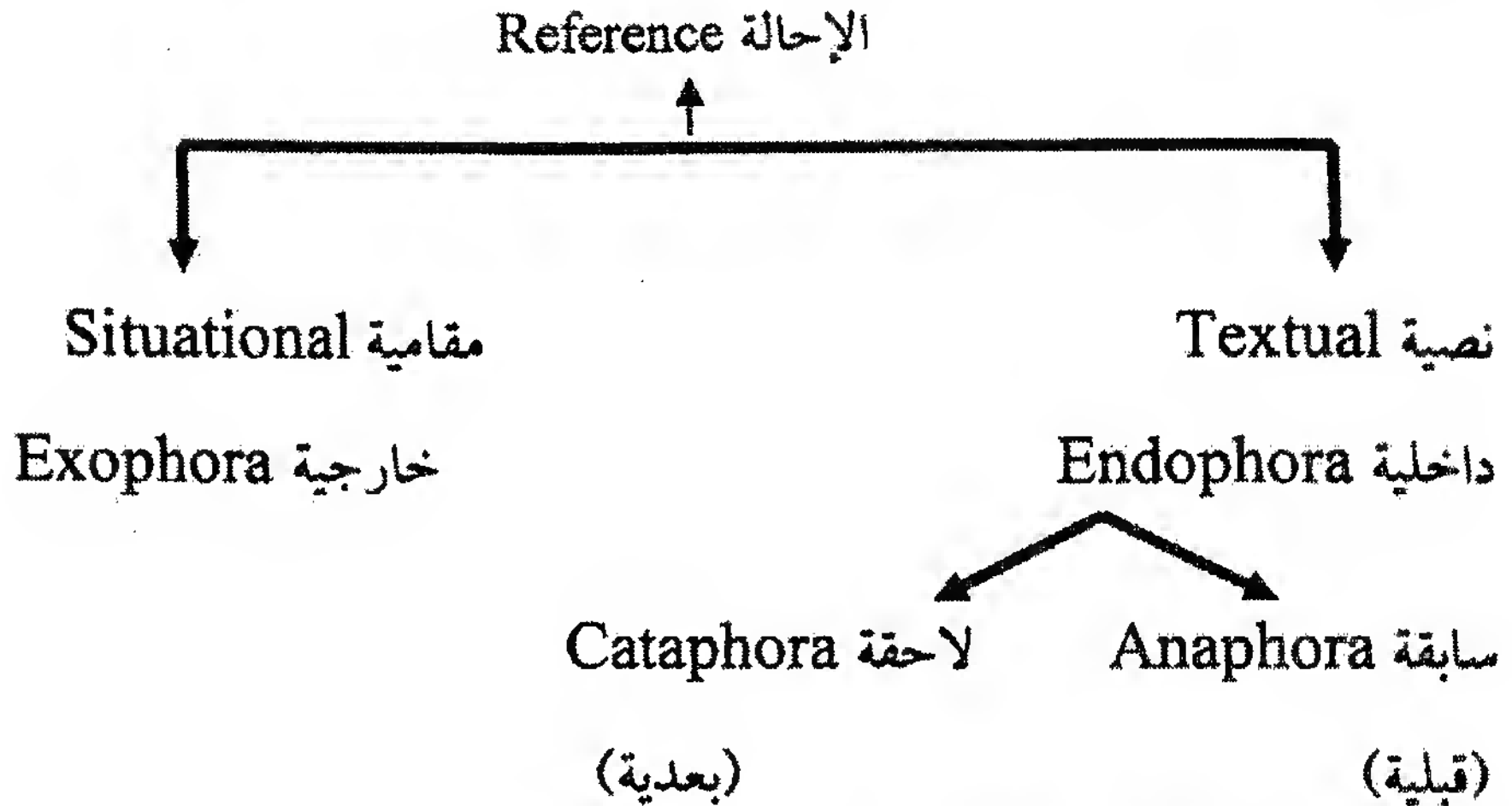


(١) انظر:

- محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٨٩.
- علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ص ٩٩.
- فايز أحمد الكومي، أثر الروابط في البناء النصي، دورية علوم اللغة، مجلد ١١، العدد ٣، ٢٠٠٨م، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٢١.

أولاً: وسائل السبك النحوي:

(أ) - الإحالة Reference: إن الروابط الإحالية تعد أمراً مهماً في سبك النص، وتحقيق تماسكه وترابطه، وللإحالة أكثر من وجه: فهناك إحالة بالضمائر، وإحالة بأسماء الإشارة، وإحالة بالأسماء الموصولة، وإحالة بإعادة الذكر أو التكرار.



(أ-١) الإحالة بالضمائر:

(أ-١-١) سورة النساء:

بالرجوع إلى ملحق الجداول، جدول (١) ضمائر سورة النساء يتبين لنا أهم العناصر الإشارية العاملة في سورة النساء مرتبة حسب عدد العناصر الإحالية المتعلقة بها؛ كما يوضحها الجدول التالي:

عدد العناصر الإشارية ومرادفاتها	عدد العناصر الإحالية	م	العناصر الإشارية ومرادفاتها	عدد العناصر الإحالية	م
المؤمنين - الذين آمنوا - عملوا - الصالحات - المجاهدين	٣٤٦	٢	جهنم	٥	

عدد العناصر الإشارية ومراتفاتها	عدد العناصر الإشارية ومراتفاتها	م	م
٥	١٤٦	٤	٣
٤	١٤٩	٦	٥
٤	١١٥	٨	٧
٣	٩٣	١٠	٩
٣	٨٠	١٢	١١
٣	٤٨	١٤	١٣
٣	٤٧	١٦	١٥
٣	٤٠	١٨	١٧
٢	٨	٢٠	١٩
٢	٦	٢٢	٢١
٢	٥	٢٤	٢٣
٢	٥	٢٦	٢٥
٢	٥	٢٨	٢٧
	٥		٢٩

هذا بالإضافة إلى كثير من العناصر الإشارية التي عمل كل واحد منها في عنصر إحالي واحد، ومنها: (الفاحشة - الأموال - ذرة - الحسنة - الكذب - إبراهيم - جلود - الأمانات - الطاغوت - القتل - التحية - أرض الله - الحديث - المظلوم - القلوب - الطيبات - الخ). وبالرجوع إلى جدول الضمائر (١) في الملحق يمكن تصنيف العناصر الإحالية (الضمائر المتعلقة بالعناصر الإشارية) على النحو التالي:

نوع الضمير	العدد	نوع الإحالة	العدد
الغائب	٧٥٤	السابق	١١٩٤
المخاطب	٤٤٣	اللاحق	٥
المتكلم	٧٦	الخارجي	٧٤
المجموع	١٢٧٣	المجموع	١٢٧٣

● يلاحظ على هذه العناصر الإحالية في الجدول السابق ما يلي:

- ١- ضمائر الغائب تمثل ٦٠٪ تقريباً؛ وهذا أمر طبيعي في عموم النص القرآني؛ حيث تمثل ضمائر الغائب الأغلبية.
- ٢- إن نوع الإحالة النصية بنوعيتها (السابقة واللاحقة) تمثل حوالي ٩٨٪ تقريباً؛ وهذا أمر طبيعي أيضاً؛ إن الإحالة النصية - بنوعيتها - أكثر أنواع الإحالات في النصوص عامة.

وبعد استعراض هذا الإحصاء للعناصر الإشارية العاملة في سورة النساء، وما يرتبط بها من عناصر إحالية مختلفة نجد أن هذه العناصر الإشارية في السورة يتجاوز (٤٤) عنصراً بمرادفاته، وأن العناصر الإحالية (الضمائر) التابعة يصل إلى (١٢٧٣) عنصراً إحالياً ومعني ذلك أن مجموع العلاقات الإحالية بالضمائر فقط (١٢٧٣) علاقة. فإذا قسم

هذا العدد على آيات السورة الكريمة البالغة (١٧٦) آية وجدنا أن كل آية تشتمل على سبع علاقات تقريباً - إحالية بالضمائر فقط. وإذا قسمنا مجموع هذه العلاقات على عدد جمل السورة الكريمة والتي تبلغ حوالي (١٣٥٠) جملة تقريباً، وجدنا أن كل جملة تكاد تشتمل على علاقة إحالية واحدة على الأقل من هذه العلاقات^(١).

هذا عن العناصر الإشارية العاملة؛ أما العناصر الإشارية غير العاملة فهي كثيرة ومنتشرة في فضاء نص السورة الكريمة (سورة النساء) ولا تخلو من عناصر إحالية (الضمائر) تربطها بعناصر إشارية عاملة؛ ومنها على سبيل المثال: يقول - سبحانه وتعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَ اللَّهُ فِتْنَتَهُمْ خَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي يَخَافُونَ فَتَوَارَكُ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤). فكلية (بعضهم) عنصر إشاري غير عامل أي لا يتبعه ولا يسبقه عنصر إحالي مرتبط به؛ ومع ذلك مرتبط بضمير (هم) عنصر إحالي يعود على لفظ (الرجال) السابق أي إحالة داخلية سابقة، ولفظ الرجال من العناصر الإشارية العام

(أ-١-١) نماذج في سورة النساء:

وسورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة وهي سورة مليئة بالأحكام التشريعية التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين؛ وهي تعني بجانب التشريع عامة شأن السور المدنية؛ وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق

(١) محمود بن عبد الرحيم الصافي، الجدول في إعراب القرآن، دار الرشيد مؤسسة الإيمان، ط ٤، دمشق، ١٤١٨ هـ، سورة النساء، ٤/٤٢٨: ٦/٢٦٥.

بالمرأة والبيت والأسرة والدولة والمجتمع. وبالرجوع إلى الإحصائيات نلاحظ أهم العناصر الإشارية مرتبة حسب عدد العناصر الإحالية و تتمثل في الآتي:

● لفظ المؤمنین (٣٤٦) عنصراً إحالياً.

● لفظ الجلالة (١٤٩) عنصراً إحالياً.

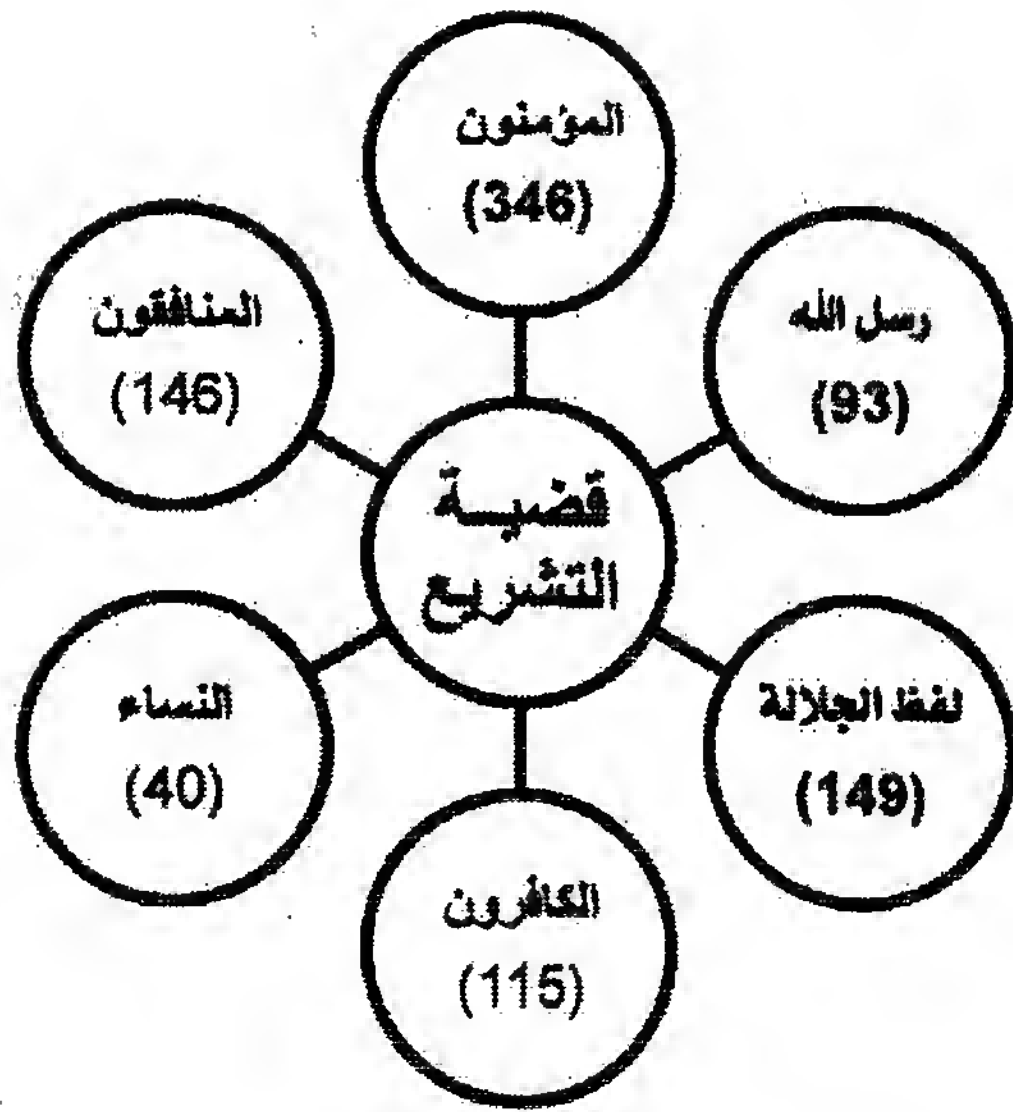
● لفظ المنافقین (١٤٦) عنصراً إحالياً.

● لفظ الکافرین (١١٥) عنصراً إحالياً.

● رسل الله جميعاً (٩٣) عنصراً إحالياً.

● لفظ النساء (٤٠) عنصراً إحالياً.

ويمكن تمثيلها بالشكل التالي:



فالكل يتجه نحو القضية المحورية (التشريع).....

● إما بالتكليف (الله - سبحانه وتعالى -)،

● أو بالتبليغ (رسل الله - عليهم السلام - جميعاً)؛

● أو الطاعة والتنفيذ (المؤمنون - ومنهم النساء -)،

● أو التكذيب والتشكيك (الكافرون والمنافقون).

وبالنظر إلى الضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة التي يصل مجموعها إلى

(١٤٩) ضميراً؛ تعود كلها إلى لفظ الجلالة (الله) - تبارك وتعالى - مع العلم بأن

عدد آيات السورة الكريمة (١٧٦) آية؛ وذلك دلالة على انتشار الضمائر في قضاء

نص السورة من بدايتها إلى نهايتها؛ وكأنها تعود إلى مرجوع واحد؛ إذن فهي

مرتبطة به ليس شكلاً فحسب بل دلالة - أيضاً - . وقد تنوعت الضمائر التي تعود

إلى لفظ الجلالة بين منفصل، ومتصل، ومستتر.

ومن هذه الآيات بالنسبة للضمير المنفصل ثلاث آيات فقط، وهي قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (النساء: ٨٧).

﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (النساء: ١٠٨).

﴿ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ ﴾ (النساء: ١٤٢).

وبالنسبة للضمير المتصل فمنها قوله تعالى:

﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ (النساء: ١).

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (النساء: ١٣).

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾ (النساء: ١٤).

﴿ .. وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٠).

﴿ .. وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ٥٠).

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ (النساء: ١٥٨).

﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ (النساء: ١٦٦).

وبالنسبة للضمير المستتر قوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء: ١)

﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ.. وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٢٦)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨).

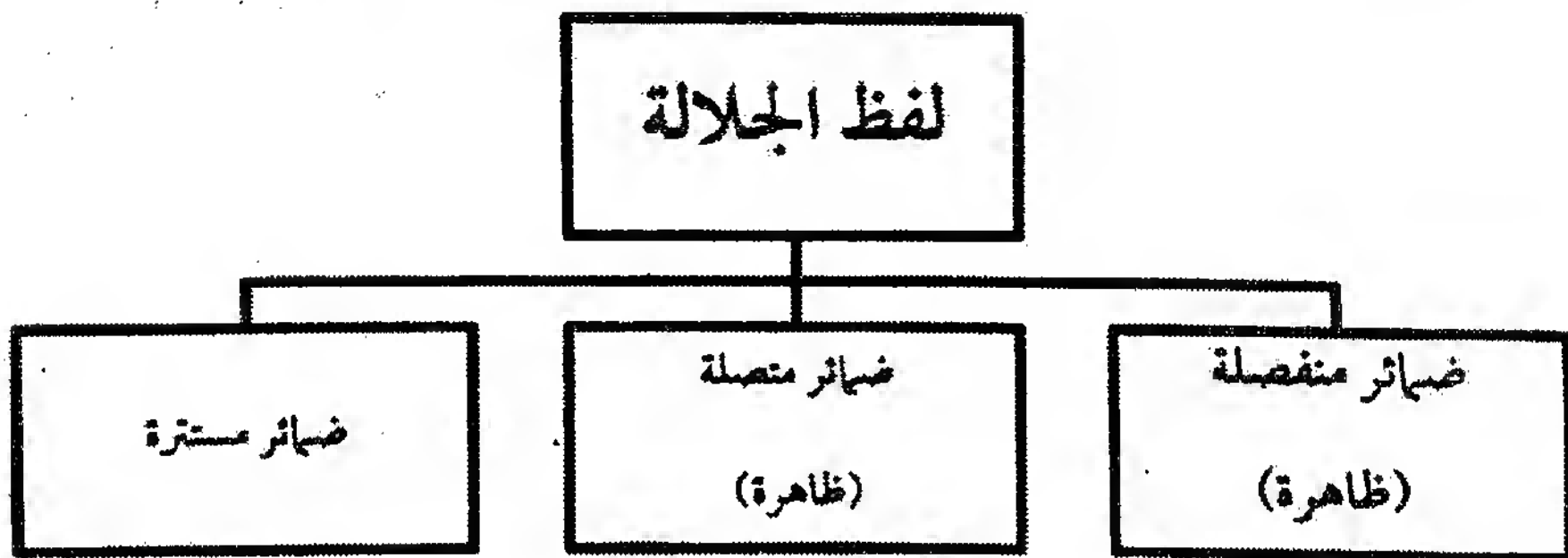
﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (النساء: ٨٧).

﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣).

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ١٠٢).

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ (النساء: ١٣٣).

وتتنوع تلك الضمائر بين الغائب والمتكلم والمخاطب كما بينها الإحصاء؛ كما تتنوع كذلك بين المفرد والجمع؛ وكلها تعود إليه - سبحانه وتعالى - وقد ذكر لفظ الجلالة في بداية السورة في قوله تعالى - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ (النساء: ١). وهو ذكر صريح؛ ومن ثم فإن مرجعية هذه الضمائر تمثل مرجعية داخلية سابقة. ويمكن تمثيل مرجعية الضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة مرجعية داخلية سابقة كالآتي:



أما الضمائر التي تحيل إلى رسل الله، فمنها ما يحيل إلى سيدنا محمد - ﷺ -؛ ومنها ما يحيل إلى رسل الله - عليهم جميعا وعلي نبينا الصلاة والسلام - أما ما يحيل إلى سيدنا محمد - ﷺ - فمنها قوله تعالى:

- (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ) (النساء: ٤٤)،
 (وَأَتَمَعَ بَعْضُهُمْ نَفْسَهُمْ وَرَأَيْنَا) (النساء: ٤٦)،
 (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ) (النساء: ٤٩)،
 (أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُفْبُ) (النساء: ٥٠)،
 (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا) (النساء: ٥١)،
 (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ) (النساء: ٦٠)،
 (ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرَدْنَا إِلَّا لِحُسْنًا وَتَوْفِيقًا) (النساء: ٦٢)،
 (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ) (النساء: ٦٣)،
 (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ) (النساء: ٦٣)،
 (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ .. وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ) (النساء: ٧٩)،
 (فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (النساء: ٨٤)،
 (وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ) (النساء: ١٠٦)،
 (وَتَسْتَغْفِرُونَكَ فِي الْإِسَاءِ) (النساء: ١٢٧)،
 (بِشِرِّ الْمُتَفِقِينَ الْوَالِدَيْنِ) (النساء: ١٣٨)،
 (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) (النساء: ١٦٣).

ومرجعية هذه الضمائر خارجية؛ وذلك لأنه لم يذكر سيدنا محمد - ﷺ - صراحة في السورة؛ ولكن السياق هو الموضح للمرجعية. أما ما يحيل إلى رسل الله ومنهم سيدنا عيسى - عليهم جميعاً السلام - فمرجعية الضمائر داخلية سابقة؛ ومنها قوله تعالى:

- (. وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ اللَّهُ) (النساء: ١٥٢)
 (.. وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ) (النساء: ١٥٧)
 (بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) (النساء: ١٥٨)

﴿وَأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ (النساء: ١٥٩)

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ (النساء: ١٦٤)

﴿...وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ (النساء: ١٧١)

أما الضمائر التي تحيل إلى المنافقين في هذه السورة، فيلاحظ أنها تفوق عدد الضمائر التي تعود إلى الكافرين؛ ولعله مرتبط بطبيعة السور المدنية - عامة - وهو ما لانجده في السور المكية. فالمنافقون لم يكن لهم ظهور في العهد المكي؛ حيث التعذيب والقتل والتشريد؛ بينما نجده في العهد المدني حيث الأسرة والمجتمع والدولة، وازدهار أركان هذا الكيان الجديد مناخ يساعد على دخول ضعاف النفوس تحت مظلة هذه الدولة الواعدة؛ ليحقق من ورائها المصالح والمنافع. فكان لفظ المنافقين وصفاته يمثل عنصراً مهماً ومحوراً أساسياً من محاور سورة النساء؛ لذا كان عنصراً إشارياً بلغ عدد الإحالات بالضمائر إليه (١٤٦) ضميراً، ومنها قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَدَّ مَتَّ أَيْدِيهِمْ﴾ (النساء: ٦٢)

﴿...يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ (النساء: ٦٣)

﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبَنَا عَلَيْهِمْ﴾ (النساء: ٦٦)

﴿الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُنُوزُكُمْ﴾ (النساء: ٧٧)

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ (النساء: ٧٨)

وقد ذكر لفظ المنافقين صراحة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا

أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (النساء: ٦١)

ومن ثم فإن مرجعية الضمائر كلها داخلية سابقة^(١). وأما الضمائر التي تحيل إلى

(١) وكذلك الآيات (٦٤-٦٥-٦٧-٦٨-٧٢-٧٣-٨١-٨٢-٨٣-٨٨-٨٩-١٠٧-١٠٨-

١٠٩-١١٣-١٣٩-١٤٠-١٤١-١٤٢-١٤٣-١٤٥-١٤٦).

المؤمنين التي يبلغ عددها (٣٤٦) ضميراً؛ ولعل السبب الرئيسي في كثرة الضمائر التي تحيل إلى المؤمنين، وتحتل المرتبة الأولى عددياً بين العناصر الإحالية التي تتعلق بهذا العنصر الإشاري للعامل؛ يرجع إلى طبيعة النص المدني عامة - وسورة النساء خاصة - حيث كثرة التكاليف والتشريعات الموجهة إلى المجتمع المؤمن لتنظيم أسرته ومجتمعه ودولته، ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِيلُ لَكُمْ﴾ (النساء: ١٩)

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾ (النساء: ٢٦)

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٢٧)

﴿.. لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (النساء: ٢٩)

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٢)

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا..﴾ (النساء: ٣٦)

﴿.. لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى..﴾ (النساء: ٤٣)

﴿.. وَتَدْخُلُهُمْ ظِلَالٌ ظَلِيلًا﴾ (النساء: ٥٧)

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨)

﴿.. أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ..﴾ (النساء: ٥٩)

﴿.. خُذُوا حِذْرَكُمْ فَاتِفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ (النساء: ٧١)

ومرجعية الضمائر بوجه عام داخلية سابقة؛ لذكر لفظ المؤمنين (الذين ءامنوا) صراحة في بدايات السورة الكريمة. وبالنسبة للضمائر التي تحيل إلى لفظ النساء، فعلي الرغم من قلة عددها مقارنة بما سبق؛ إلا أنها تتوزع في سورة النساء من بدايتها إلى نهايتها ومنها:

• قوله تعالى: ﴿وَمَاتُوا نِسَاءً صَدُقْتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاكْلُوهُ هُنَّ كَأَمْ مَكَا﴾ (النساء - ٤).

• وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٢)

• وقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ إِمْرَأَةٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلُّانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَعْلَمُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦)

وأهم الكلمات المرتبطة بالضمير الإحالي هي^(١):

(صدقاتهن - طبن - فلهن - مما تركن - لهن - فلهن - تعضلوهن - آتيموهن - يأتين - عاشروهن - كرهتموهن - أخذن - منهن - فآتوهن - أجورهن - انكحروهن - أهلهن - آتوهن - أجورهن ---- إلخ). ومرجعية كل هذه الضمائر داخلية سابقة ماعدا قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِن نِّسَائِكَ﴾ (النساء: ١٥) حيث نون النسوة في ﴿يَأْتِيكِ﴾ يحيل إلى ﴿نِسَائِكَ﴾ أي العنصر الإشاري العامل للعنصر الإحالي نون النسوة ومن ثم فإن مرجعية هذا الضمير مرجعية داخلية لاحقة.

(أ.١-٢) سورة الأعراف:

أهم العناصر الإشارية العاملة في سورة الأعراف - بالرجوع إلى ملحق الجداول: جدول (٢) ضمائر سورة الأعراف - مرتبة حسب عدد العناصر الإحالية المتعلقة بها كما يوضحها الجدول الآتي:

(١) ولنلاحظ أرقام الآيات التي ورد فيها الضمائر التي تحيل إلى لفظ النساء صراحة أو إحدى مرادفاته كالمرأة والأخت والزوجة والأنثى، وهي كالآتي: (٤-١١-١٢-١٥-١٩-٢١-٢٣-٢٤-٣٢-٣٤-٣٥-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٧٦).

م	العناصر الإشارية ومرادفاتها	عدد العناصر الإحالية	م	العناصر الإشارية ومرادفاتها	عدد العناصر الإحالية
١	الذين كفروا	٣٦٦	٢	آيات - آية	١٣
٣	لفظ الجلالة	٢٢٩	٤	الأعراف	١٢
٥	بني آدم	١٥١	٦	الناس	٨
٧	المؤمنين	٩٨	٨	خلف	٨
٩	موسي (عليه السلام)	٩٦	١٠	القواحش - السيئات	٦
١١	نوح - عاد - صالح - لوط - شعيب	٦٥	١٢	عجلاً	٦
١٣	آل فرعون	٦٤	١٤	الأرض	٦
١٥	محمد (ﷺ)	٦٣	١٦	الجبل	٥
١٧	أهل القرية	٥١	١٨	كتاب	٥
١٩	أمة - أمم	٣٨	٢٠	نفساً	٤
٢١	السحرة	٣٦	٢٢	الكلب	٤
٢٣	إيليس - الشيطان	٣٥	٢٤	الألواح	٣
٢٥	الأصنام	١٧	٢٦	شرع الله	٣
٢٧	بني إسرائيل	١٥			

وهناك مجموعة من العناصر الإشارية عمل كل واحد منها في عنصر - إحالة واحد أو اثنين على الأكثر وهي: (القرآن - حملاً - حديث - الظلم - ليلة - لباساً - الوعظ - الأسماء الحسنى - الطيبات - الماء - شفعاء - ناقة - المدائن - عذاب - رحمة - الساعة - فتنة - الأغلال - عصا - أجل - أيد - آباؤنا - النور - رجلاً - الجنة - النار...). وهذه العناصر الإحالية المتعلقة بالعناصر الإشارية في سورة الأعراف كانت على النحو التالي كما يوضحه الجدول:

نوع الضمير	العدد	نوع الإحالة	العدد
غائب	٨٧٠	سابقة	١٣٦٥
متكلم	٣٠١	لاحقة	٥
مخاطب	٤٠٦	خارجية	٢٠٧
الإجمالي	١٥٧٧	الإجمالي	١٥٧٧

يلاحظ على هذه العناصر الإحالية ما يلي:

١- ضمائر الغائب تمثل ٦٠٪ تقريباً، وهذا أمر طبيعي لأن جلّ المشهد في سورة الأعراف هو حوار بين ربّ العزة - جل جلاله - وإبليس - لعنه الله -، أو بين أصحاب الأعراف وأهل الجنة وأهل النار، أو بين رسل الله وأقوامهم،..... يضاف إلى ذلك أن الحوار كله محكيّ.

٢- نوع الإحالة الداخلية أو النصية - سواءً كانت سابقة أو لاحقة تمثل ٨١٪ تقريباً، وهذا أمر طبيعي أيضاً؛ لأن الإحالة الداخلية - السابقة واللاحقة - أكثر أنواع الإحالة على النصوص.

وبعد استعراض هذا الإحصاء للعناصر الإشارية في سورة الأعراف، وما يرتبط بها من عناصر إحالية مختلفة، نجد أن العناصر الإشارية في سورة الأعراف (٥٣) عنصراً، وأن العناصر الإحالية التابعة لها (١٥٧٧) عنصراً، ومعنى ذلك أن مجموع هذه العلاقات (١٥٧٧) علاقة، فإذا قسم هذا المجموع على عدد آيات السورة البالغة (٢٠٦) آية وجدنا أن كل آية تشمل على سبع علاقات تقريباً من علاقات السبك - الإحالة - التي تربط بين أجزاء النص ومكوناته، وإذا قسمنا هذا المجموع على عدد الجمل المنتشرة في السورة وجدنا أن كل جمل النص التي تبلغ (١٠٧٢) جملة تقريباً تكاد تشتمل كل واحدة منها على علاقة واحدة - على الأقل - من هذه

العلاقات. هذا عن العناصر الإشارية العاملة وما يرتبط بها من عناصر إحالية؛ أما العناصر الإشارية غير العاملة، ويراد بها هنا تلك العناصر التي لا يتبعها ولا يسبقها عناصر إحالية فهي كثيرة ومتشعبة في سورة الأعراف، وليس معنى كون هذه العناصر الإشارية غير عاملة أنها تخلو من صلة بالنص، فبعض العناصر الإشارية لا تخلو من عناصر إحالية تربطها بعنصر إشاري عامل. فعلى سبيل المثال نجد أن لفظ «دَعَوْهُمْ» في قوله تعالى: «وَكَمْ مِنْ قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا يَتَسَاءَلُونَ ۚ هُمْ قَائِلُونَ ۖ فَكَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» (الأعراف: ٤ / ٥)، يحتوي على عنصر إحالي يربطه بعنصر إشاري عامل، أما العنصر الإشاري المعني فهو (أهل القرية)، مما يجعلنا نقول بتضافر العناصر الإشارية والعناصر الإحالية في سبك سورة الأعراف - النص^(١).

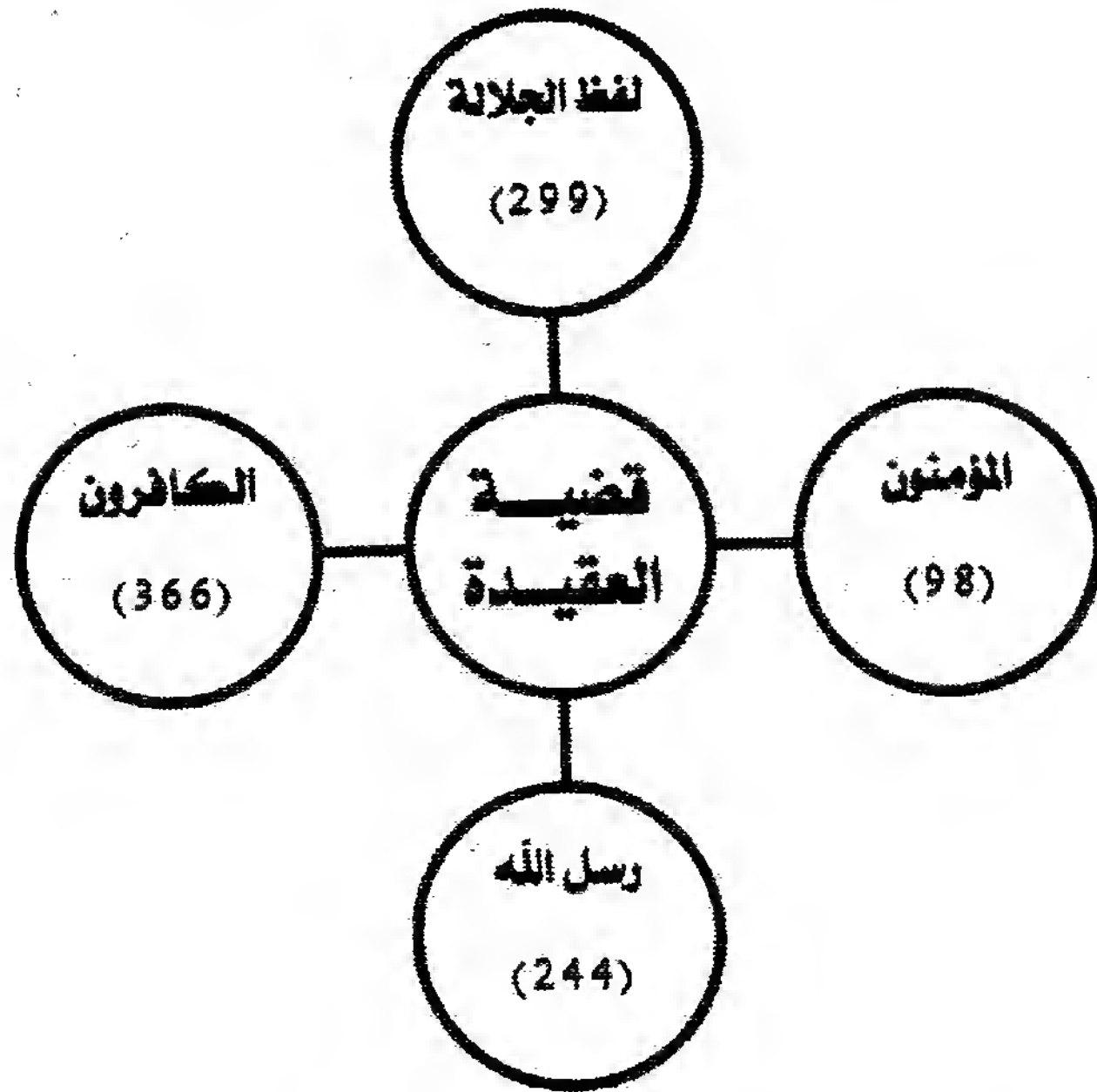
(أ-١-١) نماذج في سورة الأعراف:

سورة الأعراف تمثل نموذجاً كاملاً للقرآن المكي من خلال الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة - مثل غيرها من السور المكية - وهو موضوع العقيدة الأساسي، «موضوع الألوهية والعبودية». وتعالج هذا الموضوع من خلال أنها أول سورة عرضت بالتفصيل قصص الأنبياء من بداية خلق آدم إلى نهاية الخلق مروراً بنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى - عليهم جميعاً وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام -، وفي قصص كل الأنبياء الذين ورد ذكرهم في السورة تظهر لنا الصراع بين الخير والشر - الإيمان والكفر - وبيان كيد إبليس - لعنه الله - لآدم وذريته على مر العصور من خلال موقف كل قوم من نبيهم. وبالرجوع إلى الإحصائيات الموجودة بالجدول السابق نلاحظ أن الضمائر التي تحيل إلى أهم العناصر

(١) سعيد بحيري: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، (د.ت)، ص ١٤٥: ٧٥.

الإشارية المحورية في السورة هي كالآتي:

- الضمائر التي تحيل إلى لفظ الكافرين (٣٦٦) ضميراً.
- الضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة (٢٩٩) ضميراً.
- الضمائر التي تحيل إلى رسل الله - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام - (٢٢٤) ضميراً.
- الضمائر التي تحيل إلى لفظ المؤمنين (٩٨) ضميراً.



فالكل يتجه نحو هذه القضية إما بالتكليف (الله - سبحانه وتعالى -)، أو التبليغ (رسل الله - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام -)، أو التصديق (المؤمنون)، أو التكذيب (الكافرون). فالضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة يصل مجموعها إلى (٢٩٩) ضميراً، تعود كلها إلى الله - تبارك وتعالى - مع العلم بأن عدد آيات السورة (٢٠٦) آية. ومع ملاحظة توزيع الضمائر نجد أنها موزعة في السورة كلها، وكونها تعود إلى مرجوع واحد، إذن فهي مرتبطة به شكلاً ودلالةً، فكلها تعود إلى لفظ الجلالة - الله -

تبارك وتعالى - السابق ذكره في بداية السورة، ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْنَا مِنَ الذِّكْرِ وَلَا تَتَّبِعُوا دُورَ الَّذِينَ أُولَئِكَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٣)، ومن ثم فهي مرجعية سابقة

Anaphoric reference. ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا...﴾ (الأعراف: ٥٧).

﴿... وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٧).

﴿... وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٠).

﴿... هُوَ يُتِي...﴾ (الأعراف: ١٥٨).

﴿... لَا يَحِلُّهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ (الأعراف: ١٨٩).

﴿... وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦).

*** هذا بالنسبة للضمير المنفصل، أما بالنسبة للضمير المتصل فمنها قوله تعالى:

﴿... وَلَا تَتَّبِعُوا دُورَ الَّذِينَ أُولَئِكَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٣).

﴿... وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ...﴾ (الأعراف: ٣٢).

﴿... وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ (الأعراف: ٥٦).

﴿... مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ (الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥).

﴿... وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

﴿... لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٦).

*** أما بالنسبة للضمير المستتر فمنها قوله تعالى:

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ...﴾ (الأعراف: ١٢).

﴿قَالَ فَأَخِيطُ...﴾ (الأعراف: ١٣).

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥).

﴿قَالَ أَهَيِّطُوا بِمَنُكَّرٍ لِّبَعْضِ عَذَابٍ﴾ (الأعراف: ٢٤).

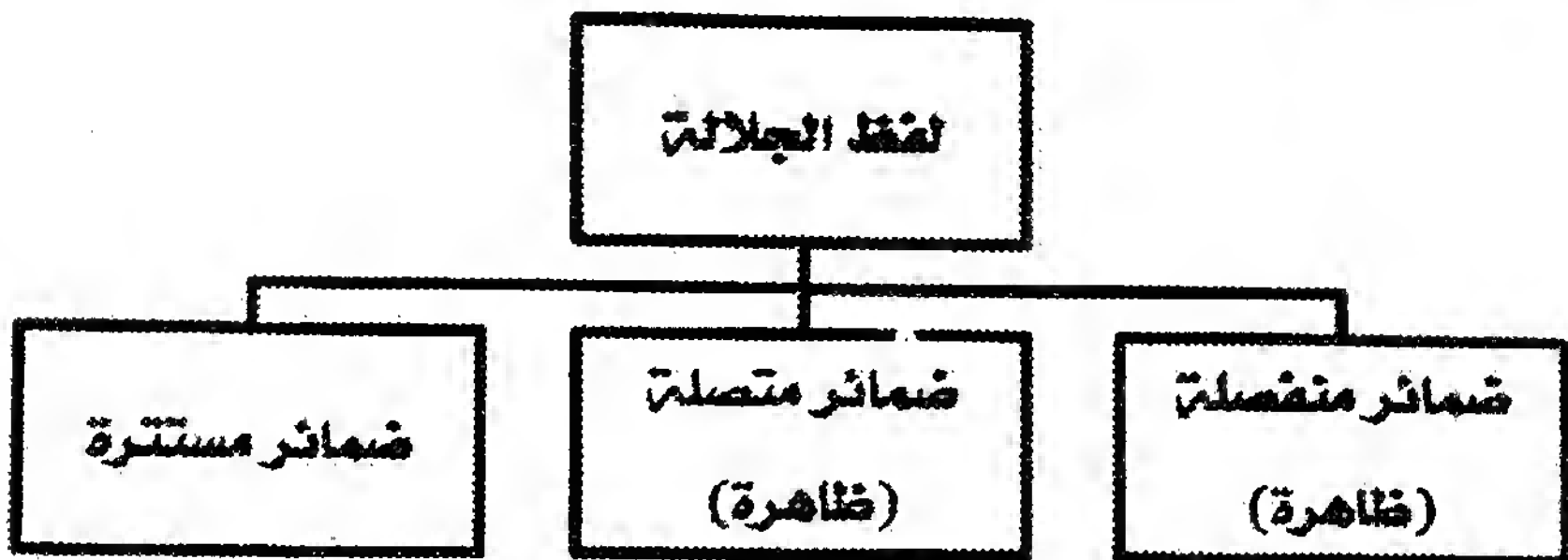
﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ (الأعراف: ٢٥).

﴿.. قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٨).

﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩).

﴿.. وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

وتمثل تلك المرجعية كالتالي:



وتلك الضمائر منها الغائب والمتكلم والمخاطب، ومنها المفرد والجمع، وكلها تعود إليه سبحانه وتعالى^(١). وتوزيعها على آيات السورة أغلبها، حتى الآية الأخيرة يحقق السبك النصي بين هذه الآيات، ونؤكد أن كل الضمائر التي ترجع إلى لفظ الجلالة - سبحانه وتعالى - في هذه السورة مرجعيتها داخلية، لأنه ذكر صراحة في النص، في بداية الآية. في حين نجد الضمائر التي تحيل إلى رسل الله (نوح - هود - صالح - لوط - شعيب - موسى) داخلية سابقة نجد أن الضمائر التي تحيل إلى سيدنا محمد ﷺ كلها خارجية، ذلك لأنه لم يذكر صراحة في النص، لكن هناك كثيراً من الدلائل التي توضح أنها تعود إليه، وهي تمثل السياق الموضح للمرجعية، فالمرجعية

(١) لمزيد من بيان مواضع أنواع الضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة. راجع جدول (٢) ضمائر سورة الأعراف بملحق الجدول.

الخارجية Exophoric ref. تكون للذي لم يجر له ذكر في النص. ونهاذج الأيات

التي توجد بها مرجعية خارجية للنبي ﷺ فمنها:

﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ وَتَتَذَكَّرُ ﴾ (الأعراف: ٢).

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ... ﴾ (الأعراف: ٢٨).

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ... ﴾ (الأعراف: ٢٩).

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ... ﴾ (الأعراف: ٣٢).

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ ﴾ (الأعراف: ٣٣).

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

﴿ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ... ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

﴿ وَأَقْلَعَتْهُمْ ﴾ (الأعراف: ١٧٥).

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

﴿ ... قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي ... ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

﴿ ... يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا وَلَهُمْ ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

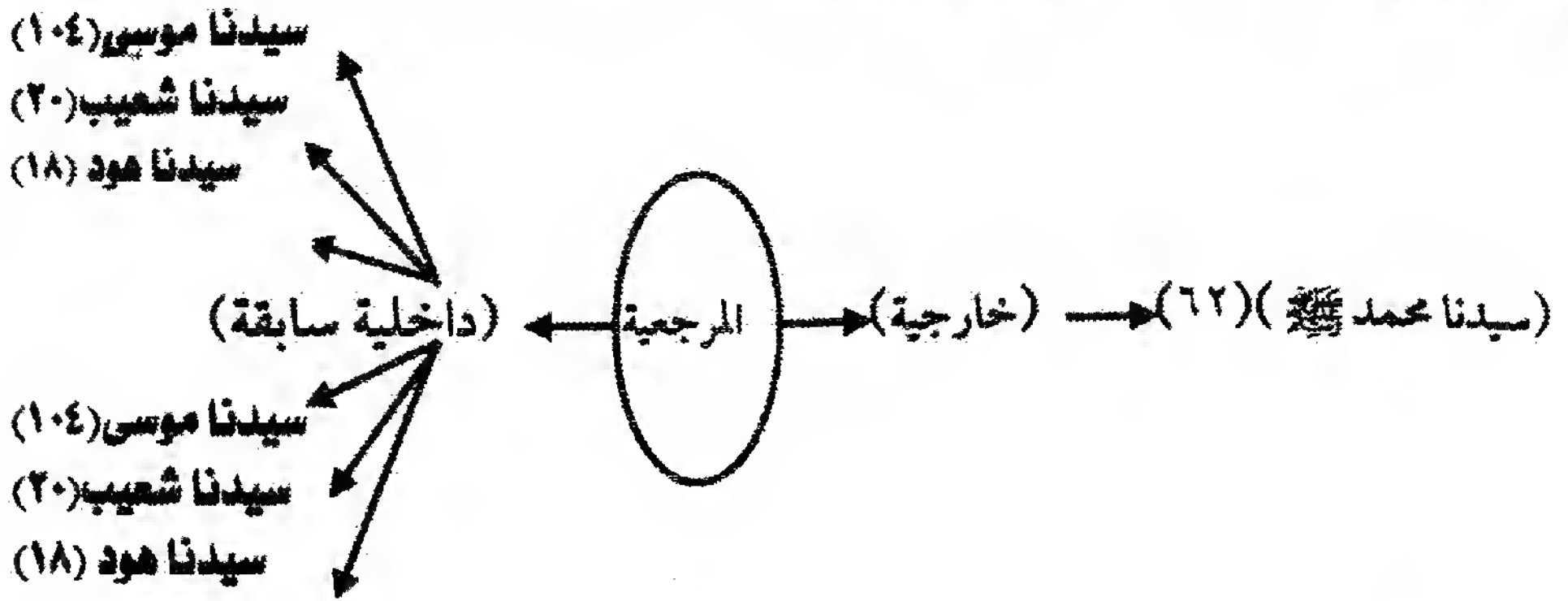
﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ... ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

﴿ ... قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ... ﴾ (الأعراف: ١٩٥).

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُنَى ... ﴾ (الأعراف: ١٩٨).

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

فالخطاب الموجه إليه - ﷺ - لا يخرج عن كونه تكليفاً بالتبليغ أو النذير أو البشير، أو رداً على حجج المشركين أو تسليية له بإخباره أن ما يحدث قد حدث للرسل من قبل، وهذه أمور كلها مرتبطة بقضية السورة الأساسية، قضية العقيدة التي يكذب بها المشركون ويؤمن بها المؤمنون. ويمكن تمثيل مرجعية الضمان التي نحيل إلى رسل الله جميعاً كالتالي:



أما الضمائر التي ترجع إلى المشركين في هذه السورة فإنها تتصل بالذين كذبوا الرسل من قبل، وأشركوا بالله، واستهزءوا برسول الله - ﷺ -، ولم يؤمنوا بآيات الله، والذين كانوا يمثلون أغلبية، وكذا مع أغلب الرسل.... إلخ، والتي أشارت إليها السورة في كثير من الآيات كما هو واضح من الإحصاء السابق ولنعرض بعضاً من الآيات التي تحمل ضمائر تعود إلى المشركين:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آتَيْنَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاٰفِرِينَ ۝﴾ (الأعراف: ٣٧).

....﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ۝﴾ (الأعراف: ٣٩).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآمَنُوا بِهَا لَا تَنْفَعُهُمْ أَتُوبُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يُلَٰجِجَ الْجَمَلُ فِي سَرِّ اللَّجَائِدِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ۝﴾ (الأعراف: ٤٠).

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝﴾ (الأعراف: ٤١).

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَيْقَةِٰ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝﴾ (الأعراف: ٤٧).

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِنَّا رَزَقْكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمُهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾ (الأعراف: ٥٠).

....﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝﴾ (الأعراف: ٥١).

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَآتِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ (الأعراف: ٦٦).

﴿ قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ إِنَّهُ بِالدِّينِ أَمِنٌ وَإِنَّ الْكَافِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٦).

﴿ فَآخَذَ لَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴾ (الأعراف: ٩١).

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٠٢).

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٤٧).

ومن الملاحظ أن ذكر الكافرين لم يصرح به إلا في الآية (... وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) (الأعراف: ٣٧). ومن ثم فإن المرجعية التي تمثل الضمائر المحالة إلى الكافرين مرجعية داخلية سابقة. ولكن يتجاوز عدد الضمائر التي تحيل إلى الكافرين العدد المذكور لو أضفنا تلك التي تحيل إلى العناصر الإشارية: (أهل القرية - آل فرعون - إبليس - أهل النار - الخ)، فإن العدد ضعف العدد السابق وذلك، لأن كل هذه العناصر الإشارية هي صور متعددة لأهل الكفر والشرك. ويمكن تمثيل تلك المرجعية كالتالي:

الذين كفروا (٨٩)

أهل القرى والقرية (٤٢)

الملا (٣٧)

الكافرين مشر قريش (٣٦)

ابليس (٣٥)

الذين كذبوا (٢٣)

الذين ضلوا (١٤)

أهل النار (١٣)

من أظلم (١٢)

الذين يتكبرون (٩)

الذين لا يؤمنون (٧)

(مرجعية داخلية سابقة)

أما الضمائر التي تحيل إلى المؤمنين والتي بلغت حوالي (٩٨) ضميراً، علماً بأنها لم تقتصر على المؤمنين برسول الله - ﷺ - وحدهم، بل تعداه إلى المؤمنين بالأنبياء الآخرين، ومنها:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف: ٤٢)

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً..﴾ (الأعراف: ٥٥)

﴿..وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا..﴾ (الأعراف: ٥٦)

﴿..كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكِرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٨)

﴿..فَأَنبِئِنَّهُمْ وَالَّذِينَ مَعَهُ..﴾ (الأعراف: ٧٢، ٦٤، ٨٣، ٨٧)

﴿قَالَ.. وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦)

﴿..فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضَاعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٦).

ونظراً لأن ذكر المؤمنين جاء صراحة في النص في بدايته،، آية رقم ﴿٢﴾ فإن

المرجعية للضمائر التي تحيل إلى المؤمنين هي داخلية سابقة بصفة عامة.

(٢-أ) الإحالة بأسماء الإشارة:

تحدثت فيما سبق عن الإحالة بالضمائر بوصفها رابطاً من الروابط المهمة

التي تعمل على مد «جسور الاتصال بين الأجزاء المتباعدة في فضاء النص»^(١).

(١) دراسات لغوية تطبيقية: ص ٨٢.

والإحالة بهذا الوصف «هي نوع من ظاهرة الربط في اللغة... وتنتج النجاة من أحدهما إلى ما سبق ذكره، والثاني إلى ما يلي... فأما ما سبق ذكره فإن الإحالة إليه تتم بضمير الإشارة «ذا» مع اختلاف ما يصاحبه من حروف الخطاب والتنبيه، وأما ما يلي : فإن الإحالة إليه تتم بالإشارة وبغير الإشارة^(١). إن القارئ للقرآن الكريم ليجد الأمثلة الكثيرة التي تدل على الربط بالإشارة، وهذه الأمثلة من الكثرة بحيث نستطيع أن نقول: إنه يشيع استخدام أسماء الإشارة في الأسلوب القرآني استخدام الروابط التي تؤدي وظيفة كبرى جوهرية هي تلاحم أجزاء النص وتماسكه^(٢). ولنر فيما يلي كيف يمكن أن تؤدي الإحالة بأسماء الإشارة هذه الوظيفة الجوهرية الكبرى المتمثلة في العمل على تلاحم أجزاء النص وتماسكه.

(١) تمام حسان: البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط ٢، القاهرة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص ٥٣٦.

(٢) دراسات لغوية تطبيقية، ص ١٤٠.

(أ-٢-١) سورة النساء:

من خلال جدول إحصاء اسم الإشارة الآتي لسورة النساء: يتبين لنا الآتي:

● عدد أسماء الإشارة الإجمالي في سورة النساء = (٣٥) اسماً.

● عدد أسماء الإشارة للبعيد = (٣٣) اسماً.

● عدد أسماء الإشارة للقريب = (٢) اسماً.

م	اسم الإشارة	أرقام الآيات	نوعه	عدد التكرار
١	ذلك	٣-١٢-١٣-٢٤-٣٠-٥٩-٧٠ ١٦٩-١٥٣-١٥٠-١٣٣-	للبعيد	١٣
٢	أولئك	١٨-٥٢-٦٣-٦٩-٩١-٩٧-٩٩- ١٢١-١٢٤-١٤٦-١٥١-١٥٢-١٦٢	للبعيد	١٤
٣	هذا - هذه	٧٥-٧٨	للقريب	٢
٤	تلك	١٣	للبعيد	١
٥	هؤلاء	٤١-٧٨-١٠٩-١٢٣	للبعيد	٥
	الإجمالي	٢١ آية		٣٥

(أ-٢-١-١) نماذج في سورة النساء:

● ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَىٰ مِثْلُ مَا لِلذَّكَاءِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلَاثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الشُّدُّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَىٰ بِنَا أَوْ دِينَ مَّا تَرَكَمُ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٥ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ

بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِيكُ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِكُمْ تَوْصِيَتُكُمْ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ ﴿١٣﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ (النساء: ١١ - ١٣). فقوله تعالى -

(تلك) رابط إحالي يحيل على عنصر إشاري سابق اختلف فيه. فقيل: إنه أحوال المواريث، وقيل: إنه كل ما ذكره الله من أول سورة النساء إلى هاهنا، من بيان أموال اليتامى، وأحكام الأنكحة، والمواريث، وحجة القول الأول: أن الضمير يعود إلى الأقرب، وحجة الثاني أن عوده إلى الأقرب إذا لم يمنع من عوده إلى الأبعد مانع، يوجب عوده إلى الكل^(١). ذكر القولين الرازي^(٢)، وأبو حيان^(٣)، والألوسي^(٤)، وذكر الأول الطبري^(٥)، وابن عطية^(٦)، وذكر الثاني الزمخشري^(٧). والراجح - في ظني - القول الثاني، حيث إن حدود الله هي الشرائع التي لا يجوز للمكلف أن يتخطاها بغير حق، وهذا القول فيه عموم، والله أعلم.

(١) الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار الفكر، ط ١، بيروت، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ٢٣٥ / ٩.

(٢) السابق نفسه ٢٣٥ / ٩.

(٣) أبو حيان (محمد بن يوسف)، البحر المحيط، ت: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٣ م، ٢٠٠ / ٣.

(٤) روح المعاني ٢٣٣ / ٤.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، ٦٩ / ٨.

(٦) ابن عطية، المحرر الوجيز، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ٢٠ / ٢.

(٧) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، ط ١، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ٤٧١ / ١.

• ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُم مِّنَ الْكَافِرِينَ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَوِدْ عَلَيْهِمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَهُ يَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَن يُجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝١٤١ إِنَّا الْمُسْلِمِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاٰى يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مَذْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن يَهْدِيَهُ سَبِيلًا ۝١٤٣﴾ (النساء: ١٤١-١٤٣).

ف (ذلك) إشارة إلى الكفر والإيمان المفهومين من ذكر الكافرين والمؤمنين في الآيتين: (١٣٩-١٤١) من سورة النساء^(١). وعن الرابطين الآخرين: (هؤلاء) و (هؤلاء) فالمراد بأحد المشار إليهم: المؤمنون، وبالأخر: الكافرون^(٢).

• ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْكَرَةً عَنِ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝١٤٤ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١٤٥﴾ (النساء: ٢٩، ٣٠).

ف (ذلك) رابط إحالي، يحيل على عنصر إشاري سابق وهو عقاب الله لمن يأكل أموال الناس بالباطل وظلماً بأن يدخله الله النار جزاءً بما أكل.

من خلال النماذج السابقة يتبين أن الأدلة فيها إحالة على السابق، وأن الضمائر - أسماء - الإشارة كعناصر إحالية عقدت وشائج متينة بين أجزاء النص، متجاوزة حدود المفردات داخل الجملة الواحدة، إلى مفردات وجمل كثيرة، ولم يكن من الممكن حدوث سبك النص وتلاحم أجزائه دون وجود هذه الروابط.

(١) الكشف ١/ ٥٨٠، البحر المحيط ٣/ ٣٩٤، مفاتيح الغيب ١١-٨٦.

(٢) البحر المحيط ٣/ ٣٩٤، روح المعاني ٥/ ١٧٧.

(أ-٢-٢) - سورة الأعراف:

ومن خلال جدول إحصاء إسم الإشارة الآتي لسورة الأعراف:

م	اسم الإشارة	أرقام الآيات	نوعه	عدد التكرار
١	ذلك	١٤١-٨٥-٥٨-٥٧-٤١-٤٠-٣٢-٢٦ ١٧٦-١٧٤-١٦٨-١٦٣-١٥٢-١٤٦-	للبعيد	١٤
٢	أولئك	٣٨-٣٧-٣٦-٩-٨ ١٧٩-١٧٨-١٥٧-٤٢-	للبعيد	١٢
٣	هذا - هذه	١٣١-١٢٣-٧٣-٥١-٤٣-٢٠-١٩ ٢٠٣-١٧٢-١٦٩-١٦١-١٥٦-	للقريب	١٢
٤	تلك	١٠١-٤٣-٢٢	للبعيد	٣
٥	هؤلاء	١٣٩-٤٩	للبعيد	٢
٦	هنالك	١١٩	للبعيد	١
	الإجمالي	٤١ آية		٤٤

يتبين لنا الآتي:

● عدد أسماء الإشارة الإجمالي في سورة الأعراف = (٤٤) اسماً.

● عدد أسماء الإشارة للبعيد = (٣٢) اسماً.

● عدد أسماء الإشارة للقريب = (١٢) اسماً.

ويلاحظ على هذه النسب أنها طبيعية أن يكون الأغلبية للبعيد، لأن جُلَّ

المشهد في سورة الأعراف محكيٌّ.

(أ-٢-٢-١) - نماذج في سورة الأعراف:

● ﴿ قَالَ يَرَاهُونَ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ

لِنُخْرِجَآ مِنْهَا أَهْلَهَا قَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٣). فـ(هذا) إحالة إلى جزء كبير من

مشهد من مشاهد قصة موسى - عليه السلام -، ويتمثل هذا الجزء في صنيع السحرة

مع موسى عليه السلام ويحكيه قوله - تعالى: ﴿ قَالُوا يَنْصُرُنَا اللَّهُ إِنَّمَا أَن تُلْقَى وَإِنَّمَا أَن تَكُونَ مَعَ الْمُتْلِينَ ﴾ ١١٥ قَالَ الْقَوْمُ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ١١٦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ١١٧ فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١١٨ فغلبوا هنالك وأنقلبوا صغِيرِينَ ١١٩ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُنَّ ﴾ (الأعراف: ١١٥ - ١٢٠).

• ﴿ وَجَنُودًا يُبَوِّغُ لِمِرَّةٍ يَلِ الْبَحْرِ فَأَوتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَنْصُرُنَا اللَّهُ إِنَّمَا كُنَّا لَهَا فِتْنَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ١٢٠ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩). (هؤلاء) إحالة إلى السابق المتمثل في القوم الذين يعكفون على أصنام لهم

• ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُفْلًا آيَةً لَا يَأْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَُوا سَبِيلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَُوا سَبِيلَ الْغِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٦). (ذلك) إحالة إلى السابق، ويتمثل هنا في أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق والذين يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا.

• ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧) ف (أولئك) إحالة إلى السابق المتمثل في أولئك الذين ءامنوا بموسى - عليه السلام - ثم ءامنوا بسيدنا محمد - ﷺ -، وقد منَّ عليهم بنعمة الإيمان والتقوى فنصروا الرسول - ﷺ - واتبعوه وعزروه وءامنوا به.

(أ-٣) - الإحالة بالاسم الموصول:

الاسم الموصول له دور كبير في سبك جمل النص، فاختيار ضمير موصول ليحل محل موقع ضمير شخصي، سببه مطابقة القصد واختلاف اللفظ، وكلا الضميرين في النهاية عوّض عن إعادة الذكر^(١). ويقول - أيضاً - تمام حسان «أما ضمير الموصول فقد يصف اسماً ظاهراً متقدماً المرتبة واللفظ فيكون الظاهر مرجعاً له، وقد لا يصف ظاهراً، فتكون الصلة أيضاً للمقصود بالموصول فهي تحدّده، كما تحدد الصفة الموصوف، أي كما يتحدّد المنعوت بالنعته»^(٢). وفيما يلي - الجدول الذي يوضح الأسماء الموصولة في كلتا السورتين - (النساء والأعراف) كالآتي:

م	الاسم الموصول	سورة النساء وآياتها ١٣٦ آية	سورة الأعراف وآياتها ٢٠٦ آية
١	للعاقل	٨٨	٧٧
٢	لغير العاقل	٤٩	٣٥
٣	حرفي	٣٩	٥٠
٤	حرفي / اسمي	٦	٤
	الإجمالي	١٨٢	١٦٦

(أ-٣-١) سورة النساء:

• ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤). فاسم الموصول «الذين» في الآية يحيل على العنصر الإشاري (المؤمنين) المتخلفين عن أحد^(٣)، وقيل: «هم» (المنافقون) الذين وعظروا بأن يغيروا ما بهم من النفاق ويخلصوا

(١) البيان في روائع القرآن، ١ / ١٤١.

(٢) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط ٥، القاهرة، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ص ١١.

(٣) البحر المحيط، ٤ / ١٩٥.

الإيمان بالله ورسوله ويجاهدوا في سبيل الله حق الجهاد^(١). والراجع - عندي - أنهم المؤمنون المتخلفون؛ لأن الآية اللاحقة لها يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥)، فيها استفهام للحث والتحريض على الجهاد في سبيل الله، وتخليص المستضعفين (٢)، وهذا الحث والتحريض لا يكون إلا لمن اطلع الله على قلوبهم فوجد منهم الإخلاص والإيمان، ومن ثم فهي محالة إلى لاحق.

● ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥). فاسم الموصول (الذين) الأول يحيل على المستضعفين من الرجال والنساء والولدان وهي إحالة إلى سابق.

● ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦) فاسم الموصول (الذين) الأول يحيل على المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله، (الذين) الثاني يحيل على الكافرين الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت، فهي إحالة إلى لاحق.

● ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦) فاسم الموصول (الذين) الأول يحيل على المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله، (الذين) الثاني يحيل على الكافرين الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت، فهي إحالة إلى لاحق.

● ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦) فاسم الموصول (الذين) الأول يحيل على المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله، (الذين) الثاني يحيل على الكافرين الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت، فهي إحالة إلى لاحق.

(١) روح المعاني، ٥ / ٨١

(٢) البحر المحيط، ٤ / ١٩٥

القتال»^(١). والراجع - عندي - أنهم المؤمنون؛ لأن الناس في قوله - سبحانه - (يخشون الناس) هم أهل مكة، كما قال الجمهور^(٢).

(١-٢-٢) سورة الأعراف:

● يقول - سبحانه وتعالى - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مَلَكْنَا قَالَ لَوْلَا كِتَابُكُمْ﴾ (الأعراف: ٨٨). فاسم الموصول (الذين) يحيل على العنصر الإشاري الملا من قوم سيدنا شعيب وكفروا بها جاء به، وهي إحالة إلى سابق.

● وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلْمَلَأِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْ لَا تُخْشَرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٠). فـ (الذين) يحيل على الملا الذين كفروا من قوم سيدنا شعيب.

● وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانَ لَمْ يَقْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٢). فـ (الذين) الأول والثاني يحيل على الملا الذين كذبوا سيدنا شعيب. «وقد يتم الربط بالصفة التي دخلت عليها «أل» الموصولة لتؤدي الغاية التي من أجلها استعمل ضمير الموصول السابق»^(٣).

● ويقول - عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْنِ يَذْكُرَانَا إِلَىٰ يَرْجِعُونَ وَمَلَأْنَا قُلُوبَهُمَا فَاغْلُظْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٣). فالتقدير: عاقبتهم. يتبين لنا مما سبق أن وظيفة ضمير الصلة ليست للإحالة فقط، ولكنه يربط كذلك بما سبق وبها جاء بعده؛ ليحدث الربط إطلاقاً.

(١) الكشف، ١ / ٥٦٨

(٢) روح المعاني، ٥ / ٨٥

(٣) البيان في روائع القرآن، ١ / ١٤٣.

(ب) الحذف، «Ellipsis»

الحذف ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية «حيث يميل الناطقون إلى حذف بعض العناصر المكررة في الكلام، إذا كان الباقي مغنياً في الدلالة، كافياً في أداء المعنى، ولا يتم ذلك إلا بوجود قرائن لغوية أو مقامية تومئ إليه، وتدل عليه، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره»^(١). وقد أولى علماءنا العرب الحذف عناية خاصة^(٢)، إذ هو من مقاصدهم في كلامهم، طلباً للإيجاز والاختصار، وإن كانت عنايتهم بالتطبيق أقوى من عنايتهم بالتنظير. والكشف عن المحذوف يكون بامعان النظر في البنية العميقة التي شكلت البنية السطحية للنص، والتي تخضع بدورها للسياق، ولا يشترط أن يكون العنصر المحذوف مشابهاً تماماً للمذكور، فقد يُوسَّع أو يُعدَّل، وقد يفهم المحذوف من سياق الموقف الخارجي كما سيأتي في فصل السياق - إن شاء الله -.

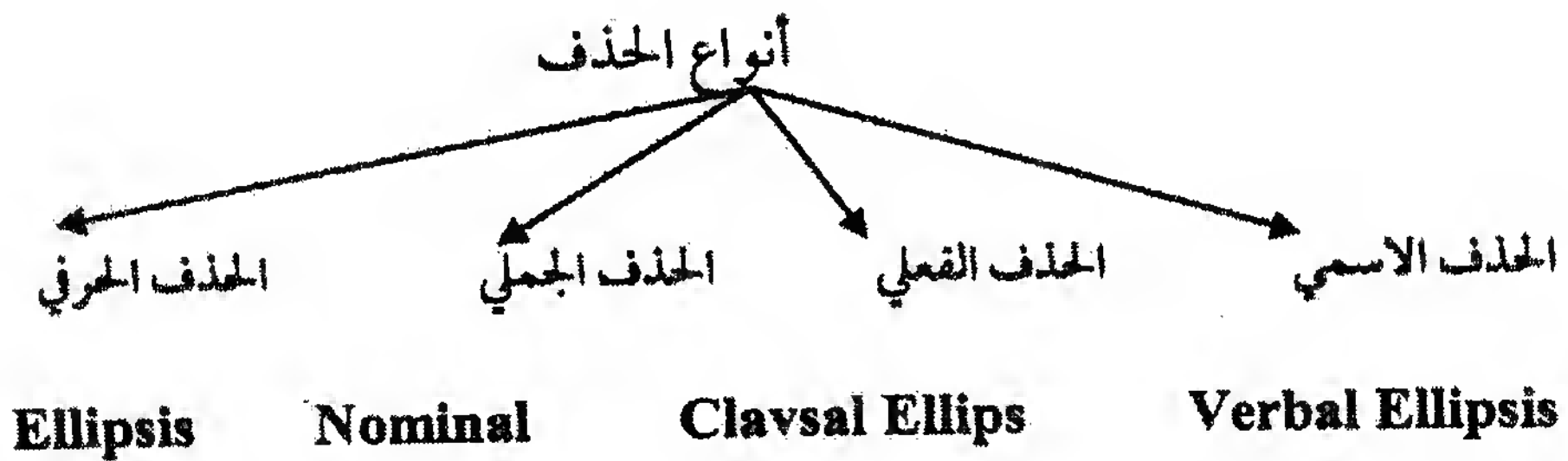
(١) ينظر:

- طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية، ط ١، الإسكندرية، (د.ت)، ص ٤
- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار المعرفة الجامعية، ط ١، الإسكندرية، ٢٠٠٨ م، ص ١٤٩.

(٢) ينظر:

- سيويه، الكتاب، ت: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٩ م، ١/ ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٥٨.
- ابن جني، الخصائص، ت: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٤، القاهرة، ١٩٩٩ م، ٢/ ٣٦٢.
- ابن هشام الأنصاري، مغنى اللبيب، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (د.ت)، ٢/ ١٥٨: ١٥٦.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط ٣، القاهرة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، ص ١٤٦.
- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط ١، بيروت، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م، ٣/ ١١١.

والعلاقة بين الحذف والإحالة أن الحذف يمثل علاقة مرجعية لما سبق
 Anaphora، نظراً لوجود دليل أو مرجع يسهم في تقدير المحذوف، وقد تكون
 المرجعية خارجية Exophora، وذلك في سياقات معينة، حيث يقدم لنا سياق
 الموقف المعلومات التي نحتاج إليها في تفسير الحذف، ولكن الحذف الخارجي يخرج
 عن تماسك النص الداخلي، إلى تماسك النص مع السياق. وتسهم معرفة كل من
 القارئ والكاتب بالأعراف اللغوية في نجاح ظاهرة الحذف، الذي يقوم بدوره في
 سبك جمل النص «فإدراك الكاتب لفهم القارئ يجعله يلجأ للحذف، وهذا الحذف له
 دور مهم في الاقتصاد اللغوي الذي يميز النصوص البليغة، كما ينفي عن المتلقي الملل
 والرتابة نتيجة تكرار عنصر لا فائدة منه، ويفجر في ذهن المتلقي شحنة توقظ ذهنه
 لإدراك المحذوف المراد»^(١).



والجدول الآتي يبين إحصاء لأنواع الحذف^(٢) في سورتي النساء والأعراف على النحو التالي:

(١) ينظر

- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ٢ / ٢٤٥.
- البرهان في علوم القرآن ٣ / ١٠٥: ١٠٤.

(٢) انظر:

- محي الدين درويش: إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، ط ٤، دمشق، بيروت، ١٤١٥ هـ سورة النساء والأعراف.
- الجدول في إعراب القرآن، سورة النساء والأعراف.

م	نوع العذف	آيات سورة النساء		آيات سورة الأعراف	
		عدد الآيات	عدد الحذف	عدد الآيات	عدد العذف
١	الحرفي	١٠	١٠	١	١
٢	الاسمي	٦٣	٨٣	١٢	١٥
٣	الفعل	١١	١٣	٨	٨
٤	الجمالي	٣٦	٤٠	٤٠	٤٤
٥	الإجمالي	١٢٠	١٤٦	٦١	٦٨

مع مراعاة أنه قد تم استبعاد الضمائر في الحذف الاسمي، لأنه قد تم من قبل

في الإحالة بالضمائر.

(ب-١) سورة النساء:

(ب-١-١) الحذف الحرفي:

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُوا مِنْ لَدُنْهُنَّ أَمْوَالَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩). المصدر المؤول (أن يأتين....) «في محل جر بحرف جر محذوف، والتقدير إلا في إتيان الفاحشة»^(١)، فالمرجعية داخلية لاحقة.

• ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ مِنْهُنَّ أَنَّ يَقْبَلُوكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠). والمصدر المؤول (أن يقاتلوكم....) «في محل جر بحرف جر محذوف، وتقديره: عن أن يقاتلوكم»^(٢)، أي: عن مقاتلكم، والمرجعية داخلية لاحقة.

• ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٢٧). والمصدر المؤول (وترغبون أن تنكحوهن) «منصوب بنزع الخافض، وهو «في»، أي: في أن تنكحوهن لجهالهن وماهن، أو «عن»، أي: ترغبون عن نكاحهن لدمايتهن وفقرهن، وهو من الكلام الموجه، وهو الذي يحتمل معنيين متضادين»^(٣)، والمرجعية داخلية لاحقة^(٤).

(١) الجدول في إعراب القرآن ٤ / ٤٧٠.

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٢ / ٢٩٠.

(٣) نفسه، ٢ / ٣٣٣.

(٤) للمزيد انظر الآيات: ٣-١٩-١٠٢-١٠٤-١٢٧-١٢٨-٩٧-٩٠-١٠١-١٧١.

(ب-١-٢) الحذف الاسمي:

• ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١). «الخطاب للمؤمنين، وفي أولادكم: هو على حذف مضاف، أي: أولاد موتاكم، وتقدير الجمهور: يوصيكم الله في شأن أولادكم الوارثين»^(١). والمرجعية داخلية لاحقة، لأن الموارث وأحكامها هي التي بينت هذا الشأن.

• ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١٢). على تقدير «صفة لمبتدأ محذوف تقديره: للذكر حظٌ مثل حظ الأنثيين»^(٢). والمرجعية داخلية لاحقة، لأن كلمة «حظ» الثانية تدل على حذف كلمة «حظ» الأولى.

• ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء: ٤٧). على حذف مضاف أي: «من قبل أن نطمس عيون وجوه»^(٣)، أو على تقدير حذف مضاف إليه أي: «من قبل أن نطمس وجوه قوم»^(٤). والمرجعية داخلية سابقة، لأن قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ تدل على المحذوف.

(١) البحر المحيط ٤ / ٤٤، روح المعاني ٤ / ٢١٦.

(٢) نفسه ٤ / ٤٥.

(٣) البحر المحيط ٤ / ٤٥، روح المعاني ٤ / ١٥٦.

(٤) الكشف ١ / ٥٥١.

- ﴿فَيُظْلِمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَكُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٦٠). المعنى: فبظلم عظيم، أو فيظلم أي ظلم، «وحذف الصفة لفهم المعنى جائز»^(١)، فبأي ظلم منهم والمعنى: «ما حرّمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبه»^(٢). والمرجعية داخلية سابقة، ويدل عليها كل ما صدر من بني إسرائيل كما وضحتها الآيات السابقة من الآية (١٥٥: ١٥٩)، وجائز أن تكون المرجعية لاحقة على حسب ما تدل عليه الآيات التالية من الآية (١٥٩: ١٦١)^(٣).

(ب-١-٣) - الحذف الضعفي

- ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٣٣) والتقدير: «وجعل لكل إنسان وارثاً مما ترك، فيتعلق (مما) بـ (ما) في معنى موالي من معنى الفعل، أو بمضمر يفسره المعنى، والتقدير: يرثون مما ترك، أو أن يكون التقدير: وجعلنا لكل إنسان موالي، أي وارثاً، ثم أضمر فعل، أي: يرث الموالي مما ترك الوالدان»^(٤). والمرجعية داخلية لاحقة.
- ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ١٥١). أي: «حق ذلك حقاً، فـ «حقاً» مفعول مطلق لفعل مضمر»^(٥)، ومرجعته داخلية لاحقة.

(١) البحر المحيط ٤ / ٣٢٢

(٢) الكشف ١ / ٦٢٣

(٣) للمزيد انظر الآيات: ٤-٥-٦-٧-٩-١٠-١١-١٢-١٤-١٥-١٧-١٨-١٩-٢٢-٢٣-

٢٤-٢٥-٢٦-٢٩-٣٣-٣٥-٣٦-٣٧-٤٣-٤٦-٤٧-٥٦-٥٧-٥٩-٦٢-٦٩-٧٠-٧٧-

٧٨-٧٩-٨٠-٨١-٨٣-٨٩-٩١-٩٢-٩٤-١٠١-١٠٢-١٠٨-١٢٣-١٢٤-١٢٦-

١٢٨-١٣١-١٤٤-١٤٨-١٥٠-١٥٣-١٥٥-١٥٨-١٥٩-١٦٠-١٦٥-١٧٠-١٧١.

(٤) البحر المحيط ٤ / ١١٦.

(٥) الكشف ١ / ٦١٧، البحر المحيط ٤ / ٣١١.

- ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْوِيلًا﴾ (النساء: ١٦٤). انتصاب ورسلًا على إضمار فعل أي: «قد قصصنا رسلاً عليك، فهو من باب الاشتغال»^(١). أو «نصب مضمرة في معنى أوحينا إليك وهو أرسلنا ونبأنا وما أشبه ذلك، أو بما فسرته قصصناهم»^(٢)، والمرجعية داخلية، ولكنها قد تكون لاحقة على الرأي الأول، وقد تكون سابقة على الرأي الثاني.

- ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٧٠). في قوله: «(خيراً لكم) على مذهب الخليل وسيبويه أن التقدير: وأتوا خيراً لكم، وهو فعل يجب إضماره»^(٣). وقال الزمخشري: «أي اقصدوا أو اتوا أمراً خيراً لكم»^(٤)، فالمرجعية داخلية سابقة^(٥).

(ب-١-٤) الحذف الجملي:

- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩). شرط وجوابه محذوف، «أي فردوه إلى الله والرسول»^(٦)، والمرجعية داخلية سابقة.

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥). وفي الكلام حذف

(١) البحر المحيط ٤ / ٣٢٨.

(٢) الكشف ١ / ٦٢٤.

(٣) البحر المحيط ٤ / ٣٢٩.

(٤) الكشف ١ / ٦٢٦.

(٥) للمزيد انظر الآيات: ١٢-٢٥-٣٣-٣٦-٣٩-٤٦-٦٤-١٢٢-١٥١-١٦٢-١٧١.

(٦) الكشف ١ / ٥٥٦، البحر المحيط ٤ / ١٧٥.

والتقدير: «فتقضي بينهم»^(١)، والدليل على هذا المحذوف - قوله تعالى -: (مما قضيت)، فالمرجعية لاحقة. أو التقدير: «فتحكم بينهم»^(٢)، فالمرجعية سابقة. وفي الكلام حذف والتقدير: «فتقضي بينهم»^(٣)، والدليل على هذا المحذوف قوله تعالى: (مما قضيت)، فالمرجعية لاحقة. أو التقدير: «فتحكم بينهم»^(٤)، فالمرجعية سابقة.

● ﴿وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٦٧). قال الزمخشري: «وإذا جواب السؤال مقدر كأنه قيل: وماذا يكون لهم أيضاً بعد الثبوت؟ فقيل: وإذا لم يثبتوا لأتيناهم، لأن إذا جواب وجزاء انتهى»^(٥). وظاهر قول الزمخشري: إذا جواب وجزاء أنها تكون للمعنيين في حال واحد على كل حال، وهذه مسألة خلاف، فالمرجعية داخلية سابقة.

● ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفَ عَن عِبَادَتِهِ، وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمُ إِلَٰهُ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٧٢). وفي الكلام حذف، والتقدير: «ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله»^(٦)، أو: «ولا الملائكة المقربون يستنكفون من العبودية لله»^(٧)، والمرجعية داخلية سابقة^(٨).

(١) البحر المحيط ٤ / ١٨١.

(٢) روح المعاني ٥ / ٧١.

(٣) البحر المحيط ٤ / ١٨١.

(٤) روح المعاني ٥ / ٧١.

(٥) البحر المحيط ٤ / ١٨٤.

(٦) نفسه، ٤ / ٣٣٢.

(٧) الكشف ١ / ٦٣٠.

(٨) للمزيد انظر الآيات: ٩-١١-١٢-١٩-٥٩-٦٧-٧٢-٧٣-٧٦-٧٨-٨٠-٨١-٨٤-٨٦-

٨٩-٩٣-٩٤-١٠١-١٠٢-١٠٩-١١٨-١١٩-١٢٣-١٢٧-١٢٩-١٣١-١٣٥-١٤٧-

١٤٩-١٥٣-١٥٥-١٥٩-١٦١-١٧٠-١٧١-١٧٢.

(ب-٢) سورة الأعراف:

(ب-٢-١) الحذف الحرفي:

- ﴿ وَمَا نُنْقِمْ مِنْهَا إِلَّا أَنْ مَأْمَنَّا بِثَابِتٍ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَائُرُنَا أَفْغَى عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٦). حذف أداة النداء (ربنا)، وذلك لاستشعار السحرة بمعية الله وقربه - سبحانه - منهم^(١)، فالمرجعية داخلية سابقة.

(ب-٢-٢) الحذف الاسمي:

- ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ لَأَخْلُوهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُمْ لَأُولَسَّهِنَّ رَبُّنَا هُنَالَا أُخْسِلُونَا فَفَاتَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٨). (في أمم) على تقدير محذوف وهو صفة لأمم أي: في أمم سابقة في الزمان^(٢)، أو حذف مضاف أي: في جملة أمم^(٣)، وقال أبو حيان: «يعني كفار الأمم»^(٤)، والمرجعية داخلية سابقة.
- ﴿ أُولَئِكَ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (الأعراف: ١٠٠). مفعول «نشاء» محذوف، دل عليه جواب «لو»، والجواب: أصبناهم بذنوبهم، أي: إصابتنا لهم بذنوبهم^(٥)، والمرجعية داخلية سابقة.
- ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَمْتَمُّ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي السِّدِّينِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٣). ومفعول (تعلمون) محذوف، أي: ما يحل بكم^(٦)، أو: عاقبة ما فعلتم^(٧)، والمرجعية داخلية سابقة.

(١) الجدول في إعراب القرآن ٩ / ٤٢.

(٢) البحر المحيط ٥ / ٣٤٢.

(٣) الكشف ٢ / ٩٨.

(٤) روح المعاني ٨ / ١١٦.

(٥) البحر المحيط ٥ / ٤٠٥.

(٦) نفسه، ٥ / ٤٢٢.

(٧) روح المعاني ٩ / ٢٧.

- ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَفْنَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ وَآرِبَ أَصْرِبَ يَعْصَاكَ الْحَجَرُ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَفْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٠). تمييز اثنتى عشرة محذوف، لفهم المعنى، وتقديره: اثنتى عشرة فرقة، والمراد: «وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطاً موضع قبيلة»^(١)، فالمرجعية داخلية سابقة^(٢).

(ب-٢-٣) الحذف الضعلي:

- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩). (وأقيموا) معطوف على أمر محذوف تقديره: «فأقبلوا وأقيموا»^(٣)، فالمرجعية داخلية سابقة.
- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٠). جواز أبوالبقاء أن يكون (فريقاً) الثانية مفعول أضل مضمّر^(٤)، وقال الزمخشري: «انتصاب قوله تعالى: (وفريقاً) بفعل يفسره ما بعده، كأنه قيل: وخذل فريقاً حق عليهم الضلالة انتهى»^(٥)، والمرجعية داخلية سابقة.
- ﴿فَأَنبَجِسْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنُنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٧٢). فحذف الفعل «الدلالة السياق عليه، يعني والذين آمنوا معه»^(٦)، فالمرجعية داخلية سابقة.

(١) الكشاف ٢ / ١٥٩، البحر المحيط ٥ / ٤٧١.

(٢) للمزيد انظر الآيات: ٢-٣٧-٧٠-٩٢-١١١-١٤١-١٤٢-١٤٤-١٦٠-١٧٧-١٨٠-١٨٥.

(٣) البحر المحيط ٥ / ٣٣٢.

(٤) البحر المحيط ٥ / ٣٣٣.

(٥) الكشاف ٢٠ / ٩٥.

(٦) نفسه ٢ / ١١٨.

• ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

(الأعراف: ٨٠). قال الزمخشري: «وأرسلنا لوطاً»^(١)، أي بإضمار فعل، وقال أبو حيان: وانتصب لوطاً بإضمار العامل، بمعنى واذكر لوطاً»^(٢)، والمرجعية داخلية سابقة على الاحتمال الأول، ولاحقة على الاحتمال الثاني»^(٣).

(ب-٢-٤) الحذف الجملي:

• ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِمْ شُعْبًا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأعراف: ٩٠).

جواب الشرط محذوف؛ لدلالة جواب القسم عليه، ولذلك وجب مضي فعل الشرط، وقال الزمخشري: «إنَّ جواب القسم ساذ مسدَّ الجوابين»^(٤)، فالمرجعية داخلية سابقة.

• ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الأعراف: ١١٤). والتقدير: «أي نعم إن

لكم لأجرأ، و(وإنكم) عطف هذه الجملة على الجملة المحذوفة، كأنه قال إيجاباً لقولهم: إِنَّ لَنَا أَجْرًا: نعم إن لكم لأجرأ، وإنكم لمن المقربين»^(٥)، والمرجعية داخلية سابقة.

• ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الأعراف: ١١٧).

وفي الكلام حذف قبل الجملة الفجائية «أي فألقاها فلقفتها، أو فألقاها فصارت حية فإذا هي..... إلخ، وإنما حذف للإيذان بمسارعة موسى -عليه السلام- إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب...»^(٦)، والمرجعية داخلية سابقة.

(١) البحر المحيط ٥ / ٣٧٩.

(٢) نفسه، ٥ / ٣٨٧.

(٣) للمزيد انظر الآيات: ٣٠-٨٠-٩٦-١٦١-١٦٢-١٦٣-١٦٧-١٧٢.

(٤) الكشف ٢ / ١٣١، البحر المحيط ٥ / ٤١٥.

(٥) البحر المحيط ٤ / ٤٠٠، والكشاف ٢ / ١٢٤.

(٦) روح المعاني ٩ / ٢٥.

• ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِمْ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ مَاتَيْنَا مِنْ بَعْدِ هَذَا فَتَكُنْ مِنَّا فَتُحْيِنَا﴾ (الأعراف: ١٨٩). قال أبو حيان: «متعلق الدعاء محذوف يدل عليه جملة جواب القسم، أي دعوا الله ورغبوا إليه في أن يؤتيهما صالحاً ثم أقسما على أنها يكونان من الشاكرين إن آتاهما صالحاً»^(١)، فالمرجعية داخلية سابقة^(٢). يتضح جلياً دور الحذف في سبك الجمل والآيات عن طريق إثارة الذهن للملأ الفراغات، وتقدير المحذوف، حيث إن تقدير المحذوف فيه تكرار معنوي للمذكور، كما أن هناك ربطاً بين المحذوف وبين ما يدل عليه. فمما سبق يتبين لنا أهمية حذف الحرف والاسم والفعل والجملة - خاصة الحذف الجملي من أبرز مواضع الحذف اتصالاً بالنص عكس الحذف الاسمي والفعل - في تحقيق السبك النصي لهاتين السورتين - النساء والأعراف - وذلك لينضم الحذف مع غيره من وسائل السبك في السورتين ولا يقل أهمية عنها.

(١) البحر المحيط ٦ / ١١.

(٢) للمزيد انظر الآيات: ١٦-١٨-١٩-٢١-٢٢-٢٧-٣٩-٤٣-٤٩-٧٤-٧٧-٨٣-٨٥-

٨٨-٩٠-٩٣-١٠١-١٠٤-١٠٦-١١٢-١١٣-١١٥-١١٧-١٢٣-١٣٤-١٤٣-١٤٤-

١٤٥-١٤٩-١٥٠-١٥٥-١٥٨-١٦٩-١٧٢-١٧٣-١٧٤-١٧٦-١٧٩-١٨٩-١٩٤.

(ج) العطف أو الربط (Conjunction).

إذا كان للإحالة والحذف دور مهم في سبك النص، وتربط أجزائه قبل
لحروف العطف أو الربط دوراً لا يقل أهمية عن سابقه. فحروف العطف تشكل
آلية مهمة من آليات سبك النص، حيث تقوم هذه الحروف بربط الألفاظ
بعضها ببعض، كما تربط الجمل، والتراكيب، والفقرات، والتصورات بعضها
ببعض، «العطف إذاً موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة، وتعتمد أخرى
إلى جملتين أو جمل، فتعطف بعضاً على بعض، ثم تعطف مجموع هذين على مجموع
تلك»^(١). أضف إلى ذلك «أن هذا الربط الذي تقوم به هذه الأدوات يقوم على
الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، فيفيد الرابط أحياناً مجرد الترتيب في الذكر،
فمثال ذلك حرف الواو في العربية. وقد يقوم الرابط أحياناً كذلك على الجمع
ولكنه يدخل معنى في آخر يتعين به نوع العلاقة بين الجملة والأخرى، أو بين
المفرد والمفرد مثل (الفاء) و(ثم) و(أو) وغيرها في العربية حيث تربط وتعبر عن
علاقة منطقية بين العنصرين المربوطين»^(٢).

يبد أن سبك النص، وتربط أجزائه ليس حكراً على وجود حرف العطف
وحده، حيث «يقوم حرف العطف مع التطابق في العلاقة الإعرابية بالدور العظيم
في ترابط المعطوف بالمعطوف عليه، وقد تتوافر عناصر أخرى من خارجها، كأن
يكون المعطوف عليه والمعطوف مطلوبين لما يدل على المشاركة، مثل: اختصاصهم،
واشتراك، إلى آخر هذه الأفعال ويقوم معنى حرف العطف نفسه بدور
في مشاركة المعطوف والمعطوف عليه، فقد تكون على سبيل الموافقة في الحكم إثباتاً

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢٤٥.

(٢) تسبيح النص، ص ٣٧ بتصرف.

أو نفيًا أو المخالفة فيه»^(١). فالسبب نابع من وجود حرف العطف، والعلامة الإعرابية، ومعنى حرف العطف، وإثبات الحكم أو نفيه عن أحد المتعاطفين. وبالرجوع إلى ملحق الجداول - جدول (٣) حروف العطف لسورة النساء، و جدول (٤) حروف العطف لسورة الأعراف - نستطيع من خلالها أن نبين حصراً لأدوات العطف في سورتي النساء والأعراف^(٢) كالتالي:

السورة	حرف العطف	للعطف	للاستئناف	بين الجمل	بين المفردات	الإجمالي
النساء (١٧٦) آية	الواو - الفاء - ثم - أو	٤١٥	١٢٦	٤٤٨	٩٣	٥٤١
الأعراف (٢٥٦) آية	الواو - الفاء - ثم - أو	٣٨٧	٧١	٣٩٨	٦٠	٤٥٨

يتبين من خلال الجدول السابق الآتي:

- إجمالي عدد حروف العطف في سورة النساء حوالي (٥٤١) حرفاً.
- علماً بأن عدد آيات سورة النساء = (١٧٦) آية.
- أي أنه لا تخلو آية من أداة ربط من حروف العطف أو أحياناً حرفين، كما أن حروف العطف تربط بين الجمل والمفردات وكذلك الفقرات.
- إجمالي عدد حروف العطف في سورة الأعراف حوالي (٤٥٨) حرفاً.
- علماً بأن عدد آيات سورة الأعراف = (٢٠٦) آية.
- أي أنه لا تخلو كذلك آية من آيات سورة الأعراف من حرف أو أكثر من حروف العطف بنوعيتها، عطف الجمل أو المفردات وكذلك الفقرات.

(١) محمد حماس، بناء الجملة العربية، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١٩٣.
(٢) انظر:

- إعراب القرآن وبيانه، سورة النساء، ٢/ ١٤٧: ٣٩٦.
- الجدول في إعراب القرآن، سورة النساء، ٤/ ٦: ٤٢٨/ ٢٦١.

• ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩).

• ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

• ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ لُّجُوعِهِمْ إِلَّا مَنَ أَمْرٌ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَقْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ
الْثَّانِي^٢ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤).

• (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ.
وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (النساء: ١٣٦).

• **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْثِيِّ يَتْلُو آيَاتِ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (الأعراف: ٥٤).

• ﴿فَارْمِلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ فَلَئِمَّا تَمُضَّتْ
فَانْتَكَبُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

• ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآٰمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الْآٰمِنَ الَّذِي يَدْعُ إِلَى اللَّهِ
وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

• ﴿وَٱذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ
وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

(ج-٢) وصل الجمل:

• ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
مَّرُوفًا﴾ (النساء: ٥).

• ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنفَع
غَيْرُ مَسْمُوعٍ وَرَدَعْنَا لِيَآءَ آلِ سُلَيْمٍ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنفَعَنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّمْ يَكْفُرْهُمْ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٤٦).

• ﴿سَتَجِدُونَ ءَآخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوا بَمَوَالِكُمْ وَيَأْمَنُوا بِقَوْمِهِمْ كُلٌّ مَّارِدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ
أَنكَسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَتَذَكَّرُوا وَيُلَاقُوا إِلَيْنَا السَّلَمَ نَكْفِؤْهُمَا أَيْدِيَهُمْ فَنَخْذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ نَفَقْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكَ جَعَلْنَا لَكُمُ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٩١).

• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوَّرَيْنَاكُمْ ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ﴾ (الأعراف: ١١).

• ﴿أَوْعِظُكُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ يُونِسُ لَكُمْ وَالنَّفَقَا وَلَمَّا لَمْ
تَرْجِعُوا﴾ (الأعراف: ٦٣).

• ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يٰٓأَتَقْرءُونَ لَقَدْ أُنزِلَتْ كُتُبُكُمْ بِسَآءَةِ رَبِّي وَنُصِّحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا
تُحِبُّونَ النَّصٰحَةَ﴾ (الأعراف: ٧٩).

- (وَكَتَبَ لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِ
أَمِيبٌ بِهِ مَنَ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْكَنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَرِثَتُكَ
الزَّكَاةُ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف: ١٥٦).

(ج-٢) - وصل عدة جمل أو فقرة بأخرى:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَتُنْكِحُهَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ وَاتَّقُوا
الَّذِينَ آمَنْتُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحِيثَ بِالْعِلِّيِّ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝
وَأَن يَخْتَفِيَ أَهْلُ الْقِسْطِ فِي الَّذِينَ فَانِكُوا مَا طَافَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْوًى تِلْكَ ذُنُوبُ الَّذِينَ خَفُوا
لَمَّا بَدَأُوا فَوَجِدَ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَتَىٰ تَعْلُوا ۝ وَاتَّقُوا النِّسَاءَ مَدَقَّهِنَّ فَمِنْهُنَّ مَنَ طَرَفٌ
لَّكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ قَسَا فَاكُلُوهُ هُنَّ كَأَمْوَالِكُمْ ۝ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا
وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْهُفًا ۝ وَاتَّقُوا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ مَا هَسَمْتُمْ
مِنْهُمْ رُسُومًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا
فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ
وَكُنْ يَاقُو حَسِبًا) (النساء: ١ - ٦).

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ..... وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِيهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلَهِ ۝..... وَلَوْ طَافَ إِذَا قَالَ
لِقَوْمِهِ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝..... وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ
رَبِّكُمْ فَارْزُقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ بَعْدَ زُلْفَتِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾
 وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا
 فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ مِّنْهُم نَاقِمُونَ ﴿٦١﴾ أَوَلَمْ
 يَأْتِ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ
 إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْنِ إِتَنَّا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ فَظَلَمُوا بِهِمَا فَانْظُرْ
 كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ (الأعراف: ٥٩ - ١٠٣). هكذا على النحو السابق

تعطف مجموعة من الجمل، أو فقرة كاملة على فقرة أخرى، وقد تتكون هذه الفقرة من
 آية واحدة كما في سورة النساء الآية (٢) وهو قوله تعالى ﴿وَمَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا
 الْحَيٰثَ بِالطَّيِبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِنَّ أَمْوَالَهُمْ لِنَدِّ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢). معطوفة على
 الآية الأولى وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ مِنْهَا
 ذَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾
 (النساء: ١). أو عدد من الآيات يشتمل كل منها على كثير من الجمل التي ترتبط بين
 الأخرى فيما بينها بروابط داخلية كما في سورة الأعراف من الآية (٥٩: ١٠٢). ومهما
 يكن من أمر فإنه لا يمكن تصور هذه المفردات والعبارات والجمل والآيات دون
 وجود هذه الروابط، فمحاولة قراءة هذا النص بدون هذه الأدوات يؤدي إلى غموض
 شديد وإلى تفكك بين عناصر النص، وهذا ما يتنزه عنه النص القرآني الكريم بصفة
 خاصة، والنص بصفة عامة كي تحقق نصيته^(١). ولعله من المهم أنؤكد أن الترابط
 النصي عن طريق الأدوات ليس كل شيء، أو قل إنه لا يشمل كل أنواع الروابط
 الموجودة بما يمكن أن نطلق عليه نصاً، فهذا الترابط النصي الذي يتم عن طريق

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: ١ / ٢٧٩.

الأدوات داخل النص هو ترابط سياقي^(١)، أو قل هو ترابط بين علاقات ملفوظة كما يسميه الدكتور تمام حسان^(٢)، غير أن هناك ترابطاً نصياً من نوع آخر يتمثل في العلاقات المعنوية القائمة في النص، وهو ما يسميه الدكتور تمام حسان - أيضاً - العلاقات الملحوظة، وهو ما سوف نناقشه تحت عنوان الحبكة^(٣) - إن شاء الله -.

(١) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ص ٧٦.

(٢) البيان في روائع القرآن، ص ٥٣٦.

(٣) فصل الحبكة، ص ١٤٠: ٨٧.

(د) التوابع:

وأما بقية التوابع: النعت، والتوكيد، والبدل، فالنعت لم يذكره النصيون من بين وسائل السبك النصي، لكنه - في تراثنا العربي - يقوم بالربط بين المفردات، وكذلك الجمل، وبين الآيات بعضها ببعض. وكذلك التوكيد لا يقل أهمية عن العطف والنعت في تحقيق السبك النصي، مع عدم ذكر النصيين له مثل النعت. والنعت والتوكيد كلاهما مستخدم بكثرة في القرآن الكريم. أما الإبدال فقد عني به القدماء والمحدثون على حد سواء، القدماء تناولوه بوصفه تابعاً من التوابع.

والنصيون تناولوه بوصفه وسيلة من وسائل السبك النصي. مع ملاحظة اختلاف الإبدال عند النصيين عن البديل عند النحويين العرب. البديل يرتبط بالمرجعية من ناحية كونه يرتبط بها سبقه - المبدل منه -، وإحالة البديل تكون داخلية؛ إذن المبدل منه يجب ذكره حتى لا يحدث الغموض من معرفة البديل^(١). والجدول الآتي يبين الإحصاء الخاص بالنعت والبدل في سورتي النساء والأعراف:

م	انتابع	نوع وروده في النص	عدد مرات وروده في النص	
			النساء	الأعراف
١	النعت	- (مفرد / جملة) - متعلق - مشترك (نعت / بديل، حال / نعت)	٧٩	٧٨
			١٦	٢٠
			٢	٥
		المجموع	٩٧	١٠٣
٢	البديل	- (كل - بعض - اشتغال) - مشترك (بديل / عطف بيان، بديل / حال)	١١	١٢
			-	١٣
		المجموع	١١	٢٥
		الإجمالي	١٢٨	١٢٨

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ١ / ٢٦٩.

ونلاحظ من خلال الجدول السابق:

أن عدد التوابع (النعث - البدل...) يبلغ مجموعها (١٢٨) في كل سورة على حدة، مما يدفعنا إلى القول، بأن التوابع - بالإضافة إلى حروف العطف - في أرجاء النص القرآني - سورتي النساء والأعراف - فلن تجد آية واحدة تخلو من أحد أنواع التوابع مما يحقق - من الناحية الشكلية - السبك النصي -، ومن الناحية الدلالية، فإن وحدة موضوع كل سورة - كما سيئين لنا إن شاء الله في فصل القصد والقبول^(١) - يكفل تحقيق التماسك الدلالي لها، ولا شك، فإن دور التوابع كلها كثرت فإنها تعكس قدر التماسك النصي القائم بين جزئيات النص الكريم لكل سورة بوجه خاص، والنص القرآني كله بوجه عام، وهذا التماسك لوسيلة واحدة من وسائل السبك.

(١) النعث في سورتي النساء والأعراف:

ولنلاحظ الأمثلة على بقية التوابع -بعد حروف العطف السابقة- في سورتي (النساء والأعراف).

(..خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...) (النساء: ١)

(..يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ...) (النساء: ١)

(..وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) (النساء: ٨)

(..إِنَّ الْكُفْرَ كَثِيرٌ مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ اللَّهِ...) (النساء: ١٠١)

(.. وَإِنْ يَدْعُوا إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ إِلَّا يَقُولُ اسْجُدْ لِلَّهِ...) (النساء: ١١٧)

(.. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ آيَاتٌ...) (النساء: ١٧٤)

(..لَا تَقْتُلُوا نَفْسَكُمْ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ...) (الأعراف: ١٦)

(.. أَلَمْ يَكُنْ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ شَرِّ قَوْمٍ...) (الأعراف: ٢٦)

(.. قُلْ مَنْ إِلَهُكَ يَا مُحَمَّدٌ...) (الأعراف: ٣٢)

(١) فصل القصد والقبول، ص ٢٢٤: ١٨٩.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ...﴾ (الأعراف: ٥٨)

﴿... مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ...﴾ (الأعراف: ٥٩)

﴿... وَلَا تَجْمَعُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٠)

(د-٢) البديل في سورتي النساء والأعراف:

﴿... مَا فَعَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ وَتَنَبَّأَهُمْ...﴾ (النساء: ٦٦)

﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (النساء: ٨٧)

﴿... وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَائِمِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَتَّعَهُمْ دَرَجَاتٍ...﴾

(النساء: ٩٥ - ٩٦)

﴿... وَمَا يُثَلَّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يُثَمَّى النِّسَاءُ...﴾ (النساء: ١٢٧)

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾ (النساء: ١٦٥)

﴿... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (النساء: ١٧١)

﴿... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُتَى﴾ (الأعراف: ١٥٨)

﴿... فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأَمِينُ﴾ (الأعراف: ١٥٨)

﴿... الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (الأعراف: ١٥٨)

﴿وَلَا قِيلَ لَهُمْ أَتَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ (الأعراف: ١٦١)

﴿وَلَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ (الأعراف: ١٧٢)

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...﴾ (الأعراف: ١٨٧)

(د-٣) نماذج لما يحتمل الوجهين (نعت / بدل)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾ (النساء: ١)

(بدل / نعت)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (النساء: ٢٩)

(بدل / نعت)

- ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (النساء: ٧٠) (بديل / نعت)
- ﴿ .. قَالَ مَوْلَاةَ الْقَوْمِ لَا يَكَاذُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٧٨) (بديل / نعت)
- ﴿ .. عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ... ﴾ (النساء: ١٧١) (بديل / نعت)
- ﴿ .. غَيْرَ أُولِيَ الضَّرَرِ وَأَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (النساء: ٩٥) (بديل / نعت)
- ﴿ .. مَا نَهَبْنَاكُمْ رَجْعًا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ... ﴾ (الأعراف: ٢٠) (بديل / عطف بيان)
- ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴾ (الأعراف: ٦٥) (بديل / عطف بيان)
- ﴿ .. هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ .. ﴾ (الأعراف: ٧٣) (بديل / عطف بيان / خبر)
- ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً ﴾ (الأعراف: ١٤٥). (بديل / مفعول به).
- ﴿ وَأَكْتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً .. ﴾ (الأعراف: ١٥٦) (بديل / عطف بيان)
- ﴿ .. فَلَمَّا أَتَيْتَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا .. ﴾ (الأعراف: ١٨٩). (نعت / بديل)

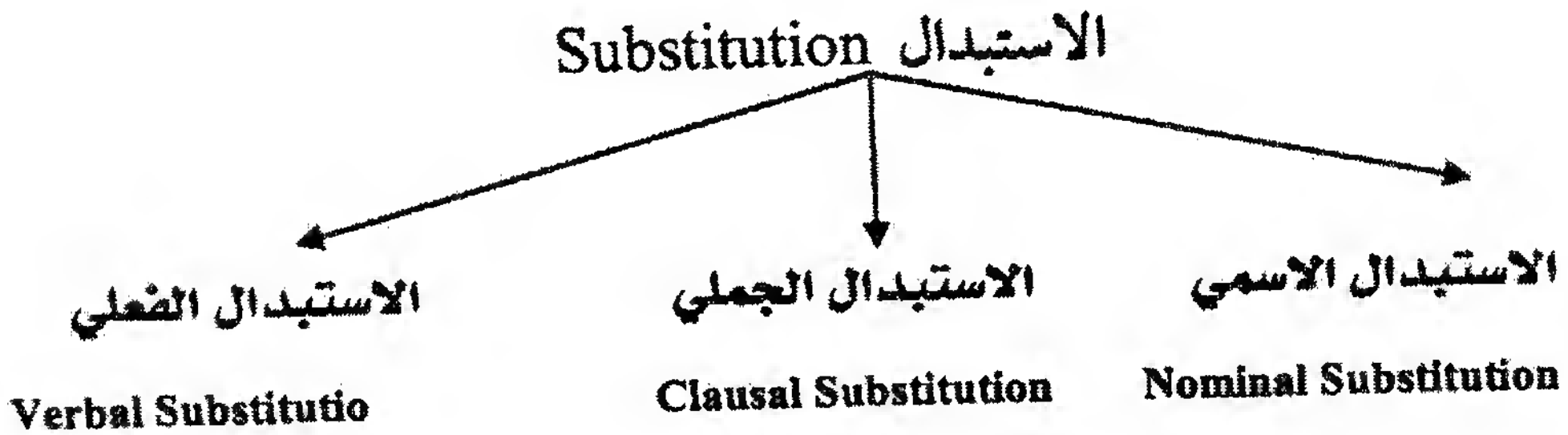
ولا يخفى - من خلال الأمثلة السابقة - ما بين النعت والبديل من ناحية و مرجعية الضمائر من ناحية أخرى، من علاقة إحالية، فمرجعية النعت في السنادج - السابقة - سابقة، وكذلك كانت مرجعية البديل سابقة - أيضاً مما جعلنا نؤثر التركيز على التوابع بوجه عام، والنعت والبديل بوجه خاص كأحد آليات تحقيق السبك النصي المهمة، والتي تحقق الامتداد واستمرارية النص.

(هـ) الاستبدال (Substitution)

يُعدُّ الاستبدال أحد وسائل السبك النحوي التي تتم داخل النص بين عنصر متأخر وآخر متقدم. ويقصد بالاستبدال: «إحلال كلمة محل كلمة أخرى»^(١)، أو بعبارة أخرى: «الاستبدال عملية تتم داخل النص، إنه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر»^(٢). ويستخلص من كونه: عملية داخل النص أنه نصي. على أن معظم حالات الاستبدال النصي قبلية، أي علاقة بين عنصر متأخر وعنصر متقدم.

أنواع الاستبدال:

الاستبدال - باعتبار الوظيفة النحوية - ثلاثة أنواع^(٣):



وعن العلاقة بين الاستبدال والحذف فهي: «علاقة التضمنين، فالاستبدال يتضمن الحذف، بمعنى أن الحذف يمكن تفسيره باعتباره شكلاً من أشكال الاستبدال، حين يكون الاستبدال بالصفري»^(٤).

(١) علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ص ١٢.

(٢) نفسه، ص ١١٣.

(٣) تنظر هذه الأنواع في:

• علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ص ١١٤: ١١٥.

• نحو النص، ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٤) علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ص ١١٣.

(هـ-١) الاستبدال الاسمي:

• ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ.... وَإِنْ تَحْسَبْتُمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدِ انْقَضَىٰ...﴾ (النساء: ٧٨). حيث حل قوله - تعالى - (كل) محل كل من (حسنة) و(سيئة). أي: قل الحسنه والسيئة من عند الله، يقول الألوسي: «أمر له - ﷺ - بأن يرد زعمهم الباطل واعتقادهم الفاسد ويرشدهم إلى الحق ببيان إسناد الكل إليه - تعالى - على الإجمال أي: كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله - تعالى - خلقاً وإيجاداً»^(١).

• ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ... وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَقُّ﴾ (النساء: ٩٥). حيث حل قوله تعالى: (وكلاً) محل كل من (القاعدون) و(المجاهدون)، أي: كل واحد من الفريقين: المجاهدين والقاعدين وعد الله المثوبة الحسنى وهى الجنة، وقد ذكر ذلك أبو حيان^(٢)، والألوسي^(٣).

• ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ... قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٨). حيث حل قوله تعالى: (كل) محل كل من (أخراهم) و(أولاهم)، أي: لكل من الأخرى والأولى عذاب، وللأولى عذاب متضاعف زائد إلى غير نهاية^(٤).

• ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ... أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٤). حيث حل - قوله تعالى - (الظالمين) محل - قوله تعالى - (أصحاب النار) و«التعبير عنهم بالظالمين تعريف لهم بوصف جرى مجرى اللقب، تعرف به جماعتهم، كما يقال: المؤمنين، لأهل الإسلام»^(٥).

(١) البحر المحيط ٤ / ٢٠١، روح المعاني ٥ / ٨٨.

(٢) نفسه ٤ / ٢٤٤.

(٣) روح المعاني ٥ / ١٢٢.

(٤) البحر المحيط ٥ / ٣٤٣، التحرير والتنوير، ٥ / ٢٩٦.

(٥) التحرير والتنوير ٥ / ٣٠٦.

(هـ-٢) الاستبدال الضعلي:

- ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا..... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْلِكُوا لَهَا...﴾ (النساء: ٣). حيث حل قوله تعالى: (تعطلوا) محل -قوله تعالى- (تقسطوا) فالإسقاط أي العدل والإنصاف^(١)، أي: لا تعطلوا بين اثنين إن نكحتموهما^(٢).
- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُكَ....رَمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥). حيث حل قوله تعالى: (قضيت) محل -قوله تعالى-: (يحكموك) أي: «تحكم فلا تضيق صدورهم من حكمك، وقيل: معناه ويسلموا ما تنازعوا فيه لحكمك»^(٣).
- ﴿قَالَ فَاهْبِطْ....فَأَخْرَجَ لَكَ مِنَ الصَّنِيعِ﴾ (الأعراف: ١٣). قال أبو حيان: «حيث حل قوله تعالى: (فأخرج) محل قوله: (فاهبط)، وكرر معنى الهبوط بقوله: فأخرج، لأن الهبوط منها خروج»^(٤).
- ﴿وَجَنُوزًا يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ....مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨-١٣٩). حيث حل قوله تعالى: (يعلمون) محل قوله تعالى: (يعكفون) أي: «ما كانوا يعكفون على أصنام لهم، وعبادتهم إياها»^(٥).

(هـ-٣) الاستبدال الجملي:

- ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ ۝ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ...وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء: ٢٩-٣٠) أولاً: حيث حل -قوله تعالى-: (ذلك) الأولى محل قوله تعالى: (لا تأكلوا أموالكم)، وقوله تعالى: (ولا تقتلوا أنفسكم) يقول أبو حيان: «الإشارة

(١) روح المعاني ٤ / ١٨٩.

(٢) البحر المحيط ٤ / ١٩.

(٣) الكشف ١ / ٥٦٠، والبحر المحيط ٤ / ١٨١.

(٤) البحر المحيط ٥ / ٣١٧.

(٥) الطبري ١٣ / ٨٣، والكشاف ٢ / ١٤١.

بذلك إلى ما وقع النهي عنه في هذه الجملة من أكل المال بالباطل، وقتل الأنفس، لأن النهي عنهما جاء متسقاً، ثم ورد الوعيد حسب النهي^(١). ثانياً: حل - قوله تعالى -: (ذلك) الثانية - استبدال جملي أيضاً - محل - قوله تعالى -: (فسوف نصليه ناراً)، يقول الألوسي: «أي إصلاؤه في النار يوم القيامة على الله يسير»^(٢).

● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ... ذَلِكَ خَيْرٌ...﴾ (النساء: ٥٩). حيث حل - قوله تعالى - (ذلك) محل - قوله تعالى -: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، يقول الرازي: «(ذلك خير) أي: الذي أمرتكم به في هذه الآية خير لكم»^(٣). وبه قال الألوسي^(٤).

● ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ... وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (الأعراف: ١٤١). حيث حل - قوله تعالى -: (ذلكم) محل قوله - تعالى -: (يسومونكم سوء العذاب)، ويقول الطبري: «وفي سومهم إياكم سوء العذاب، اختبار من الله لكم، وقيل: ﴿وفي ذلكم﴾ أي الانجاء أو العذاب»^(٥).

● ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ... أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧). حيث حل - قوله تعالى -: (أولئك) محل - قوله تعالى -: (عامنوا به وعزروه ونصروه... معه)، يقول ابن عاشور: «والإشارة في قوله: (أولئك هم المفلحون) للتنويه بشأنهم، وللدلالة على أن المشار إليهم بتلك الأوصاف صاروا أحرىاء بما يخبر به عنهم بعد

(١) البحر المحيط ٤ / ١١٠.

(٢) روح المعاني ٥ / ١٧.

(٣) مفاتيح الغيب ١٠ / ١٥٧.

(٤) روح المعاني ٥ / ٦٧.

(٥) الطبري ١٣ / ٨٥.

اسم الإشارة^(١). فالاستبدال -مما سبق- ليس مجرد وسيلة أو علاقة نحوية -معجمية فقط؛ بل لتحقيق علاقة دلالية كذلك، وهو من الوسائل التي يستخدمها الكاتب - عامة - لتجنب تكرار التعبير نفسه، مع تحقيق الاستمرارية التي تمثل الغاية والمضمون من تحقيق سبك النص. كما ترجع أهمية الاستبدال في تحقيق سبك النص من خلال ملاحظة «العلاقة بين المستبدل والمستبدل منه، وهي علاقة قبلية بين عنصر سابق في النص وعنصر لاحق فيه...»^(٢)، وهو كما يتضح في كل الآيات - النساء والأعراف - السابقة الذكر محل التطبيق.

(١) التحرير والتنوير ٥ / ٤٨٣.

(٢) لسانيات النص، ص ٢٠ : ٢١.

ثانياً، وسائل السبك المعجمي:

نعني بالسبك المعجمي: العلاقة الجامعة بين كلمتين أو أكثر داخل المتابعات النصية. وهي علاقة معجمية خالصة لا تفتقر إلى عنصر نحوي يظهرها. ويتحقق السبك المعجمي داخل النص من خلال وسيلتين، هما التكرار «Reiteration»، والتضام «Collocation».

(أ) التكرار «Reiteration»

من الأنساق النصية التي أولاها البلاغيون والنقاد عناية كبيرة ظاهرة (التكرار)، وقد عالج البلاغيون التكرار الذي يُحدث الترابط والإيقاع الموسيقي والزخرفة اللفظية، بوصفه أصلاً من أصول البديع، وقد جاء ذلك واضحاً عند ابن رشيّق (ت ٤٠٦ هـ) في (العمدة)، وابن الأثير (ت ٦٣٦ هـ) في (المثل السائر)، وابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) في (بديع القرآن)، والقزويني (ت ٧٣٩ هـ) في (الإيضاح)، والعلوي (ت ٧٤٩ هـ) في (الطراز)، وابن القيم (ت ٧٥١ هـ) في (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن)، والزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في (البرهان في علوم القرآن)، وغيرها.

ويقول الدكتور سعد مصلوح: «وجدت بالذكر أنك ربما وجدت هذه الظواهر (أي: أنواع التكرار) بعضها أو جُلّها، في التراث النقدي والبلاغي عند العرب أشتاتاً وفرادى، لانصرافها إلى متابعة الشاهد والمثال والجملة»^(١).

(١) سعد مصلوح، في البلاغة العربية، والأسلوبيات اللسانية، مجلس النشر العلمي، الكويت، ٢٠٠٣ م، ص ٢٣٧.

وقد تناول علماء لغة النص ظاهرة التكرار من منظور لساني صرّف، مركزين على كون التكرار شكلاً من أشكال السبك المعجمي^(١).

وقد استطاع الدكتور صبحي الفقي أن يصيغ تعريفاً جامعاً لأشكال التكرار وغرضه، جاء فيه: «ونستطيع أن نذكر تعريفاً للتكرار يضمن وظيفته النصية، بالقول بأن التكرار: هو إعادة ذكر لفظ أو عبارة، أو جملة، أو فقرة، وذلك باللفظ نفسه، أو بالترادف، وذلك لتحقيق أغراض كثيرة، أهمها: تحقيق التماسك النصي بين عناصر النص المتباعدة»^(٢). والجدول التالي يوضح فيه جميل عبد المجيد العلاقة بين أنماط التكرار في البلاغة العربية، وما يعادلها من أنماط في اللسانيات النصية^(٣).

(١) انظر:

- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ٧٩.
- علم لغة النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ٢٤.
- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ٢٤.
- (٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ٢ / ٢٠.
- (٣) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ٨٩.

وعن أنواع التكرار، وأغراضه انظر:

- ابن الناظم، شرح ألفية ابن مالك، ت: عبد الحميد السيد عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، د. ت، ص ٥٠٩.
- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، د. ت، ص ١٩١.
- صلاح فضل، ظواهر أسلوبية في شعر شوقي، فصول، مجلد ١، عدد ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨١ م، ص ٢١.
- السيد علي خضر، ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين، رسالة دكتوراة مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة طنطا، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ص ٣٦: ٥٨.

تكرار العنصر نفسه		الترادف وشبه الترادف	الاسم الشامل	الكلمات العامة
تكرار محض	تكرار جزئي			
١ - تكرار اللفظ والمعنى معاً	١ - الاشتقاق	تكرار المعنى دون اللفظ (التكرار المعنوي أحياناً)	التكرار المعنوي (أحياناً)	
٢ - رد المعجز على المصدر (أحياناً)	٢ - رد المعجز على المصدر (أحياناً)			

فالتكرار يسهم في تجسيد الاستمرارية في تتبع النص، «من خلال التركيز والإصرار على إعادة الفكرة ذاتها، في الفقرة نفسها أو فقرة أخرى من العمل، فتشكّل بناءً على هذا ما يعرف بالوحدة العضوية»^(١). ويعد التكرار أحد العوامل التي ترتبط بالقدرة على الفهم. ف «إن إعادة العنصر المعجمي ذاته أو بدالاته - حسب تقسيماته - يشكل إلحاحاً على المتلقي للتعايش مع الجو النفسي والانفعالي المحدث من قبل هذا الإجراء، وإذا توافر الصوت المتكرر، وأحدث نوعاً من النغمة المتوافقة مع سابق لها، فإنه يكون أدعى إلى ملاحظته دون غيره من أنماط التماسك الأخرى»^(٢). يقول الدكتور صبحي الفقي: «فالتكرار - زيادة على كونه يؤدي وظائف دلالية معينة - فإنه يؤدي كذلك إلى تحقيق التماسك النصي، وذلك عن طريق امتداد عنصر من بداية النص حتى آخره، وهذا العنصر قد يكون كلمة أو عبارة أو جملة أو فقرة، وهذا الامتداد يربط بين عناصر هذا النص، مع مساعدة عوامل التماسك النصي الأخرى»^(٣).

(١) جودة مبروك، التكرار و تماسك النص، قصائد القدس لفاروق جوييدة نموذجاً، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ص ٢٦.

(٢) نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص الثري، ص ١٠٨.

(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص ٢ / ٢٢.

(١) التكرار على مستوى المفردات في سورتي النساء والأعراف:

الجدول الآتي يوضح أهم العناصر الإشارية المتكررة على مستوى المفردات:

العناصر الإشارية المتكررة		نوع التكرار		سورة النساء		سورة الأعراف	
				عدد الآيات	عدد التكرار	عدد الآيات	عدد التكرار
أولاً: العناصر المتشابهة		محض - جزئي		معظم السورة	٣١١	معظم السورة	١٣٠
- لفظ الجلالة		- شبه ترادف		١٩	٢٥	١٩	٢١
- رسل الله		- ترادف -		٣٧	٥٨	٣٩	٥١
- المؤمنين		رد العجز على الصدر -		٣٦	٥٩	٤٨	٦٧
- الكافرين		كلمات شاملة					
ثانياً: العناصر المميزة لكل سورة		محض - جزئي		٢٠	٦٨	-	-
- النساء		محض		-	-	٢	٢
- الأعراف		محض		١٧	٢٢	-	-
- الناس		محض		-	-	٦	٦
- بني آدم		محض - جزئي		١٤	١٤	-	-
- المنافقين		محض		-	-	١٩	٢١
- موسى		محض - جزئي		١٢	٢٢	-	-
- الرجال		محض - جزئي		-	-	٥٧	٦٩
- قال							

فأول ما يلفت النظر تكرار لفظ الجلالة في سورة النساء (٣١١) مرة، وفي

سورة الأعراف (١٣٠) مرة، بين لفظ «الله» و «رب» و «إله» مع اشتقاقاتها المتنوعة.

هذا إضافة إلى الضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة، كما سبق بيانه في الإحالة بالضمائر

وهذا كله يحيل إحالة داخلية سابقة إلى لفظ الجلالة المذكور في الآية الأولى في سورة

النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

كثيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

وهذا التواصل أو الاستمرار يتحقق بانتشار هذه الأسماء من الآية الأولى حتى الأخيرة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرْتُكُمْ فَلَكُمْ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَنْثَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَتَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦).

وكذلك في سورة الأعراف يبدأ هذا التواصل من الآية الثالثة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا دُورِيَّةَ أَزْوَاجٍ قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكُرُونَ﴾ (الأعراف: ٣). حتى الآية الأخيرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٦). وتكرار لفظ الجلالة في هذه الآيات - النساء والأعراف - لا يحقق السبك النصي بين الكلمات المكررة وحدها، ولكنه يحقق السبك النصي بين الآيات التي يقع لفظ الجلالة فيها. فسورة النساء تدور حول قضية التشريع - شأن السور المدنية - سواء ما يتعلق بحقوق النساء واليتامى والمواريث وأحكام الأسرة والنكاح وأحكام الصلاة أثناء الحروب والموقف من أهل الكتاب والمنافقين والهجرة في سبيل الله مروراً بقوم موسى عليه السلام والأنبياء من قبله وموقف المؤمنين والكافرين، وكلها أمور ضرورية لتأكيد الإسناد دلالة، ولتحقيق التماسك النصي عبر التكرار. وبالمثل في سورة الأعراف التي تدور حول قضية العقيدة - شأن السور المكية كلها - والتي بدأت بضرورة التصديق بما جاء به نبينا محمد - ﷺ - عن رب العزة - سبحانه وتعالى - مروراً بالتذكير بقضية خلق آدم - عليه السلام - موقف إبليس - لعنه الله - ومواقف يوم الحشر وأهل الأعراف وقصص الأنبياء وتفصيل لقصة سيدنا موسى - عليهم جميعاً ونبينا الصلاة والسلام - فكلها أمور تحتاج - كذلك - إلى مسند

إليه، ولتحقيق التماسك النصي عبر التكرار، ولا يخفى ما لذكر الله بهذه الطريقة من تحقيق لاستمرارية للنص، ولم يتوقف دور التكرار على تحقيق تماسك النص على مستوى الآيات المتتالية، بل على مستوى الآية الواحدة، فتجد لفظ الجلالة «الله» مكرراً في بعض الآيات أربع مرات، وأحياناً ثلاث مرات.

أما النموذج الأول، فمنه:

- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا قِيَمًا ذَرَأً مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَعِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلّهِ بِرَعِيَّتِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَعَلَ وَلَا يَعْمَلُ إِلَهِ إِلَهُهُمْ وَفَإِنَّ إِلَهِنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا وَلَوْ كَانُوا يُدْرِكُونَ الْأَلْبَابَ لَخِرَّطَ لِلْكَاذِبِ الْبَاطِلُ﴾ (الأنعام: ١٣٦).

وأما النموذج الثاني، فمنه:

- ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ وَفَّاهُم مَّا سَأَلُوا فَكُنُوا مُتَّبِعِينَ قَدْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦).

فقد كان من الممكن - في غير النص القرآني - الاكتفاء بذكره مرة واحدة في أول الآية، ثم تحل محله الضمائر في المواضع الأخرى. ولكن تكرار لفظ الجلالة (الله) بهذه الصورة يؤكد قدرته - سبحانه وتعالى - على القضايا المطروحة في كل آية على حدة، مثل: ملك الله للسموات والأرض، وتقوى الله والإيمان به في سورة النساء، وعبادة الله وآياته وملكه للأرض وما عليها وناقة الله في آية الأعراف، ومن ثم تأكيد الإسناد إليه - سبحانه - ومن جهة أخرى يتحقق تماسكها نصياً عبر التكرار، ولا يخفى أن التصريح بالاسم مكرراً له قوة في الدلالة وفي اللفظ ومن ثم في تحقيق التماسك. ونظراً لأن كل آية من الآيتين السابقتين - تحمل قضايا عديدة كما تحتوي كل آية على

عدة جل فكان ذكر لفظ الجلالة في آخر كل آية - يمثل نمطاً من أنماط التكرار وهو رد المعجز على الصدر - أمراً ضرورياً حتى لا يتصور كونها متفرقة. أما العنصر الإشاري (رسل الله)، وهو العنصر المتلقي المباشر للنص القرآني، فهو في سورة النساء تكرر (٢٥) مرة، يمثل رسول الله - ﷺ - في معظم الآيات والقليل منها عن نبي الله موسى والرسل عامة - عليهم وعلى نبينا السلام - بينما تكرر في سورة الأعراف (٢١) مرة، تشمل جميع ما ذكر من أنبياء الله مثل: نوح، وهود، ولوط، وصالح، وشعيب - عليهم السلام - ومعظمها تمثل تكراراً يحيل إحالة خارجية سابقة لشخص الرسول - ﷺ -، إذ لم يجر له ذكر صريح في سورة النساء. بينما تمثل تكراراً يحيل إحالة داخلية سابقة لرسول الله، للتصريح بذكر أنبياء الله في سورة الأعراف.

فمن النموذج الأول:

- ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (النساء: ١٣).
- ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (النساء: ١٤).

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤).

ومن النموذج الثاني:

• ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ٥٩).

• ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٦١).

• ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُودًا قَالُ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ٦٥).

• ﴿..... وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ (الأعراف: ٦٧).

ولا يخفى في النموذج الثاني نمطاً آخر من أنماط التكرار وهو الكلمات الشاملة، أو العامة، فأنبياء الله الذين ذكروا في سورة الأعراف تجمعهم وتشملهم كلمة (رسل الله) أو (أنبياء الله). وأما العنصر الإشاري الثالث الأكثر تكراراً فهو لفظ (المؤمنين) فقد تكرر في سورة النساء (٥٨) مرة، وفي سورة الأعراف (٥١) مرة، والنمط التكراري الغالب على هذا العنصر هو الترادف، أو شبه الترادف، حيث ورد بلفظ: المؤمنين، والمؤمن، والذين آمنوا، والذين عملوا الصالحات، والذي يقاتل في سبيل الله^(١). وهذا التكرار للفظ المؤمنين أو مترادفاته في سورة النساء

(١) انظر:

• سورة النساء: الآيات ١٣-١٧-١٩-٢٥-٢٩-٣٤-٣٩-٤٣-٥٧-٥٩-٧١-٧٤-٧٦-٨٠-٨٤-٩٢-٩٣-٩٤-٩٥-١٠٣-١٢٢-١٢٤-١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٩-١٤١-١٤٤-١٤٦-١٥٠-١٥٢-١٥٥-١٥٩-١٦٢-١٧٠-١٧٣-١٧٥.

• سورة الأعراف: الآيات ٢-٨-٢٧-٣٢-٤٢-٤٤-٤٦-٥٠-٦٥-٦٩-٧٢-٧٥-٧٦-٨٥-٨٧-٨٨-٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٢١-١٢٣-١٢٦-١٢٨-١٣٤-١٤٣-١٤٥-١٥٣-١٥٤-١٥٦-١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦١-١٦٤-١٧٠-١٨٥-١٨٨-٢٠٣.

بداية من الآية (١٣: ١٧٥)، وكذلك سورة الأعراف (٢: ٢٠٣)، يمثل وحدة دلالية في كل سورة، وهذا بدوره يحقق التماسك النصي لكل سورة من خلال هذا الانتشار في فضاء النص القرآني للسورتين. أمّا العنصر الإشاري الرابع والأكثر تكراراً فهو لفظ (الكافرين) بمشتقاته ومترادفاته، فقد تكرر في سورة النساء (٥٩) مرة، وفي سورة الأعراف (٦٧) مرة، علماً بأن هذا التكرار ينتشر في فضاء كل سورة، فهو يشمل الآيات (١٤: ١٧٣) في سورة النساء، والآيات (٣٣: ١٩٥) في سورة الأعراف، ومرجعية هذا النمط من التكرار داخلية سابقة. وبخصوص أهم العناصر الإشارية المتكررة والمميزة لكل سورة على حدة فمنها:

لفظ (النساء) الذي تكرر في سورة النساء (٦٨) مرة، منها النمط التكراري المحض، والجزئي، والترادف^(١). وقد تكرر من مطلع السورة حتى نهايتها (١: ١٧٦). ويمثل هذا نمطاً من أنماط التكرار وهو «رد العجز على الصدر» ومن ثمّ يصبح النص القرآني - سورة النساء - وحدة دلالية واحدة من خلال التماسك النصي الذي يحدثه تكرار لفظ «النساء» وكذلك تكرر لفظ «قال» في سورة الأعراف، فهذا التكرار يتناسب مع طبيعة السورة، فهي سورة قصصية، وطبيعة القصص الحوار، قال وقل وقلنا.... إلخ. وقد تكرر لفظ «القول بمشتقاته (٦٩) مرة»^(٢). فلا شك أن هذا

(١) انظر:

• النساء: ١-٣-٤-٧-١١-١٢-١٥-١٩-٢٠-٢٢-٢٣-٢٤-٢٥-٣٢-٣٤-٤٣-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٧٦.

(٢) انظر:

• الأعراف: ٥٩-٦٠-٦١-٦٥-٦٦-٦٧-٧٠-٧١-٧٣-٧٥-٧٦-٧٧-٧٩-٨٠-٨٢-٨٥-٨٨-٩٠-٩٣-١٠٤-١٠٥-١٠٦-١٠٩-١١١-١١٣-١١٤-١١٥-١١٦-١٢١-١٢٣-١٢٥-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣١-١٣٢-١٣٤-١٣٨-١٤٢-١٤٣-١٤٤-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٥-١٥٦-١٥٨-١٦١-١٦٢-١٦٤-١٦٩-١٧٢-١٧٣.

التكرار باللفظ والمعنى يحدث تماسكاً نصياً، ويمثل هذا التكرار نوعاً من الإحالة الداخلية السابقة. وقد تكرر لفظ (الأعراف) مرتين فقط في آيتين هما:

• ﴿وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَانِهِمْ وَكَادُوا أَنْصَبَ الْجَنَّةُ أَنْ سَلَكُوهَا﴾

عَلَيْكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لَمَّا دَخَلُوا هَاهُنَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿الأعراف: ٤٦﴾

• ﴿وَكَادَى أَنْصَبَ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَانِهِمْ قَالُوا مَا أَهْلُ عَذَابِكُمْ جَعَلَكُمْ وَمَا كُنْتُمْ

تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ٤٨).

(٢-١) التكرار على مستوى الجمل والآيات والفقرات:

(أ-٢-١) سورة النساء:

والجدول الآتي يوضح لنا أهم أنواع التكرار في سورة النساء:

رقم الآية	موضع التكرار	نوع التكرار
٥	﴿....وَقُولُوا لِمَنْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾	عض - تركيب نحوي
٨	﴿وَقُولُوا لِمَنْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾	عض - تركيب نحوي
١٣	﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ﴾	معنوي - تركيب نحوي
١٤	﴿وَمَنْ يُعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا﴾	معنوي - تركيب نحوي
٢١	﴿.....إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ...﴾	عض
٢٣	﴿.....إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ...﴾	عض
٢٦	﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ﴾	تركيب نحوي
٢٨	﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾	تركيب نحوي
٣٢	﴿....لِلرِّجَالِ نَعِيبٌ مِمَّا اسْتَمْتَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَعِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾	معنوي - تركيب نحوي
٤٨	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾	عض -

رقم الآية	موضع التكرار	نوع التكرار
١١٦	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعيدًا ﴾	تركيب نحوي
٤٤	﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ... ﴾	محض - تركيب
٥١	﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصيبًا مِّنْ هَآؤُلَآءِ ... ﴾	نحوي
١٣١	﴿ وَلِلَّهِ مَكَانٌ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِثْلَهُمَا ﴾	محض - تركيب
١٣٢	﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِثْلَهُمَا ... ﴾	نحوي
١١	﴿ ... لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَى ... ﴾	محض - تركيب
١٧٦	﴿ ... فَلِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَى وَلَهُ ... ﴾	نحوي
١١	﴿ ... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾	الآيات:
١٧	﴿ ... وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾	(١١ - ١٧ - ٢٦)
٢٤	﴿ وَأُحِلَّ ... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾	(١٧٠) (تكرار
٢٦	﴿ ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾	محض - وتركيب
٣٩	﴿ ... وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾	نحوي
٧٠	﴿ ... وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾	(والآيات كلها
٩٢	﴿ ... وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾	بينها تكرار معنوي
١١١	﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾	- وجزئي
١٢٧	﴿ ... فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾	ورد المعجز على
١٧٠	﴿ ... وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾	المصدر
١٤٧	﴿ ... وَكَانَ اللَّهُ شَآكِرًا عَلِيمًا ﴾	
١٤٨	﴿ ... إِنَّ اللَّهَ ... وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا عَلِيمًا ﴾	

نوع التكرار	موضع التكرار	رقم الآية
	(... وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ)	١٧٦
تكرار معنوي (دلالي)	(بَشِّرِ الْمُنِيفِينَ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (إِنَّ الْمُنِيفِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَعِيمًا)	١٣٨ ١٤٥
محض - تركيب نحوي	(... فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (الْوَالِدِينَ... فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)	١٢٨ ١٣٥
جزئي - معنوي تركيب نحوي	(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا....) (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا....)	١٦٧ ١٦٨
الآية ١٥١ كلها بالنسبة للآية ١٥٠ تكسار (رد عجز على الصدر)	(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ... أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) (أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)	١٥٠ ١٥١
رد عجز على الصدر	(وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا)	٦٩ ٧٠

(٢-٢-١) سورة الأعراف

والجدول الآتي يوضح أنواع التكرار في سورة الأعراف:

نوع التكرار	موضع التكرار	الآية
الآيات الثلاث تكرار معنوي والآيتان (٩٨ ، (٩٩)	(وَكَمْ مِنْ قَرْنٍ أَفْلَحَ كُفُّهُمَا فَبَاءَ بَأْسًا يَئِسًا أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ) (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَاهُونَ)	٤ ٩٧

نوع التكرار	موضع التكرار	الآية
بينهما تكرار تركيب نحوي	﴿أَوَإِنِ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾	٩٨
تركيب نحوي	﴿فَلَنَسْفَعَنَّا الَّذِينَ أَسْلَمُوا لَيْسَ لَهُمْ شُفَعَاءٌ فَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا أَفْهَمِينَ﴾	٦
تركيب نحوي - تكرار معنوي	﴿... فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ...﴾	٨ ٩
تكرار محض -	﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	٣٩
تركيب نحوي - معنوي	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يُلَاقِيَ الْوَجْهَ فِي سَعَةِ الْجَنَّةِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾	٤٠
تركيب نحوي	﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ...﴾ ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا...﴾ ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ...﴾	٤٤ ٤٨ ٥٠
تكرار معنوي دلالي - ورد عجز على الصدر	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ ﴿وَالِإِن شَعِثُوا أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ...﴾	٥٩ : ٧٢ ٧٣ : ٧٩ ٨٠ : ٨٤

وهكذا نجد أن أنماط التكرار المتعددة^(١) والمتنوعة قد التقت جميعها للإسهام في تحقيق السبك النصي لكل من سورتي النساء والأعراف، فكان التكرار بأنواعه المختلفة للكلمة والعبارة والجملة والآية والفقرة، وكلها ذات مرجعية داخلية سابقة، قد أدت إلى التماسك الشكلي، والدلالي لكل من سورتي النساء والأعراف.

(ب) - المصاحبة اللغوية / التضام «Collocation»

يعد التضام الوسيلة الثانية من وسائل السبك النصي المعجمي، والتضام هو: «توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة، نظراً لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك»^(٢). وتعرفها عزة شبل بأنها «نوع من أنواع الربط المعجمي، حيث يرتبط عنصر بعنصر آخر من خلال الظهور المشترك المتكرر في سياقات متشابهة. مثل الكلمات: (الحرب - الأعداء - الصراع - الجنرال)»^(٣). هذا الارتباط يعتاد أبناء اللغة وقوعه في الكلام، بحيث يمكن توقُّع ورود كلمة محددة في النص من خلال ذكر كلمة أخرى فيه، وتتميز تلك الظاهرة بعدم افتقارها إلى مرجعية سابقة أو لاحقة، كما هو الحال مع عناصر السبك النحوي^(٤).

علاقات التضام:

وتتمثل علاقات التضام فيما يلي:

١- التباين وله درجات عديدة: (تضاد - تحالف - تعاكس) ... فقد يكون اللفظان:

(١) ناهيك عن التوازي - بين الجمل المختلفة - تركيبياً ضمن أنواع التكرار؛ فمثلاً: كل جملة تتكون من: فعل + فاعل + مفعول أو مبتدأ + خبر...، مثلها كثير تنتشر في فضاء النص مما يؤدي - قطعاً - إلى ترابط وتماسك النص وحبكه.

(٢) لسانيات النص، ص ٢٥.

(٣) علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ص ١٠٩.

(٤) نظرية علم النص، ص ١١١.

متضادين Opposites، مثل (ولد / بنت، ميت / حي، ذكر / أنثى).

متخالفين Antonyms، مثل (أحب / أكره).

متعاكسين Converses، مثل (أمر / أطاع، باع / اشترى).

٢- التناظر، وهو مرتبط بفكرة النفي كالتضاد، مثل كلمات (خروف / فرس، قط /

كلب) بالنسبة للحيوان، وأيضاً مرتبطة بالترتبة، مثل ملازم - رائد - مقدم - عقيد

- عميد - لواء - فريق - مشير.

٣- علاقة الجزء بالكل، مثل (الصندوق والغطاء)، (المنزل والحجرة).

٤- علاقة الجزء بالجزء مثل (الفم والذقن)، (الأنف والعين).

٥- الدخول في سلسلة مُرتبة، مثل (السبت، الأحد، الاثنين)، (المحرم، صفر، ربيع)، (يناير، فبراير، مارس).

٦- التلازم الذكري، مثل (المرض والطبيب)، (النكتة والضحك)، (النملة والعسل)، (الملك والسلطة).

٧- الاندراج في صنف عام الاشتغال المشترك، مثل الكرسي والطاولة، حيث تشملها كلمة الأثاث^(١).

ومما سبق يتضح لنا الآتي:

أولاً: أن هذه العلاقات أقرب إلى المجالات الدلالية أو الحقول الدلالية أكثر من التضام.

ثانياً: لا يحكم على أي منها بالتضام إلا إذا وردت في نص ما في مواضع كثيرة

متلازمة، أما بدون ذلك فهي ضمن المجالات الدلالية.

(١) تنظر هذه العلاقات بالتفصيل في:

- لسانيات النص، ص ٢٥.
- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٨ م، ص ١٦: ١١.
- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ١٠٨.
- نحو النص، ص ٢٢٩.

ثالثاً: كل هذه العلاقات بين الكلمات لها دورها في السبك المعجمي، فهي تصنع تماسكا بدلالاتها المتعارضة، أو المتضادة، فالضد يبرز حسنه الضد.

ولذلك يقول جميل عبد المجيد: «وهذه المصاحبات المعجمية سوف تحدث

قوة سابكة Cohesion Force، حين تبرز في جمل متجاورة Adjacent Sentences^(١). فالتجاور هو الذي يُحدث قوة السبك، خلافاً لتباعد الجمل

الذي يُضعف هذه القوة السابكة.

(ب-١) علاقات التضام في سورتي النساء والأعراف:

(بدا-١) سورة النساء:

الجدول التالي يوضح أهم علاقات التضام في سورة النساء:

الآية	الكلمات	نوع التضام	الآية	الكلمات	نوع التضام
١	الناس - رجالاً - نساء	اشتغال	٢	الحيث - الطيب	تباين
٣	مثنى - ثلاث - رباع	سلسلة - مرتبة	٦	غنياً - فقيراً	تباين
٧	الرجال - النساء	تباين	٨	اليتامى - المساكين	تلازم
١١	الذكر - الأنثى واحدة - اثنتين ثلث - النصف - السدس لأبويه - لأمه آبائكم - أبناءكم	تباين سلسلة مرتبة الجزء بالجزء الجزء بالكل	١٢	رجل - امرأة أخ - أخت	تباين الجزء بالجزء
١٣	الله - ورسوله جنات - الأنهار نجري - الأنهار	تلازم اشتغال تكامل	١٤	يطع - يعص الله - ورسوله ناراً - خالداً	تباين تلازم تلازم

(١) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ١٠٨.

نوع التضام	المضامينات	الآية	نوع التضام	المضامينات	الآية
تلازم	محضين - غير مسالمين	٢٤	تلازم	أهل بيوتكم - بناتكم أخواتكم - بناتكم أخواتكم - بنات الأخ بنات الأخوات ... الخ	٢٣
تلازم	نصليهم - ناراً	٣٠	تلازم	محضات - غير مسالمات	٢٥
تباين	الرجال - النساء	٣٤	تباين	الرجال - النساء	٣٢
تلازم	الكافرين - هدايا مهينة	٣٧	تلازم	ذي القربى - اليتامى - المساكين	٣٦
الجزء بالجزء	وجوهكم - أيديكم	٤٣	تلازم	الله - اليوم الآخر	٣٨ : ٣٩
تلازم	الجبث - الطاغوت	٥١	تباين	عصينا - أطعنا	٤٦
تلازم	الله - الرسول اليوم الآخر	٥٩	تلازم	نصليهم - ناراً	٥٦
تلازم	الله - الرسول	٦٢	تلازم	الله - الرسول	٦١
تلازم	الله - الرسول النبين - الصادقين - الشهداء الصالحين	٦٩	تلازم	صراطاً - مستقيماً	٦٨
تباين	الرجال - النساء	٧٥	تباين	الدنيا - الآخرة	٧٤
تلازم	أقيموا الصلاة	٧٧	تباين	سبيل الله - سبيل الطاغوت	٧٦
تباين	الدنيا - الآخرة	٧٧	تباين	حسنة - سيئة	٧٨
تباين	حسنة - سيئة	٧٩	تلازم	يطع الرسول - يطع الله	٨٠
تباين	الآمن - الخوف	٨٣	تلازم	حسنة - سيئة	٨٥
تلازم	رقبة مؤمنة - دية مسلمة	٩٠	تباين		

الآية	الكلمات	نوع التضام	الآية	الكلمات	نوع التضام
٩٣	جهنم - خالداً	تلازم	٩٥	أموالهم - أنفسهم المجاهدين - القاعدين	تلازم تباين
٩٨	الرجال - النساء - الولدان	كلمة عامة (الناس)	١٠٠	الله - رسوله	تلازم
١٠٣	قياماً - قعوداً - جنوبيكم	كلمة عامة (أحوالكم)	١١٣	الكتاب - الحكمة	تلازم
١١٥	نصليه - جهنم	تلازم	١٢٢	أمنوا - وعملوا الصالحات جنت - الأنهار	تلازم اشتغال
١٢٤	ذكر - أنثى	تباين	١٢٦	السموات - الأرض	تباين
١٣١	السموات - الأرض	تباين	١٣٢	السموات - الأرض	تباين
١٣٤	الدنيا - الآخرة	تباين	١٣٥	الوالدين - الأقربين غنياً - فقيراً	تلازم - تباين
١٣٣٦	أمنوا بالله ورسوله يكفر بالله ورسوله الله - ملائكته كتبه - رسله - اليوم الآخر	تباين تباين تلازم تلازم	١٣٧	آمنوا - كفروا	تباين
١٤٠	المنافقين - الكافرين	الجزء بالكل	١٤١	الكافرين - المؤمنين	تباين
١٤٥	الدرك الأسفل - النار	الجزء بالكل	١٤٦	تابوا - أصلحوا اعتصموا - أخلصوا	كلمة عامة (الإيمان)
١٤٩	تبدوا - تخفوه	تباين	١٥٠	الله - رسوله	تلازم
١٥٢	الله - رسوله	تلازم	١٥٥ ١٦١:	نقض - كفر - قتل صد - أخذهم الربا - أكلهم الأموال - ظلم	اشتغال كلمة (ظلم)

الآية	الكلمات	نوع التضام	الآية	الكلمات	نوع التضام
١٦٢	المقيمون الصلاة - المؤتون الزكاة الله - اليوم الآخر	تلازم تلازم	١٦٣	نوح - النبيين - إبراهيم إسماعيل - إسحاق - يعقوب الأسباط	كلمة عامة أو اشتغال (النبيين)
١٦٧ : ١٦٨	كفروا - صدوا - ظلموا	كلمة عامة (ظلم)	١٧٠	السموات - الأرض	تباين
١٧١	الله - رسله السموات - الأرض	تلازم تلازم	١٧٣	آمنوا - عملوا الصالحات	تلازم
١٧٥	صراطاً - مستقيماً	تلازم	١٧٦	ولد أخت اثنتين - إخوة رجالاً - نساء الذكر الأنثيين نصف - ثلثان	الجزء بالجزء تباين تباين سلسلة مرتبة كلمة عامة (الورثة)

(ب-١-٢) - سورة الأعراف:

الجدول التالي يوضح أهم علاقات التضام في سورة الأعراف:

الآية	الكلمات	نوع التضام	الآية	الكلمات	نوع التضام
٨ ٩	ثقلت موازينه خفت موازينه	تباين تباين	١١	الملائكة - إبليس	تباين
١٢	خلقتني من نار خلقته من طين	تباين تباين	١٦	صراط - المستقيم	تلازم
١٧	أيديهم - خلفهم أيماهم - شمالهم	كلمة عامة (اتجاهات)	٢٠	تحيون - تموتون - تخرجون	
٢٧	لباسها - سوءاتها	تلازم	٣٣	الفواحش - الإثم والبغي	علاقة الكل بالجزء

الآية	الكلمات	نوع التضام	الآية	الكلمات	نوع التضام
٣٨	أخراهم - أولاهم	تباين	٤٢	آمنوا - وعملوا الصالحات	تلازم
٤٢ : ٤٣	جنة - الأنهار تجري - الأنهار رسل - ربنا	اشتغال تكامل تلازم	٤٤	أصحاب الجنة أصحاب النار	تباين
٥٠	أصحاب الجنة أصحاب النار	تباين	٥١	لهوا - لعباً	تلازم
٥٣	رسل - ربنا	تلازم	٥٤	السموات - الأرض الليل - النهار الشمس - القمر - النجوم	تباين تباين اشتغال (الأجرام)
٥٧	الرياح - سحاباً - ماء - الثمرات	سلسلة مرتبة أو علاقة الجزء بالجزء	٥٨	الطيب - خبث	تباين
٥٩ : ١٠٣	نوح - هود - صالح - لوط - شعيب - موسى	كلمة عامة (النبين)	٦١	رسول - رب العالمين	تلازم
٦٧	رسول - رب العالمين	تلازم	٧٣	ناقة - الله	تلازم
٧٤	الأرض - سهول - الجبال	اشتغال (الأرض)	٨١	الرجال - النساء	تباين
٨٥	الكيل - الميزان	الجزء بالجزء	٩٤	الضراء - السراء	تباين
٩٥	السيئة - الحسنة	تباين	٩٦	السماء - الأرض	تباين

الآية	الكلمات	نوع التضام	الآية	الكلمات	نوع التضام
١٠٣ : ١٧١	موسى - فرعون بني إسرائيل - السحرة	تلازم	١٢٤	أيديكم - أرجلكم	الجزء بالجزء
١٢٧	سنقتل أبناءكم نستحي نساءكم	تلازم	١٣١	الحسنة - السيئة	تباين
١٤٢	ثلاثين ليلة أربعين ليلة	سلسلة مرتبة	١٥٥	تضل - تهدى	تباين
١٥٦	الدنيا - الآخرة	تباين	١٥٧	النبي - الأمي التوراة - الإنجيل المعروف - المنكر الطيبات - الخبائث آمنوا - عزروه - نصروه - اتبعوه	تلازم اشتغال (رسالة) تباين تباين اشتغال (آمنوا)
١٥٨	النبي - الأمي	تلازم	١٦٠	عصاك - البحر - ظللنا الغمام - أنزلنا المن - والسلوى	تلازم تلازم
١٦٣	حيتان - يوم السبت	تلازم	١٦٨	يهدي - يفضل	تباين

الآية	الكلمات	نوع التضام	الآية	الكلمات	نوع التضام
١٧٩	الجن - الإنس	تباين - أو الجزء بالجزء	١٨٥	السموات - الأرض	تباين
١٨٨	نفعاً - ضراً الخير - السوء	تباين تباين	١٨٩	نفس واحدة - زوجها	اشتغال (نفس واحدة)
١٩٥	أرجل - أيد - أعين - آذان	الجزء بالجزء	٢٠٥	الغدو - الأصال	تلازم
٢٠٦	عبادته - يسبحونه - يسجدون	اشتغال (عبادته)			

وهكذا تقوم فكرة المصاحبة اللغوية أو التضام بدورها في سبك عناصر النص، سبكاً معجمياً، لاسيما إذا كانت هذه المصاحبة بين ألفاظ في جمل متجاورة، وقد ظهر ذلك جلياً من خلال الجدولين السابقين

مقارنة لإحصاءات وسائل السبك لسورتي النساء والأعراف:

م	نوع وسائل السبك	سورة النساء	سورة الأعراف
١	الضمائر	١٢٧٣	١٥٧٧
٢	الإشارة	٣٥	٤٤
٣	الموصول	١٨١	١١٦
٤	الحذف والاستبدال	١٥٧	٥٦
٥	التوابع	٦٦٩	٥٨٦
٦	التكرار	٧٧٠	٥٨٤
٧	التضام	٩١	٦٣
٨	المجموع	(٣١٤٥) علاقة	(٢٠٨٧) علاقة

من ملاحظات هذا الإحصاء يتبين لنا الآتي:

(أ) (١) عدد علاقات السبك في سورة النساء في كل آية واحدة = ٣١٤٥
 $176 + 19,5 =$ علاقة تقريباً.

(٢) عدد علاقات السبك في سورة الأعراف في كل آية واحدة =
 $3087 + 20,6 = 15$ علاقة تقريباً.

(ب) (١) عدد علاقات السبك في سورة النساء في كل جملة واحدة = ٣١٤٥
 $1350 + 3 =$ علاقة تقريباً.

(٢) عدد علاقات السبك في سورة الأعراف في كل جملة واحدة =
 $3087 + 10,72 = 3$ علاقة تقريباً.

هذه الأرقام بما لها من دلالات تؤكد على:

أولاً: تقارب عدد علاقات السبك النصي لسورتي النساء والأعراف على مستوى الآية دون تفرقة بين النص المكي والنص المدني.

ثانياً: تقارب عدد علاقات السبك النصي لسورتي النساء والأعراف على مستوى الجملة دون تفرقة بين النص المكي والنص المدني.

والنتيجة هي:

- تقارب عدد علاقات السبك النصي لسورتي النساء والأعراف على مستوى مجموع علاقات كل آيات السبك؛ دون تفرقة بين النص المكي والنص المدني.
- على هذا النحو السابق تقوم وماتل السبك بنوعيه - النحوي والمعجمي - بوظيفة الربط بين مكونات النص بشكل واضح؛ فليس يُتخيل أن تقوم لنص قائمة دون أن تربط بين أجزائه روابط تعمل على تماسكه وتربطه؛ فهذه الروابط «لا تتوزع بصورة عشوائية، لكنها تتوزع حسب الدلالة التي يريد النص أن يوضحها»^(١) إذ بدونها لا يتحقق التماسك والترابط النصي - سورتي النساء والأعراف -.

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ١/٢٠٦.

الفصل الثاني

(التبكي)

«Coherence»

إذا كان معيار السُّبْك مختصاً بالتناسق الشكلي الذي يفرضه ظاهر النص، فإنَّ الحبك مختص بالتناسق المعنوي الذي تفرضه المعاني وما بينها من علاقات ذهنية، هذه العلاقات التي تجعل المفاهيم مستمرة، هذه الاستمرارية التي يمثلها سبب القضية الأولى أو نتيجتها أو تفصيلها أو تفسيرها أو... الخ، وبتعبير آخر «فإن معيار الحبك يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص Textual World ونعني بها الاستمرارية المتحققة الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم Concepts والعلاقات Relations الرابطة بين هذه المفاهيم»^(١). فكما أن النص يتكون من ألفاظ وجمل مسبوكة فإنه يتكون أيضاً من معاني محبوكة، تلك المعاني التي يشير إليها الاقتباس السابق بمنظومة المفاهيم، فلا بدَّ من علاقات تربط بين هذه المفاهيم حتى يكون النص نصاً مفهوماً لدى المتلقي حتى وإن كان ظاهر النص - يبدو - مفككاً فإن المتلقي لا يلبث أن يتبين بنية عميقة مترابطة. وقد اختلف المعنيون باللسانيات النصية في ترجمة المصطلح الأجنبي Coherence كما اختلفوا من قبل في ترجمة مصطلح Cohesion على النحو التالي:

١ - الحبك: سعد مصلوح^(٢)، ومحمد العبد^(٣)، وجميل عبد المجيد^(٤)، وأشرف عبد البديع^(٥)، وحسام فرج^(٦).

(١) نحو أجرومية للنص الشعري. في البلاغة العربية والأساليب اللسانية، ص ٢٢٨.

(٢) نفسه، ص ٢٢٨.

(٣) حبك النص، منظورات من التراث العربي، ص ٥٩.

(٤) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ١٤١.

(٥) الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن، ص ١٠٨.

(٦) نظرية علم النص، ص ١٢٧.

- ٢ - الانسجام: محمد خطابي^(١).
- ٣ - التماسك: سعيد بحيري^(٢).
- ٤ - التماسك المعنوي: عزة شبل^(٣).
- ٥ - التماسك الدلالي: محمد سالم صالح^(٤).
- ٦ - الالتحام: تمام حسان^(٥).
- ٧ - الاتساق: تمام حسان^(٦)، وفريد عوض حيدر^(٧)، وإبراهيم دسوقي^(٨).
- ٨ - التقارن: إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد^(٩).

وقد أثر الباحث اختيار ترجمة المصطلح Coherence إلى الحبك حيث إنَّ معناه المعجمي^(١٠) يلتقي مع معناه الاصطلاحي، إذ أنَّ الحبك يمثل العلاقات غير الخطئية الموجودة بين المعاني في النص، حيث يُرى ظاهر النص وكأنَّه خالٍ من رابط يربط بين أجزائه فإذا بعلاقات الحبك تقوم بهذا الدور ليصبح نصاً متماسكاً متلاحم الأجزاء، وهذا المعنى يلتقي مع كون الحبك هو الشدُّ، فعلاقات الحبك تقوم بشدِّ

(١) لسانيات النص. مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ٥.

(٢) علم لغة النص. المفاهيم والاتجاهات، ص ١٤٣.

(٣) نفسه، ص ١٨٤.

(٤) صور التماسك النصي في سورة القتال، ص ١٤٣.

(٥) النص والخطاب والإجراء، ص ٨، ١٠٣.

(٦) نحو الجملة ونحو النص، ص ١.

(٧) اتساق النص في سورة الكهف، ص ٦٣.

(٨) نحو النص، ص ٩٠.

(٩) مدخل إلى علم لغة النص، ص ١١.

(١٠) يقول ابن فارس: «وهو إحكام الشيء في امتداد واطراد...» معجم مقاييس اللغة، ت: عبد

السلام هارون، دار الفكر، ط ١، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م، ١٣٥ / ٢، ويقول ابن

منظور: «الحبك: الشدُّ... والتحييك: التوثيق... والمحبوكة: ما أجيد عمله، والمحبوكة: المُعَكَّم

الخلع من حيك الثوب، إذا أحكمت نسجه» لسان العرب ١٠ / ٤٠٧ مادة (ح. ب. ك).

أجزاء النص وربطها سوياً / كما أن مصطلح الحبك ليس غريباً - أيضاً - عن أدبيات النقد العربي القديم^(١)، وكذلك الجمع بينه وبين قرينه السبك، سوف يساعد على اختصاص معناه بمجرد إطلاقه، وهو ما لا يتوفر لمفاهيم أخرى^(٢). وللحك أهمية كبيرة في فهم النص وتأويله، ومن ثم جعله (دي بوجراند) المعيار الثاني الخاص بالنص - بعد السبك - للحكم على النص بأنه نص^(٣)، وأن غياب علاقته «تمثل عقبة عقبة في طريق المتلقي فلا يفهم النص، وعندئذ سوف يفقد القبول الدلالي، وسيعد نصاً غير مقبول، كما أن له أهمية كبيرة في ترجيح وجه نحوي معين أو حرية الرتبة»^(٤). الرتبة^(٥). وإذا كان الحبك في نطاق الجملة كعلاقة الإسناد والملابسة والتفسير^(٥) له له صلة وثيقة بمعايير النصية وباعتبار النص نصاً، حيث إن الجملة بجوار أخرى تكون نصاً بل قد يكون النص جملة واحدة، ومن ثم فإن الحبك في نطاق الجملة على صلة وثيقة بحبك النص، أمّا ما هو أوثق صلة بذلك فهو «الحبك في نطاق النص»، حيث إنه يجمع بين جمل النص وأجزائه ليكون نصاً محبوكاً مقبولاً.

(١) البديع في نقد الشعر، ص ٢٣٧.

(٢) نفسه، ص ٥٥.

(٣) النص والخطاب والإجراء، ص ١١٨.

(٤) محمد حماسة، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق، ط ١، ص ١٤٠: ١٣٦.

(٥) انظر تفصيل «الحبك في نطاق الجملة»: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط ٣، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ص ١٩٩: ١٩١.

أنواع العلاقات التي تؤدي إلى حبك النص^(١):

المعاني في النص المحبوك لا بد أن تكون مترابطة، ومن ثمَّ وجب علينا أن نتطرق في حديثنا عن الحبك إلى الحديث عن العلاقات بين المعاني والتي تؤدي إلى حبك النص، وهذه العلاقات كثيرة ومتنوعة، فقد تكون ملحوظة وقد تكون ملفوظة^(٢). وهي تختلف باختلاف النصوص، وقد يتوافر بعضها في نص وبعضها في نص آخر، بمعنى أنه ليس من الضروري أن تتوافر كل العلاقات في النص الواحد حتى يكون محبوكاً، ولكن - على الأقل - يتوافر به بعضها. وسوف نذكر هذه العلاقات إجمالاً على النحو التالي:

- علاقة السببية (التعليل).
- علاقة التفسير أو (التفسير المقدّر).
- علاقة التفصيل بعد الإجمال.
- علاقة الحوار.

(١) انظر بالتفصيل:

- «فان ديك»، علم النص. مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، ١٤١٢ هـ، ٢٠٠١ م، ص ٤٨:٨٥.
- «فان ديك»، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠ م، ص ١٥٦:١٥١.
- تحليل الخطاب، ص ٥٦:٣٢٤.
- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ٣٢:٧٥.
- تمام حسان، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط ٢، ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م، ص ٤١٣ وما بعدها.
- محمد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٨٩ م، ص ٤٠ وما بعدها.

(٢) انظر التفصيل: تمام حسان، العلاقات الملفوظة والعلاقات الملحوظة في النص القرآني، مجلة الدراسات القرآنية، مجلد ٣، العدد ٢، ٢٠٠١ م، يصدرها مركز الدراسات الإسلامية - كلية الدراسات الشرقية، جامعة لندن، ص ١٧٧:١٩٩.

- علاقة الإضراب.
 - علاقة الشرط.
 - علاقة الإنكار.
 - علاقة الاحتباس.
 - علاقة التذييل.
 - علاقة المقابلة.
 - علاقة الإسناد إلى متقدم.
 - علاقة التخصيص.
 - علاقة نظام ما وراء اللغة.
 - علاقة الارتباط الزمني.
 - علاقة الارتباط الافتراضي.
 - علاقة التطابق بين الإجابة والسؤال... إلخ.
- بالإضافة إلى وسائل أخرى تعمل - أيضاً - على حبك النص مثل:
- العنوان.
 - الجملة الأولى.
 - الجملة المحورية (الجملة الهدف)... إلخ.

سنكتفي في هذا الفصل - الحبك - بتناول العلاقات الملحوظة بين المعاني فقط، على أن الربط بين المعاني بروابط ملفوظة تمت دراسته خلال تناولنا للسبك في الفصل الأول، ومن ثمّ تخطت هذه الدراسة علاقات كثيرة؛ لأنها تحتوي على روابط ملفوظة، أما العلاقات الملحوظة بين المعاني فهي كثيرة - أيضاً - نذكر منها أهم

الدراسات العربية التي اشتملت على أكثر وسائل الحبك من منظور الأصوليين واللغويين العرب وهي دراسة: علم المناسبات.

(علم المناسبات)

فعلم المناسبات من العلوم الوثيقة الصلة بالحبك حيث إنَّ «المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها، عام، أو خاص، أو عقلي، أو حسي، أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوهم»^(١). فقد تأمل فصحاء العرب القرآن الكريم كلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، بغية أن يجدوا ثغرة فيه؛ فلم يجدوا فيه كلمة ينوبها موضعها، بل وجدوا حيكاً بهر العقول، وسيكاً أخرس الألسن عن أن تقول. فكل آية من القرآن العظيم ذات حبك لطيف في كلماتها، ومتآزرة ومتآخية مع أخواتها من الآيات السابقة واللاحقة، وكل سورة ذات صلة بما قبلها وما بعدها وكأنَّ آياته وسوره حبات عقد نُظِمت في سلكها أبدع نظام ورُتبت أروع ترتيب.

ولبديع حبك القرآن العظيم الأثر في عقول علمائنا؛ فقد استرعى هذا العلم اهتمام علمائنا - بما لديهم من حواس نصية - فانكبوا عليه يدرسون الروابط المعنوية بين آياته، أملين في الكشف عن سر نظامه وبديع حبكه، ولما كان علم المناسبات توفيقياً، وكان مرده إلى الاجتهاد؛ تباينت مواقف العلماء إزاء هذا العلم؛ فصاروا بين منكر له

(١) الإتيان في علوم القرآن، ٣/ ٣٢٣. ويقول ابن منظور: «النَّبة والنَّبة والنَّبة والنَّبة...»
وتقول: ليس بينها مناسبة، أي مشاكلة لسان العرب، ١/ ٧٥٥ مادة (ن.س.ب).

وبين معترف به^(١). إنَّ علم المناسبات المقبول - في ظنيّ - ذلك العلم المعتدل القائم على التأمل المبنيّ على البرهان المقنع، المنزّه عن هوى أهل البدع والأباطيل، فالحقيقة التي لا يحجدها أحدٌ أن جميع العلماء والمفسرين ليسوا على درجة واحدة من الفطنة والحنطة والنبوغ، وأن عالماً - مهما أوتي من الذكاء الحاد والفراسة - لن يصل إلى القول الفصل في جميع المناسبات بين آي القرآن وسوره، على الوجه الذي أراده الله - عز وجل -.

يتبين لنا - مما سبق - أهمية علم المناسبات أثناء دراستنا التطبيقية للحبك، حيث إن الحبك يتناول العلاقات الملحوظة التي تؤدي إلى حبك النص، وهو جزء من دراسة

(١) فمن المنكرين لعلم المناسبات: عز الدين بن عبد السلام، والشوكاني ومن المؤيدين لعلم المناسبات: أبو بكر النيسابوري، وأبو بكر العربي، والفخر الرازي، وأبو حيان الأندلسي، وغيرهم كثير.
انظر بالتفصيل:

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط ١، بيروت، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م، ١/ ٣٧، ٢٥٧، ٢٧٨.
- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، ط ١، بيروت، لبنان، د. ت، ٣/ ٤٢١، ٤٢٢.
- السيوطي، معترك الأقران في أعجاز القرآن. ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ١/ ٤٤.
- الشوكاني، فتح القدير، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط ١، المنصورة، ١٩٩٤ م، ١/ ١٧١، ١٧٢ الكرمان، أسرار التكرار في القرآن، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت، ص ٦٨.
- محمد بن عمر بن سالم باز مول، علم المناسبات في السور والآيات ويليه مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للسيوطي، المكتبة المكية، ط ١، مكة المكرمة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ص ٣٤.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ٩٧/ ٢.
- عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم، المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مجلد ٢، العدد ٢، ربيع الثاني ١٤٢٦ هـ يونيو ٢٠٠٥ م، ص ٥: ٦.

المناسبة؛ حيث إنها تختص بالعلاقات الملفوظة والملحوظة؛ ومن ثم سنركز في حديثنا عن المناسبة ما يخدم فكرة الحبكة فقط، وهو العلاقات الملفوظة دون الملفوظة التي تنتمي إلى السبك. وكذلك فإن المناسبة تنقسم إلى مناسبة على مستوى السورة المفردة، ومناسبة على مستوى غير سورة، والمناسبة المرتبطة بسبب النزول، ولكن في دراستنا التطبيقية للحبكة سنفصل الحديث:

أولاً، عن المناسبة على مستوى السورة المفردة،

وثانياً، سوف نتناول المناسبة على أكثر من سورة ولكن بشكل موجز؛ لإبراز الحبكة النصي للقرآن كله وعدم اقتصاره على مستوى السورة المفردة؛ لأننا سوف نتناوله بتفصيل أكثر أثناء حديثنا عن «التناص» في الفصل التالي^(١) - إن شاء الله - الذي يُعنى بالعلاقات - في المقام الأول - بين النصوص -، وكذلك سوف نتناول المناسبة المرتبطة بسبب النزول في حديثنا عن «السياق»^(٢) - إن شاء الله -.

وثالثاً، سوف نذكر بعضاً من العلاقات الدلالية (وجوه التناسب بين الآي).

أولاً، المناسبة على مستوى السورة الواحدة:

(١) - المناسبة داخل الآية الواحدة

وحرّينا إذا كنا نتحرى لكل آية مناسبة لما قبلها وما بعدها، وكذلك لكل سورة، فمن باب أولى أن نتحرى هذه المناسبة في الآية الواحدة، فقد تدرس مناسبة الكلمة للآية، أو في أثنائها، أو في آخرها وتسمى فاصلة، وقد تدرس مناسبة الآية التي ذكرت فيها مع مقارنتها بما يشبهها من كلمات في آيات أخرى في السورة نفسها، أو في سورة أو سور أخرى، وسوف يأتي تفصيل ذلك في فصل الموقفية - أو السياق - مما يغني عن ذكره.

(١) فصل التناص، ص ١٦٠: ١٤١.

(٢) فصل السياق، ص ٢٠٥: ١٦١.

هنا. أما مناط بحثنا هنا فهو إدراك المناسبة في ترتيب الأمور المذكورة داخل الآية، ومناسبة فاصلة الآية القرآنية لسياقها من خلال أقوال مفسري القرآن الكريم. ونحب أن نؤكد ما قلناه سابقاً - أنه ليس من الضروري أن تتوافر كل أنواع المناسبات في كل سورة من سور القرآن على حده، ولكن يكفي على الأقل - توافر بعضها حتى يكون نص السورة محبوباً.

(أ-١) المناسبة في ترتيب الأمور المذكورة داخل الآية:

(أ-١-١) سورة النساء :

الآية رقم (١٢، ١١) حسن تقسيم الأمور بين الآيتين:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِلَّذِي الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلَّذِي الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ١٢﴾ (النساء: ١١، ١٢)

يقول أبو حيان: «وانظر إلى حسن هذا التقسيم في الميراث، وسبب الميراث هو الاتصال بالبيت، فإن كان بغير واسطة فهو النسب أو الزوجية، أو بواسطة فهو الكلالة. فتقدم

الأول على الثاني لأنه ذاتي، والثاني عرضي، وآخر الكلالة عنهما لأن الاثنين لا يعرض لها سقوط بالكلية، ولكون اتصاها بغير واسطة، ولأكثرية المخالطة^(١).

الآية رقم (٥٨) مناسبة الترتيب الداخلي:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨).
يقول الرازي: «لما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنه تعالى ذكر الأمر بأداء الأمانة أولاً، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق، فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»^(٢)، ويقول أبو حيان: «لما ذكر تعالى وعيد الكفار أعقب بوعد المؤمنين، وجاءت جملة الكفار مؤكدة بأنه على سبيل تحقيق الوعيد المؤكد، ولم يحتاج إلى ذلك في جملة المؤمنين، وأتى فيها بالسین المشعرة بقصر مدة التنفيس على سبيل تقريب الخير من المؤمن وتبشيره به»^(٣).

الآية رقم (٧٦) مناسبة التقسيم والترتيب الداخلي للآية:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦). يقول أبو حيان: «لما أمر تعالى المؤمنين أولاً بالنفر إلى الجهاد، ثم ثانياً بقوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ثم ثالثاً على طريق الحث والحض بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ أخبر في هذه الآية بالتقسيم أن المؤمن هو الذي يقاتل في سبيل الله، وأن الكافر هو الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، ليبين للمؤمنين فرق ما بينهم وبين الكفار، ويقويهم بذلك

(١) البحر المحيط ٥٩/٤.

(٢) مفاتيح الغيب ١٤٥/١٠.

(٣) البحر المحيط ١٦٩/٤.

الطَّيِّبَتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِنَّ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِنَّ
قَالَتِ ابْنَتُ مُوسَى ادْعُونِي أَسْمِعْ فَأَسْمِعُ لَأَنْزِلَ مَعَهُ بَرَكَةً مِنْ رَبِّهِ أَتُزَكَّى مِنْ
الْمُنَافِقِينَ (الأعراف: ١٥٧). «لأنه الوصف الأخص الأهم، ولأن في تقديمه
زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب، حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة
صادقاً بمن أتى بعد موسى من أنبياء بني إسرائيل، ولأن محمداً ﷺ اشتهر بوصف
النبي الأمي، فصار هذا المركب كاللقب له، فلذلك لا يغير عن شهرته، وكذلك هو
حيثما ورد ذكره في القرآن»^(١).

(٢-أ) مناسبة الفاصلة:

تختم الآية القرآنية وتذيل بما يناسب سياقها، ولا غرو أن تأتي الفاصلة
القرآنية متمكنة في موقعها، وثيقة العلاقة بمعنى الآية، فإن هي بدلت أو حذفت فسد
النظم، وفات المعنى. يقول الزركشي: «واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل
حيث تطرد متأكد جداً ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيراً
عظيماً»^(٢). ويقول في موضع آخر: «اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة:
مقاطع الكلام، وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى
المذكور أولاً وإلا خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن
ذلك لكن منه ما يظهر، ومنه ما يستخرج بالتأمل لليبس»^(٣). وقد فطن السلف إلى
الترابط، والمناسبة المعنوية بين الفاصلة وسياق الآية، وخير دليل على ذلك أنهم كانوا
يتوقعون الفاصلة قبل ذكرها، روي عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال: أملي علي رسول الله -
ﷺ هذه الآية (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) (المؤمنون: ١٢) إلى قوله

(١) التحرير والتنوير، ٤٧٩/٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/٦٠.

(٣) نفسه ١/٧٨.

تعالى: **(خَلْقَاءَ آخَرَ)**، فقال معاذ بن جبل - رضي الله عنه - : **(فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)**، فضحك رسول الله - ﷺ - فقال له معاذ: مم ضحككت يا رسول الله؟ قال: بها ختمت ^(١).

(أ-٢-١) سورة النساء:

الآية رقم (١٢) مناسبة الفاصلة:

• قَالَ تَعَالَى: **(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيكَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيكَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّنُ فَإِنْ كَانَ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ)** (النساء: ١٢). يقول أبو حيان: «وحسن ذلك هنا لأنه لما وصف نفسه بقوله: عليم، ودل على اطلاعه على ما يفعله الموروث في مضارته بورثته في وصيته ودينه، وأن ذكر علمه بذلك دليل على مجازاته على مضارته، أعقب ذلك بالصفة الدالة على الصّحح عمن شاء، وذلك على عادة أكثر القرآن بأنه لا يذكر ما يدل على العقاب، إلا ويردّف بما دل على العفو» ^(٢).

ومناسبة الفاصلة الآية (١٢٧):

• قَالَ تَعَالَى: **(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْثِقُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا**

(١) الطبراني، المعجم الأوسط، ت: طارق بن عوض الله بن محمد أو عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، ط ١، القاهرة، ١٤١٥ هـ، الحديث رقم (٤٦٥٧)، ٣٧٠/١٠.

(٢) البحر المحيط ٥٨/٤.

مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (النساء: ١٢٧). يقول أبو حيان: «لما تقدم ذكر النساء، ويتامى النساء، والمستضعفين من ولدان، والقيام بالقسط، عقب ذلك بأنه تعالى يعلم ما يفعل من الخير بسبب من ذكر، فيجازي عليه بالثواب الجزيل. واقتصر على ذكر فعل الخير لأنه هو الذي رغب فيه، وإن كان - تعالى - يعلم ما يفعل من خير ومن شر، ويجازي على ذلك بثوابه وعقابه»^(١).

رقم (١٣٠) مناسبة الفاصلة:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٣٠) يقول أبو حيان: «ناسب ذلك ذكر السعة، لأنه تقدم من سعته. والواسع عام في الغنى والقدرة والعلم وسائر الكمالات. وناسب ذكر وصف الحكمة، وهو وضع الشيء موضع ما يناسب، لأن السعة ما لم تكن معها الحكمة كانت إلى فساد أقرب منها للصالح»^(٢).

(أ-٢-٢) سورة الأعراف:

رقم (٢٨) مناسبة الفاصلة:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَبَاءَةً وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٨). (أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن مبني أمرهم على الجهل المفروض انتهى^(٣).

(١) البحر المحيط، ٤/ ٢٨٢.

(٢) نفسه، ٤/ ٢٨٦.

(٣) نفسه، ٥/ ٣٣١.

رقم (١٢٧) مناسبة الفاصلة:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَيَهْلِكَ قَالَ سَتَقِيلُ آيَاتُهُمْ وَلَسْتُ بِمُتَّبِعٍ لَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٧). وناسب قوله (وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) لقوله تعالى: (قَالَ سَتَقِيلُ آيَاتُهُمْ وَلَسْتُ بِمُتَّبِعٍ لَهُمْ)، يقول الألوسي: إن هذا من فرعون بيان؛ لأنهم لا يقدرُونَ على أن يفسدوا في الأرض، وإيذان بعدم المبالاة بهم، وأن أمرهم فيما بعد كأمرهم فيما قبل، وأن قتلهم عبث لا ثمرة فيه، وأنه من الأسلوب الحكيم وإن صدر من الأحق، وأن الجملة الاسمية كالتذييل لما قبلها فافهم^(١).

رقم (١٦٧) مناسبة الفاصلة:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكَ رَبُّكَ لِتَبْعَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأعراف: ١٦٧). وإذ تشير الآية إلى وعيد الله لليهود بأن يسلط عليهم عدوهم كلما نقضوا ميثاق الله تعالى، وتشير كذلك إلى وعده لهم بإنجائهم إذا تابوا من ذلك واتبعوا الإسلام^(٢). ولذلك ناسب أن تختم الآية بهاتين الجملتين ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المتوافقين مع المعنى الذي يسبقها والمؤكد له، فالنقض لميثاق الله تعالى يقابله عقاب الله السريع في الدنيا، والتوبة يقابلها المغفرة والرحمة.

(١) روح المعاني ٢٩/٩.

(٢) التحرير والتنوير ٤٩٧/٥.

(ب) المناسبة بين آيات السورة الواحدة:

يأخذ التناسب بين آيات السورة الواحدة عدة صور:

(ب-١) التناسب بين آيتين متجاورتين.

(ب-١-١) سورة النساء.

الآية رقم (١: ٢) مناسبة آيتين متجاورتين:

• قَالَ تَمَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ حُكِيمًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ١، ٢). ومناسبتها لما قبلها - الآية رقم (٢) - أنه لما وصل الأرحام أتبع باليتامى، لأنهم صاروا بحيث لا كافل لهم، ففارق حالهم حال من له رحم ماسه. وظاهره الأمر بإعطاء اليتامى أموالهم^(١).

الآية رقم (٣٠، ٢٩) مناسبة آيتين متجاورتين:

• قَالَ تَمَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا ظَلَمًا فَنُفِئْهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء: ٢٩، ٣٠) قال الزمخشري: «ذلك إشارة إلى القتل أي: ومن يقدم على قتل النفس عدواناً وظلماً لا خطأ ولا اقتصاصاً انتهى»^(٢)، ويقول أبو حيان: «الإشارة بذلك إلى ما وقع النهي عنه في هذه الجملة من أكل المال بالباطل، وقتل النفس. لأن النهي عنهما جاء متسقاً مسروداً، ثم ورد الوعيد حسب النهي»^(٣). وذهب الطبري من قبل: «إلى أن

(١) البحر المحيط، ١٢/٤.

(٢) الكشاف، ٥٣٤/١.

(٣) البحر المحيط، ١١٠/٤.

ذلك إشارة إلى ما سبق من النهي الذي لم يقترن به وعيد وهو من قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُوا عَنْهُنَّ﴾ (النساء: ١٩) إلى هذا النهي الذي هو ولا تقتلوا أنفسكم، فأما ما قبل ذلك من النهي فقد اقترن به الوعيد^(١)

ويرى الباحث رأي الزمخشري وأبي حيان مخالفة لما ذهب إليه الطبري؛ وذلك لأن كل جملة قد استقلت بنفسها، ولا يظهر لها تعلق بما بعدها إلا تعلق المناسبة.

الآية رقم (٥٦: ٥٧) مناسبة آيتين متجاورتين:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا فَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ (النساء: ٥٦، ٥٧). ومناسبة هذه الآية (٥٧) لما قبلها أنه سبحانه - لما ذكر تعالى وعيد الكفار أعقب بوعد المؤمنين، وجاءت جملة الكفار مؤكدة بأن على سبيل تحقيق الوعيد المؤكد، ولم يحتاج إلى ذلك في جملة المؤمنين، وأتى فيها بالسين المشعرة بقصر مدة التنفيس على سبيل تقريب الخير من المؤمن وتبشيره به^(٢).

رقم (١٣٥، ١٣٦) مناسبة آيتين متجاورتين:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٣٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١٣٥﴾ (النساء: ١٣٥، ١٣٦) مناسبة لما قبلها الآية (١٣٥) أنه - تعالى - لما

(١) الطبري، ٨/ ٢٣٠.

(٢) البحر المحيط ٤/ ١٦٩.

أمر المؤمنين بالقيام بالقسط، والشهادة لله، بين أنه لا يتصف بذلك إلا من كان راسخاً
القدم في الإيمان بالأشياء المذكورة في هذه الآية فأمر بها^(١).
(ب-١-٢) سورة الأعراف:

رقم (٢: ٣) مناسبة آيتين متجاورتين:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِلسُّنْدِ بِهِ. وَذَكَرَ
لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا دُورَهُ أَوْلِيَاءَ عَلَيْهِ مَا
تَدَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٢، ٣). ومناسبتها لما قبلها الآية (٣)، أنه لما ذكر تعالى أن هذا
الكتاب أنزل إلى الرسول أمر الأمة باتباعه وما أنزل إليكم يشمل القرآن والسنة لقوله:
﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، ونهاهم عن ابتغاء أولياء من دون الله
كالأصنام والرهبان والكهّان والأخبار والنار والكواكب وغير ذلك^(٢). ويقول
الآلوسي: «ولما تقدم - سبحانه - إليه - ﷺ - في أمر الإنذار والإذكار بالكتاب، تقدم إلى
أتباعه فأمرهم باتباعه، ونهاهم عن اتباع أهل الضلال، وما يوحى إليهم أولياءهم من
زخارفهم بعد أن أخبر بكونه ذكرى أنه سبب لعلو شأنهم وعز سلطانهم، فقال ملتفتاً
إليهم مقبلاً جلاله عليهم (اتبعوا) أي: حملوا أنفسكم حملاً عظيماً بجهد ونشاط على اتباعه،
(وما أنزل إليكم) أي: قد خصصتم به دون غيركم فاشكروا هذه النعمة، (من ربكم) أي:
الذي أحسن إليكم، (ولا تتبعوا)، ولعله عبر بالافتعال إيحاءً إلى أن ما كان دون علاج - بل
هفوة وينوع غفلة - في محل العفو، (من دونه) أي: دون ربكم، (أولياء) أي: من الدين
نهيناكم عنهم في الأنعام وبيننا ضررهم لكم من شياطين الإنس والجن، وعدم إغنائهم وأن
الأمر كله لربكم»^(٣).

(١) البحر المحيط، ٢٩٣/٤.

(٢) نفسه، ٣٠٩/٥.

(٣) التحرير والتنوير، ١٥/٨.

رقم (١٨٧: ١٨٨) مناسبة آيتين متجاورتين،

• قَالَ تَعَالَى (يَسْتَوُونَ عَنِ الشَّعَرِ أَبَدَ مُهْمَتَهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا هَدًى رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا يُوقِنَ إِلَّا
مُؤْتَقِنٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَنَةً يُسَلِّتُكَ فَالَّذِ كَذَّبَ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا هَدًى
رَبِّي وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ٥ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ
كُنْتُ أَظْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْغَيْبِ وَمَا مَسْنَى الشُّبُهَاتِ إِنَّمَا لَا تَدِيرُ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (الأعراف: ١٨٧، ١٨٨). ووجه مناسبتها - الآية (١٨٨) - لما قبلها ظاهر
جداً، وهذا من عليه السلام إظهار للعبودية والشفاء عن ما يختص بالربوبية من القدرة
وعلم الغيب، ومبالغة في الاستسلام، فلا أملك لنفسي اجتناب نفع، ولا دفع ضرر
فكيف أملك علم الغيب^(١).

رقم (٢٠٥: ٢٠٦) مناسبة آيتين متجاورتين

• قَالَ تَعَالَى (وَأَذْكُرُكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) ٥ إِذَا الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ
يَسْجُدُونَ (الأعراف: ٢٠٥، ٢٠٦). ولما أمر - تعالى - بالذكر ورغب في المواظبة
عليه ذكر من شأنهم ذلك فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة: الأول: نفي الاستكبار عن
عبادته، وذلك هو إظهار العبودية، ونفي الاستكبار هو الموجب للطاعات كما أن
الاستكبار هو الموجب للعصيان؛ لأن المستكبر يرى لنفسه شرفاً ومزية فيمنعه ذلك
من الطاعة، الثاني: إثبات التسبيح منهم له - تعالى - وهو التزويه والتطهير عن جميع ما
لا يليق بآلته المقدسة، والثالث: السجود له^(٢).

(١) تحرير والتحرير، ٢/٦.

(٢) عه، ٢/٦.

(ب-٢) مناسبة بين عدة آيات متجاورة:

(ب-٢-١) سورة النساء:

الآية رقم (٢٩) مناسبة لما قبلها (١-٢٨)

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩). ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه - تعالى - لما بين كيفية التصرف في النفوس بالنكاح، بين كيفية التصرف في الأموال الموصلة إلى النكاح، وإلى ملك اليمين، وأن المهور والأثمان المبذولة في ذلك لا تكون مما ملكت بالباطل، والباطل هو كل طريق لم تبحه الشريعة، فدخل فيه: السرقة، والخيانة، والغصب، والقمار، وعقود الربا، وأثمان البياعات الفاسدة، فدخل فيه بيع العريان وهو: أن يأخذ منك السلعة ويكري الدابة ويعطي درهماً مثلاً عرباناً، فإن اشترى، أو ركب، فالدرهم من ثمن السلعة أو الكراء، وإلا فهو للبائع. فهذا لا يصح ولا يجوز عند جماهير الفقهاء، لأنه من باب أكل المال بالباطل^(١).

رقم (٨٤) مناسبة لما قبلها من الآيات (٧٧-٨٣):

• قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكُفَّ بِأَمْسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (النساء: ٨٤). هي: أنه لما ذكر في الآيات قبلها تشييطهم عن القتال، واستطرد من ذلك إلى أن الموت يدرك كل أحد ولو اعتصم بأعظم معتصم، فلا فائدة في الهرب من القتال، وأتبع ذلك بما أتبع من سوء خطاب المنافقين للرسول - ﷺ - وفعلهم معه من إظهار الطاعة بالقول وخلافها بالفعل، ويكتهم في عدم تأملهم ما جاء به الرسول من القرآن الذي فيه كتب عليهم القتال، عاد إلى أمر القتال. وهكذا عادة كلام العرب تكون في شيء ثم تستطرد من ذلك إلى شيء آخر له به مناسبة وتعلق، ثم تعود إلى ذلك الأول^(٢).

(١) التحرير والتوير ١٠٧/٤.

(٢) نفسه ٢١١/٤.

رقم (١٤٤) مناسبة لما قبلها من آيات (٨٨-١٤٣):

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْئَيْدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَهُكُمْ مُسْلِمًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٤٤). لما كان هذا الوصف من أوصاف المنافقين، وتقدم ذمهم بذلك، نهى الله - تعالى - المؤمنين عن هذا الوصف^(١).
(ب-٢-٢) سورة الأعراف:

رقم (٢٦) مناسبة لما قبلها من الآيات (١١-٢٥):

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنَىءُ آدَمَ قَدْ أَرْكَنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوْرِي سَوْءَ بَيْتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٦). مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه - تعالى - لما ذكر قصة آدم وفيها ستر السوءات، وجعل له في الأرض مستقراً ومتاعاً، ذكر ما امتن به على نبيه، وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يوارى السوءات والرياش الذي يمكن به استقرارهم في الأرض واستمتاعهم بما خولهم^(٢).

رقم (١٠٣) مناسبة لما قبلها من الآيات (٥٩-١٠٢):

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٣). لما قص الله تعالى على نبيه أخبار نوح، وهود، وصالح، ولوط وشعيب، وما آل إليه أمر قومهم، وكان هؤلاء لم يبق منهم أحد، أتبع بقصص موسى، وفرعون، وبني إسرائيل، إذ كانت معجزاته من أعظم المعجزات، وأتمته من أكثر الأمم تكذيباً وتعتاً واقتراحاً وجهلاً، وكان قد بقي من اتباعه عالم وهم اليهود، فقص الله علينا قصصهم؛ لنعتبر ونتعظ ونترجر عن أن نشبه بهم، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أن بين موسى وشعيب - عليهما السلام - مصاهرة - كما حكى الله في كتابه ونسب -؛ لكونهما من نسل إبراهيم^(٣).

(١) التحرير والتنوير، ٤/٣٠٣.

(٢) نفسه، ٥/٣٢٧.

(٣) نفسه، ٥/٤١٠.

رقم (١٨٧) مناسبة لما قبلها من الآيات (١٨٠ - ١٨٤):

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفَّاءُ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٧). ومناسبتها لما قبلها أنه: لما ذكر التوحيد والنبوة والقضاء والقدر أتبع ذلك بذكر المعاد وأيضاً فلما تقدم قوله: ﴿وَأَن عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، وكان ذلك باعثاً على المبادرة إلى التوبة، أتى بالسؤال عن الساعة؛ ليعلم أن وقتها مكتوم عن الخلق فيكون ذلك سبباً للمسارعة إلى التوبة^(١).

(ب-٣) المناسبة بين القصص القرآني:

القصص القرآني محور أساسي في النص المكي لا المدني - وإن لم يخل القرآن المدني من القصص القرآني مثل: سورة البقرة وآل عمران وغيرها... - لذا نجد سورة النساء قد خلت من القصص في حين نجد سورة الأعراف تزخر بالقصص القرآني؛ لأغراض تتفق مع مقاصد القرآن - عامة كما سبق ذكره - ومقاصد السورة نفسها بما لها من خصوصية - كما يتضح فيما يلي:

فسورة الأعراف تدور حول مجموعة من المقاصد الفرعية - كما سنجد في فصل القصد إن شاء الله - وهذه المقاصد الفرعية يجمعها موضوع رئيس واحد وهو قضية التوحيد - شأن القرآن الكريم والسور المكية خاصة - والإتباع، ويظهر هذا الموضوع من خلال تجسيد الصراع الدائم بين الحق والباطل، وكيف أن الباطل يؤدي إلى الفساد في الأرض لعدم توحيده لله وعدم اتباعه لهدي الرسل، وفي قصص كل الأنبياء الذين ورد ذكرهم في السورة يظهر لنا الصراع بين الخير والشر، وبيان كيد إبليس لأدم وذريته.

(١) التحرير والتنوير، ٤/٦.

النموذج الأول: من صراع الحق والباطل:

قصة آدم مع ابليس الآيات (١١-٣٠). يبين لنا تعالى في هذه القصة كما في باقي السورة كيف أن الحق يتصر في النهاية على الباطل،

• قَالَ تَمَالَى: ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِمُرْهَرٍ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَكُمَا سُوءُ بَيْتِكُمَا وَلَوْحًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْنَاهُمَا رَجِعَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ لَكُمَا فَكُنَّا مِنَ الْغُرُورِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ إِلَى مَعْصِيَتِهِ، فَأَنْزَلْنَاهُمَا إِلَى مَرْتَبَةِ دَنِيَاءٍ^(١). وفي وصف إغواء الشيطان لآدم؛ يبين لنا معاً كيف أن الذين لا يحسمون أمورهم ومواقفهم كأنهم معلقون في البئر لا هم هالكون، ولا هم ناجون.

النموذج الثاني: عرض يوم القيامة وقصة أصحاب الأعراف: (الآيات ٤٤-٥١).

تذكر الآيات قصة أصحاب الأعراف الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم وبقوا على الأعراف ينتظرون حكم الله فيهم. والأعراف قنطرة عالية على شكل عرف بين الجنة والنار، والمكث عليها مؤقت؛ لأن في الآخرة الناس إما في النار أو في الجنة^(٢). وأصحاب الأعراف كانوا يعرفون الحق والباطل لكنهم لم يحسموا أمرهم فحبسوا بين الجنة والنار حتى يقضي الله فيهم

النموذج الثالث: عرض الصراع بين الحق والباطل عبر قصص الأنبياء على مر العصور:

فقد عرضت الآيات قصة كل نبي مع قومه والصراع بين الخير والشر وكيف أن الله ينجي نبيه ومن اتبعه على عدوهم من خلال الآيات (٥٩-١٧١).

(١) الظلال ٣/ ٢٠١.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ت: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ط ٢، الرياض، ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م، ٤١٩/١.

ويحسن بنا أن نذكر ما قاله صاحب الظلال تلخيصاً لموكب الرسل من خلال القصص القرآني في سورة الأعراف، يقول: «وما نحن أولاء في هذه السورة نلتقي بموكب الإيمان، يرفع أعلامه رسل الله الكرام: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.. ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم - بتوجيه الله وتعليمه - إنقاذ الركب البشري من الهاوية التي يقوده إليها الشيطان، وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كل زمان. كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال. وبين الحق والباطل، وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والإنس.. ثم نشهد مصارع المكذبين في نهاية كل مرحلة، ونجاة المؤمنين، بعد الإنذار والتذكير»^(١).

- قصة نوح مع قومه: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (الأعراف: ٦٤).
- قصة هود: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٧٢).
- قصة صالح: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحْتَبُونَ النَّصِيحَةَ﴾ (الأعراف: ٧٩).
- قصة لوط: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (الأعراف: ٨٣).
- قصة شعيب: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الأعراف: ٨٨).
- قصة موسى وفرعون والسحرة: الآيات توضح كيف حسم السحرة موقفهم من نبي الله موسى بعدما رأوا الحق وأخذوا موقفاً واضحاً من فرعون وأتباعه

وَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ
لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ۝ وَمَا نُنْقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْتَ مَا مَنَّا
بِأَيِّتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝﴾ (الأعراف: ١٢٤ -
١٢٦)، وتردد بني إسرائيل باتباع موسى قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
اسْتَوْعِبُوا لِلَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ۝ قَالُوا أَوَإِذَا نَزَلْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ
رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عِدْوَكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ۝﴾ (الأعراف: ١٢٨ - ١٢٩).

● قصة أهل السبت: وكيف تحايَلوا على الله؛ لأنهم لم يحسموا مواقفهم - في قضية
الصراع بين الحق والباطل - بالتسليم الكلي لله وتطبيق ما يعتقدونه عملياً حتى
يكونوا من الفائزين، لكنهم كانوا يعتقدون شيئاً ويبارسون شيئاً آخر، قَالَ تَعَالَى:
﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي
السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَكَتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ إِلَّا
تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝﴾ (الأعراف: ١٦٣)

إذن أستطيع القول إن هذه القصص بينها مناسبة وتربطها روابط ووشائج
قوية؛ لتخدم المحور الرئيس للسورة^(١) ومقررة لحقيقة الصراع بين الحق والباطل، ومن
ثم يتحقق الحبل النصي لسورة الأعراف من خلال التناسب بين القصص القرآني.

(١) لمعرفة المحور الرئيس لسورة الأعراف، انظر بالتفصيل: فصل القصد والقبول، ص ٢٣٠: ١٩٠.

(ج) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتاحية السورة تكون كالمقدمة، وخاتمتها تكون كالتلخيص؛ لما عرض في السورة، وكما أن لبراعة الاستهلال في المقدمة أثراً في جذب اهتمام السامع، فإن لختام السورة وقعاً حسناً في النفس لا يقلُّ عن براعة الاستهلال، يقول الزركشي: «وهي - أي خواتم السور - مثل الفواتح في الحسن؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع؛ فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيدان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوف النفس إلى ما يذكر بعد»^(١).

(ج-١) مناسبة خاتمة النساء لافتتاحيتها:

يقول الرازي: «اعلم أنه - تعالى - تكلم في أول السورة في أحكام الأموال، وختم آخرها بذلك؛ ليكون الآخر مشاكلاً للأول»^(٢). ويقول أبو حيان: «وقد ختمت هذه السورة بهذه الآية - آية الكلاله رقم (١٧٦) -، كما بدئت أولاً بأحكام الأموال في الإرث وغيره، ليشاكل المبدأ المقطع، وكثيراً ما وقع ذلك في السور»^(٣). ويقول السيوطي: «افتتحت بذكر بدء الخلق والولادة، وختمت بمثل ذلك»^(٤).

• ففاتحة سورة النساء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، والختام الذي يقصده السيوطي قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذَ الْكُتُبُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَا تَقُولُوا

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ١٨٢.

(٢) مفاتيح الغيب ١١/ ١٢٢.

(٣) البحر المحيط ٣/ ٤٢٢.

(٤) السيوطي، مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، ت: محمد بن عمر بن سالم بازمول،

المكتبة المكية، ط ١، مكة المكرمة، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م، ص ١٢٨.

(ج) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتماتها

افتتاحية السورة تكون كالمقدمة، وخاتماتها تكون كالتلخيص؛ لما عرض في السورة، وكما أن لبراعة الاستهلال في المقدمة أثراً في جذب اهتمام السامع، فإن لختم السورة وقعاً حسناً في النفس لا يقل عن براعة الاستهلال، يقول الزركشي: «وهي - أي خواتم السور - مثل الفواتح في الحسن؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع؛ فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيدان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوف النفس إلى ما يذكر بعده»^(١).

(ج-١) مناسبة خاتمة النساء لافتتاحيتها

يقول الرازي: «اعلم أنه - تعالى - تكلم في أول السورة في أحكام الأموال، وختم آخرها بذلك؛ ليكون الآخر مشاكلاً للأول»^(٢). ويقول أبو حيان: «وقد ختمت هذه السورة بهذه الآية - آية الكلاله رقم (١٧٦) -، كما بدئت أولاً بأحكام الأموال في الإرث وغيره، ليشاكل المبدأ المقطع، وكثيراً ما وقع ذلك في السور»^(٣). ويقول السيوطي: «افتتحت بذكر بدء الخلق والولادة، وختمت بمثل ذلك»^(٤).

• ففاتحة سورة النساء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْا وَخُلِقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَيْنَهُمَا رِجَالٌ كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، والختم الذي يقصده السيوطي قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْقَوْلُ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَا تَقُولُوا

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ١٨٢.

(٢) مفاتيح الغيب ١١/ ١٢٢.

(٣) البحر المحيط ٣/ ٤٢٢.

(٤) السيوطي، مرامد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، ت: محمد بن عمر بن سالم بازمول، المكتبة المكية، ط ١، مكة المكرمة، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م، ص ١٢٨.

ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (النساء: ١٧١). ويقول سيد قطب: وهكذا تختم السورة التي بدأت بعلاقات الأسرة، وتكافلها الاجتماعي؛ وتضمنت الكثير من التنظيمات الاجتماعية في ثناياها.. تختم بتكملة أحكام الكلالة - وهي على قول أبي بكر - عليه السلام - وهو قول الجماعة: ما ليس فيها ولد ولا والد، وقد ورد شطر هذه الأحكام في أول السورة، وهو الشطر المتعلق بوراثة الكلالة من جهة الرحم حين لا توجد عصبه... فالآن يستكمل الشطر الآخر في وراثة الكلالة...^(١). حيث يقول - عز وجل - في الشطر الأول:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدْمُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ غَيْرِ مُضَكَرٍ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٢)، وفي الشطر الثاني في آخر السورة قَالَ تَعَالَى: ﴿تَسْقُطُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرَأُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦).

(ج-٢) مناسبة خاتمة الأعراف لافتتاحيتها:

يقول البقاعي: «وقد رجع آخر السورة في الأمر باتباع القرآن إلى أولها أحسن رجوع، ووصف المقربين بعدم الاستكبار والمواظبة على وظائف الخضوع إلى وصف إبليس بعصيان أمر الله في السجود لآدم - عليه السلام - على طريق الاستكبار أي التفات، بل شرع في رد المقطع على المطلع حين أتم قصص الأنبياء»^(٢). ويؤكد

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٣٠٤.

(٢) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، ط ٢، القاهرة،

١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م، ٣ / ١٨٠.

الأستاذ: سيد قطب نفس المعنى الذي ذهب إليه البقاعي فيقول: «...إنه هذا القرآن الذي يقول عنه العليم الخبير: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٣ - ٢٠٤). ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهم الذين يجدون هذا كله في هذا القرآن الكريم؛ ولأن هذا هو القرآن يجيء مباشرة في السياق هذا التوجيه للمؤمنين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فتختتم به السورة التي بدأت بالإشارة إلى هذا القرآن، قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي مَكَدٍ مِنْهُ لِنُبَذَرَهُ بِهِ وَذَكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٢).

مما سبق يتضح لنا تحقق الحبك النصي - لسورتي النساء والأعراف - من خلال خاتمتهما وفتحتهما أحسن حبك، وأروع اتساق، كما أنه واضح جلي لا يحتاج إلى عناء كثير.

(د) المناسبة بين اسم السورة ومضمونها:

فالسورة تبدأ من اسمها، ثم مقدمتها، ثم مضمونها، ثم خاتمتهما. وذلك كله عبر آيات متعددة الفواصل قد تتفق - وذلك في الغالب - وقد تختلف؛ ف«عنوان النص بصفة عامة، أول ما يواجهه متلقي النص أو محله ومن ثم فهو يحتل مكانة عالية في التحليل النصي؛ فالنص قد يكون مكملًا للعنوان، أو موضحًا له، ولا شك في أنه يكون مفصلاً للإجمال الكائن فيه، وكذلك اسم السورة؛ إذ إنه يمثل عنوانها»^(١). ومن ثم لا يحتاج إثبات المناسبة بين اسم السورة ومضمونها إلى تأويلات كثيرة، وهذا النمط يمثل أشهر الأنماط تحقيقاً للحبك النصي عبر المناسبة.

(د-١) مناسبة اسم سورة النساء لمضمونها:

يقول ابن عاشور: «سميت هذه السورة في كلام السلف سورة النساء؛ ففي صحيح البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء»

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ١٠٦/٢.

إلا وأنا عنده»^(١). وكذلك سميت في المصاحف وفي كتب السنة وكتب التفسير ولا يعرف لها أسم آخر...، ووجه تسميتها بإضافتها إلى النساء؛ أنها افتتحت بأحكام صلة الرحم ثم بأحكام تخص النساء، وأن بها أحكاماً كثيرة من أحكام النساء^(٢): الأزواج والبنات وختمت بأحكام تخص النساء^(٣).

وأهم ما يؤكد شدة الارتباط بين اسم السورة - النساء - ومضمونها؛ أن هذه الأحكام الكثيرة - السالفة الذكر - لم تقتصر - على مقطع واحد معين من مقاطع السورة، ولكن تخللت السورة كلها من بدايتها - الآيات من (١: ٣٥) - مروراً بوسطها - الآيات من (١٢٧: ١٣٠) - حتى نهايتها - الآية (١٧٦) -.

(د-٢) مناسبة اسم سورة الأعراف لمضمونها؛

وكذلك سورة الأعراف نجد أن المناسبة بين اسم السورة ومضمونها واضح لا يحتاج - أيضاً - إلى عناء كثير؛ وذلك من خلال ذكر موقف وقصة «أصحاب الأعراف»، وهم بين الجنة والنار، وموقف الفريقين الأخيرين - أيضاً -؛ فريق أهل الجنة، وفريق أهل النار، وهذا ما وضحته الآيات (٤٤: ٥٣). هذا مع ملاحظة أن هذه القصة ما هي إلا حلقة من حلقات الصراع بين الحق والباطل التي اشتملت: قصصاً أخرى - كما ذكرنا سلفاً - امتدت في فضاء نص السورة من أولها - قصة إبليس - لعنه

(١) انظر:

• البخاري: صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، الناشر: دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢ هـ، حديث رقم (٤٩٩٣)، ٦/ ١٨٥.

• النسائي: السنن الكبرى، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، حديث رقم (٧٩٣٣)، ٧/ ٢٤٦.

(٢) ومنها: أحكام البتامة - وخاصة النساء منهم - وأحكام الوصية والميراث، وأحكام الأنكحة والخلع والصداق... إلخ.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٨٧٩.

الله - مع آدم وحواء - إلى آخرها - قصة موسى وفرعون والسحرة وبني إسرائيل - مروراً بقصص الأنبياء مع أقوامهم، نوح، وعاد، وصالح، ولوط، وشعيب....

يقول الألوسي: «وجه تسميتها؛ أنها ذكر فيها لفظ الأعراف بقوله تعالى :-

﴿ رَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا سِيسَمْنَهُمْ وَنَادَوْا أَعْصَبَ الْجَنَّةِ أَنْ مَلَئَتْ عَلَيْكُمْ لَمْ

يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٦). ولم يذكر في غيرها من سور القرآن؛ ولأنها ذكر

فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة ولم يذكر في غيرها من السور بهذا اللفظ، ولكنه

ذكر بلفظ (سور) في قوله: ﴿ فَضْرِبَ يَتْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ

قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (الحديد: ١٣) في سورة الحديد^(١). وافتتحت هذه السورة بالتنويه

بالقرآن، والوعد بتيسيره على النبي - ﷺ -؛ ليلغنه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا

يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن

رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا دُورِيَّةَ أَقْوِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢-٣)، فكان افتتاحها

كلاماً جامعاً وهو مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد؛ فهو افتتاح وارد على

أحسن وجوه البيان، وأكملها شأن سور القرآن^(٢).

(١) التحرير والتنوير ١ / ١٤٨٠.

(٢) نفسه، ١ / ١٤٨١.

ثانياً، العلاقات الدلالية (وجوه التناسب بين الآي)،

قد يختفي الرابط اللفظي بين الآيات، وذلك لقوة الارتباط المعنوي بينها، فيصير حال الآية مع جاراتها حال الصفة مع الموصوف، أو التأكيد مع المؤكد، يقول عبد القاهر الجرجاني: «واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصل معناه بالاسم قبله، فيستغني بصلة معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه؛ وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكد؛ كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها، ومبينة لها. وكانت إذا حصلت لم تكن شيئاً سواها، كما لا تكون الصفة غير الموصوف والتأكيد غير المؤكد»^(١). يفهم من هذا النص أن هناك نوعين من الروابط: روابط سياقية-شكلية-كحروف العطف، وروابط دلالية تتمثل في الربط المعنوي أو العلاقات المنطقية بين الجمل «هذه العلاقات الدلالية متنوعة ومتجددة مع النصوص؛ بحيث يكاد كل نص يتكرر من الوسائل التي تحقق تماسكه الدلالي، وهذه العلاقات الدلالية هي التي تساعد على ربط الإشارات في النص ببعضها، وتعين على تطورها وأسلوب تحولها، حتى تكون في النهاية، خيطاً قوياً يربط النص رياطاً خفيفاً يحتاج إلى تلمظ لكشفه»^(٢).

إذن ينظر إلى العلاقات التي تجمع أطراف النص دون وسائل حرفية أو شكلية على أنها علاقات دلالية، وقد ذكر الزركشي والسيوطي: «أنه حين لا تكون الآية معطوفة على ما قبلها، فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢٢٧.

(٢) محمد حماسة، الإبداع الموازي، ص ٢٦.

مؤذنة بالربط»^(١). وهذه العلاقات الدلالية التي تعتمد على قرائن معنوية تسمى عند تمام حسان: «العلاقات الملحوظة»^(٢)، كما ذكرنا في بداية هذا الفصل. وفيما يلي أهم هذه العلاقات الدلالية:

(أ) علاقة الحوار

علاقة الحوار هي إحدى العلاقات الملحوظة التي تعمل على حبك النص دون رابط لفظي، ومن أبرز الشواهد نجدها في سورة الأعراف وذلك؛ لأن سورة النساء يغلب عليها طابع التكاليفات والتشريعات - شأن السور المدنية - ومع ذلك لم تخل سورة النساء من الحوار بين الملائكة والذين ظلموا أنفسهم، الآية (٩٧) النساء. وتتضح هذه العلاقة أكثر في سورة الأعراف من خلال:

- الحوار بين رب العزة - جل وعلا - وآدم وإبليس الآيات من (١١: ٣٥) الأعراف.
- الحوار بين أهل النار، الآيات من (٣٧: ٣٩) الأعراف.
- الحوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الأعراف، الآيات من (٤٤: ٥١) الأعراف.
- الحوار بين رسل الله وأقوامهم:

- سيدنا نوح، الآيات من (٦٣: ٥٩) الأعراف.
- سيدنا هود، الآيات من (٧١: ٦٥) الأعراف.
- سيدنا صالح، الآيات من (٧٩: ٧٣) الأعراف.
- سيدنا لوط، الآيات من (٨٢: ٨٠) الأعراف.
- سيدنا شعيب، الآيات من (٩٣: ٨٥) الأعراف.

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٦، والإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٠٩.

(٢) تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م، ص ٢٩٩.

- سيدنا موسى والسحرة وفرعون، الآيات من (١٠٤ : ١٧٠) الأعراف.
- يتبين لنا مما سبق أن علاقة الحوار تكون كل جملة فيها رداً على جملة أخرى سابقة عليها، ومثيرة لأخرى لاحقة بها؛ فينتج عن ذلك حبك أجزاء النص بعضها ببعض.

(ب) علاقة الإلزام

بينما نجد أن علاقة الحوار أكثر وضوحاً في سورة الأعراف نجد أن علاقة الإلزام أكثر وضوحاً في سورة النساء؛ وذلك للطابع التشريعي للصور المدنية عامة والنساء خاصة - كما ذكرنا من قبل - . وعلاقة الإلزام من العلاقات الملحوظة، ويقصد بها: «استعمال عبارات خبرية، أو مصادر منصوبة، أو نحو ذلك مما يفهم منه الإلزام بالحكم»^(١). ويجري التعبير عن هذه العلاقة في الأغلب الأعم بعبارة: ﴿يَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، أو ﴿كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٢)، وذلك من خلال الآيات الآتية:

- تلك حدود الله في قوله تعالى: ﴿يَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (النساء: ١٣).

- كتاب الله عليكم في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَاضِيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٢٤).

(ج) علاقة الإجمال والتفصيل

الإجمال والتفصيل: الإتيان في أول الكلام، أو آخره بمعنى غير مستقل بالفهم، يتوقف فهمه على تفسيره، أو تفصيله بما بعده، أو بما قبله، ومن الشواهد على ذلك:

(١) البيان في روائع القرآن، ١/ ٤١٦.

(٢) اجتهادات لغوية، ص ٣٠٦.

- قَالَ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِيتَتْ لَهُمْ رَحْمَتُ اللَّهِ وَإِلَهُهُمُ الْمَوْتُ ۚ فَأِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النساء: ١٣٨-١٣٩).

فقد فصلت الآية (١٣٩) صفة المنافقين في الآية السابقة، يقول الله لنبيه: يا محمد، بشر المنافقين الذين يتخذون أهل الكفر بي والإلحاد في ديني أولياء من دون المؤمنين، أي يطلبون عندهم المنعة والقوة، باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان بي؟ يقول: فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم، هم الأذلاء الأقيلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يُعزّز من يشاء ويذل من يشاء، فيعزّزهم ويمنعهم؟^(١)

- قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيُظْلَمُونَ أَلَّا يَدْعُوا هَدًى حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كِتَابَهُمْ وَوَعَدَهُمْ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٦٠). يقول ابن عاشور موضحاً أن الآية قد أجملت عاقبة الذين هادوا على جرائمهم التي سبقت من خلال الآيات السابقة (١٥٩: ١٥٥). «لأن نقض الميثاق، والكفر، وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف، وقولهم على مريم بهتاناً، وقولهم قتلنا عيسى: كل ذلك ظلم. فكانت الجملة الأخيرة بمنزلة الفذلكة لما تقدم، كأنه قيل: فبذلك كله حرّمنا عليهم، لكن عدل إلى لفظ الظلم لأنه أحسن تفنّناً، وأكثر فائدة من الإتيان باسم الإشارة»^(٢).

- قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾

(الأعراف: ١٠١). فقد أجملت الآية القصص السابقة باستخدام اسم الإشارة من خلال قوله - تعالى -: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ فهي جملة مستأنفة استئناف الفذلكة لما قبلها من

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ٣١٩/٩.

(٢) التحرير والتنوير ٨٥/٤.

القصص من قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (الأعراف: ٥٩) ثم قوله تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَتَيْنِ نَبِيًّا﴾ (الأعراف: ٩٤) الآية^(١).

(د) علاقة السببية:

هي إحدى العلاقات الملحوظة التي «تربط بين أجزاء النص، دون أن تعتمد في ذلك على أداة من الأدوات التي تعتمد عليها العلاقة السببية الملفوظة: كـ (فاء السببية، ولام التعليل، أو الباء الدالة على السببية)، وفيها يتقدم المسبب على السبب»^(٢). ومن الشواهد على ذلك:

- قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦). أشارت الآية إلى أن الله تعالى - قد استجاب دعوة المستضعفين وهباً لهم النصر بيد المؤمنين؛ فجنّد الله لهم عاقبة النصر فيه الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله كلام مستأنف سيق لتشجيع المؤمنين وترغيبهم في الجهاد أي المؤمنون إنما يقاتلون في دين الله تعالى...، وفي إعلاء كلمته؛ فهو وليهم وناصرهم لا محالة...، فقاتلوا يا أولياء الله تعالى - إذا كان الأمر كذلك - أولياء الشيطان؛ فانكم تغلبونهم لأن كيد الشيطان كان ضعيفاً في حد ذاته، فكيف بالقياس إلى قدرة الله تعالى^(٣).

- قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ أُولَى الْقُرَى وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاتِلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥). يوضح تمام حسان علاقة

(١) التحرير والتنوير، ٤/ ٣٩٨.

(٢) اجتهادات لغوية، ص ٣٠١.

(٣) روح المعاني ٥/ ٨٤.

السببية في هذه الآية فيقول: «القضية الأولى تتمثل في عدم التساوي بين القاعدين ذوي الاستطاعة من جهة، والمجاهدين من جهة أخرى. عند هذا الحد تبدأ قضية أخرى هي أن الله فضل المجاهدين على القاعدين درجة. فما العلاقة بين هذه القضية وتلك؟ ولماذا جاءت القضية الثانية بعد الأولى دون أن تتقدمها رابطة نحوية؟ هنا يمكن القول إن علاقة القضية الثانية بالأولى تصلح أن تكون علاقة السببية، بمعنى أن الفريقين لا يستويان، لأن الله فضل المجاهدين على القاعدين درجة»^(١).

- قَالَ تَعَالَى: ﴿يَنْهَى عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١). أشارت الآية الكريمة إلى نهى الله - عز وجل - عن الإسراف في المأكل والمشرب وذلك لأنه «مفسدة للجسد مورثة للسقم مكسلة للصلاة...، وأن الله - تعالى - ليبغض الخبر السمين وأن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه»، ويقول الطبري موضحاً علاقة السببية لنهي الله - تعالى - عن الإسراف: «وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، أي: أن الله لا يحب المتعدين حدّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحلّ الله أو حرم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به»^(٢).

- قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (الأعراف: ٦٤). يوضح ابن عاشور علاقة السببية بين تذييل الآية لما قبلها توضيحاً رائعاً فيقول: «وجملة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ تنزل منزلة العلة لجملة (أغرقنا) كما دلّ عليه حرف (إن)؛ لأن حرف (إن) هنا لا يقصد به ردّ الشك والتردد، إذ لا شك فيه، وإنما المقصود من الحرف الدلالة على الإهتمام بالخبر، ومن شأن (إن) إذا جاءت للاهتمام أن تقوم مقام فاء التفریع، وتفيد التعليل وربط الجملة بالتي قبلها»^(٣).

(١) البيان في روائع القرآن، ١/ ٤٠٥.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، ١٢/ ٣٩٥.

(٣) التحرير والتنوير، ٥/ ٣٤٥.

(م) علاقة النقص والإبطال.

هي علاقة ملحوظة تفيد الإضراب عن كلام سابق دون استخدام أداة

الإضراب ومن الشواهد على ذلك:

- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٨). يقول ابن عاشور موضحاً علاقة النقص والإبطال في الآية الكريمة: «فقوله: ﴿قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ نقض لدعواهم أن الله أمرهم بها أي: بتلك الفواحش، وهو ردّ عليهم، وتعليم لهم، وإفاقة لهم من غرورهم؛ لأن الله متصف بالكمال فلا يأمر بما هو نقص لم يرضه العقلاء وأنكروه، فكون الفعل فاحشة كاف في الدلالة على أن الله لا يأمر به؛ لأن الله له الكمال الأعلى، وما كان اعتذارهم بأن الله أمر بذلك إلا عن جهل، ولذلك وبّخهم الله بالاستفهام التوبيخي بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما لا تعلمون أن الله أمر به»^(١).

- قَالَ تَعَالَى: ﴿أَهْتَؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف: ٤٩). يقول الطبري: «قال الله لأهل التكبر عن الإقرار بوحدانية الله، والإذعان لطاعته وطاعة رسله: أيها الجبابرة-الذين كانوا في الدنيا وهم أصحاب النار- أهؤلاء الضعفاء-أصحاب الأعراف- الذين كنتم في الدنيا أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟ قال: قد غفرت لهم ورحمتهم بفضلي ورحمتي، ادخلوا يا أصحاب الأعراف الجنة لا خوف عليكم بعدها من عقوبة تعاقبون بها على ما سلف منكم في الدنيا من الآثام والإجرام، ولا أنتم تحزنون على شيء فاتكم في دنياكم»^(٢).

- قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ (الأعراف: ٧٨). أشارت الآية الكريمة إلى إبطال قول قوم موسى بقوله -تعالى-: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، حيث «أمر

(١) التحرير والتنوير، ٥/ ٢٧٠.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، ١٢/ ٤٧٢.

الله نبيه أن يخبرهم أن كلاً من الحسنة والسيئة إنما هو من عند الله، لا خالق ولا مخترع سواه، فليس الأمر كما زعمتم، فالله - تعالى - وحده هو النافع الضار، وعن إرادته تصدر جميع الكائنات»^(١).

(و) علاقة الملابس

وهي من العلاقات الملحوظة التي تعني: «اتفاق أمرين أو شركتهما في المكان أو الزمان أو كليهما، وهي العلاقة النحوية التي تقوم بين الفعل والحال في نحو: جاء زيدٌ راكباً؛ إذ يتفق المجيء والركوب في المكان والزمان، وإذا كان النحو بما يرصده للحال من الاشتقاق والإعراب والرتبة يجعل الحال علاقة ملفوظة، فإن النص قد يجعل الملابس بين عناصر السياق ملحوظة غير ملفوظة»^(٢)، ومن الشواهد على ذلك:

- قَالَ تَمَالَى: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ أَثْنَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ ضَرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(الأعراف: ١٦٠). يقول تمام حسان: «فهناك علاقة ملابس بين انفجار العيون والعلم بالشارب، ولو دخلت الواو قبل (قد) لكان لدينا جملة حالية بعلاقة ملفوظة»^(٣). وهناك علاقة ملابس -أيضا- بين إنزال المن والسلوى والأكل من الطيبات، والتقدير: قائلين لكم: كلوا من طيبات ما رزقناكم.

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٠١.

(٢) اجتهادات لغوية، ص ٣١٠.

(٣) اجتهادات لغوية، ص ٣١٠.

(ز) علاقة البيان والتفسير

وعلاقة التفسير المقصودة هنا تشير إلى «جملة في النص تكشف عن المقصود بجملة سابقة أو عنصر سابق»^(١)، وعلامة العلاقة التفسيرية «أن يصح تأويلها بعبارة (أي أن المقصود كذا)، فإذا صح هذا التقدير كان ذلك دليلاً على أن الجملة الثانية تفسير لمضمون الولي»^(٢)، ومن الشواهد على ذلك:

- قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصُّلَّةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٤٤ - ٤٥).
يبين لنا الألوسي و موضحاً أن الآية (٤٥) بيان وتفسير للفظ الظالمين في الآية السابقة فيقول: «فالوصول صفة مقررة للظالمين لأن هذا الإعراض لازم لكل ظالم»^(٣).

(ح) علاقة المقابلة

وهي: «أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب» كما قال القزويني^(٤)، والشواهد الدالة على ذلك كثيرة، ومنها:

- قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنفَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٤٦). يقول أبو حيان - موضحاً علاقة المقابلة بين القولين في الآية - : «وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا

(١) اجتهادات لغوية، ص ٣٠٢.

(٢) البيان في روائع القرآن، ١/ ٤٠٩.

(٣) روح المعاني، ٨/ ١٢٣.

(٤) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية،

ط ١، بيروت، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م، ص ٢٥٩.

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ) أي: لو تبدّلوا بالعصيان الطاعة، ومن الطاعة الإيثار بك، واقتصروا على لفظ اسمع، وتبدّلوا براعنا قولهم: وانظرنا، فعدّلوا عن الألفاظ الدالة على عدم الانقياد، والموهمة إلى ما أمروا به، لكان أي: ذلك القول، خيراً لهم عند الله وأعدل أي: أقوم وأصوب^(١).

— قَالَ تَمَالَى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ أَتَكْلِمُونَ) (الأعراف: ٧٥ - ٧٦).
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (الأعراف: ٧٥ - ٧٦).
 يعني جل ثناؤه بقوله: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ)، قال الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباع صالح والإيمان بالله وبه لأهل المسكنة من تباع صالح والمؤمنين به منهم، دون ذوي شرفهم وأهل الشؤدد منهم (مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ أَتَكْلِمُونَ) (سورة الأعراف: ٧٥)، أرسله الله إلينا وإليكم، قال الذين آمنوا بصالح من المستضعفين منهم: إنا بما أرسل الله به صالحاً من الحق والهدى مؤمنون، (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)، عن أمر الله وأمر رسوله صالح إنا جاحدون منكرون، لا نصدق به ولا نقر^(٢).

(١) البحر المحيط ١٥٣/٤.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، ٥٤٣/١٢.

(ط) علاقة التنظير

وهي إلحاق النظر بنظيره، ومن ذلك:

- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣). في هذه الآية فن جميل وبديع وهو فن مراعاة النظر: وهو أن يأتي المتكلم بما يناسب المحتوى، وقد حفلت الآية بالألفاظ الدالة على التهديد الشديد والوعيد الأكيد وفنون الإبراق والإرعاد، للإشارة إلى أن جريمة القتل من أكبر الجرائم وأشدّها إمعاناً في الشر.

- قَالَ تَعَالَى: ﴿يَلِكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠١). يقول ابن عاشور: «وجملة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ عطف على جملة: ﴿يَلِكَ الْقُرَىٰ﴾؛ لمناسبة ما في كلتا الجملتين من قصد التنظير بحال المكذبين بمحمد ﷺ»^(١).

- قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٣). فقد فهم أن «المقصود تنظير حال الذين أرسل إليهم موسى بحال الأمم التي مضى الإخبار عنها في المكابرة على التكذيب، مع ظهور آيات الصديق، ليتم بذلك تشابه حال الماضين مع حال الحاضرين المكذبين بمحمد ﷺ»^(٢).

ليس يخفى - إذن - في نهاية هذا الفصل التطبيقي - أن «النص - أي نصي ومنه النص القرآني - الواحد تحكمه علاقات لغوية ودلالية تعمل على تماسكه -

(١) التحرير والتنوير ٥/ ٣٩٨.

(٢) نفسه، ٥/ ١٠٤.

حبكه - وترايط أجزائه، وعلى من يتصدى لتفسير النص أن يستعين بهذه العلاقات بنوعيتها - لغوية ودلالية - وقد تكون العلاقات أو الروابط اللغوية واضحة تتمثل في بعض الأدوات...، - كما بيّنا في فصل السبك - أما العلاقات الدلالية فإنها متنوعة ومتجددة مع النصوص بحيث يكاد كل نص يبتكر وسائل تماسكه - حبكه - الدلالية، وهذه العلاقات الدلالية هي التي... تساعد على ربط الإشارات في النص ببعضها، وتعين على تطورها وأسلوب تحولها حتى تكون في النهاية خيطاً قوياً يربط النص رباطاً خفياً يحتاج إلى تلمظ لكشفه^(١).

(١) الإبداع الموازي، ص ٣٦.

الفصل الثالث

(التنصّل)

«Intertextuality»

مصطلح التناس:

مصطلح التناس Intersexuality من المصطلحات النقدية الحديثة الوافدة إلينا من الغرب حيث ترجع أهميته باعتباره أحد معايير النصية. وقد صادف هذا المصطلح الجديد إشكاليات وصياغات متعددة لدى النقاد الغربيين فهو «تخارج نصي» لدى «يوري لوتمان». وتحويل أو تمثيل عند لوران جيني. أمّا جيرار جينت فيسميه التّعالّي النصّي أو التداخل النصّي^(١). والإشكالية نفسها عانى منها المصطلح إبان ترجمته إلى العربية، فبعضهم يعرّبه بـ(التناس)، وآخرون بـ(التناسية)، وفريق ثالث بـ(النصوصية)، ورابع بـ(تداخل النصوص)^(٢). ومنهم من ترجمه إلى (تعالق النصوص)^(٣)، أو (توارد النصوص أو تفاعلها)^(٤)، أو (الحوار بين النصوص)^(٥)، أو (النص الغائب)^(٦)، أو (الإحلال والإزاحة)^(٧)، أو التفاعل النصّي^(٨). فهذه المصطلحات العربية المترادفة التي تعبّر عن المصطلح الغربي متشابهة إلى حد كبير في مدلولها مع الاختلاف في المسمّى، مما قد يؤدي إلى نوع من الخلط والارتباك لدى الباحثين. وقد أثر الباحث الاستقرار على مصطلح «التناس»؛ للقضاء على ذلك

(١) ترويض النص، ص ١٨٥.

(٢) محمد عزام، النص الغائب (تجليات التناس في الشعر العربي) منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط ١ دمشق، ٢٠٠١م، ص ٣٩.

(٣) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناس)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٣، المغرب، ١٩٩٢م، ص ١٢١.

(٤) عرض الغباري، دراسات في أدب مصر الإسلامية، دار الثقافة العربية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١٥١.

(٥) عبد الرحمن بيسو، قراءة النص في ضوء علاقاته بالنصوص المصادرة، مجلة النقد الأدبي (فصول)، المجلد ١٦، العدد ١، ١٩٩٧م، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ص ٨٩.

(٦) النص الغائب، ص ٩.

(٧) صبري حافظ، التناس وإشارات العمل الأدبي، مجلة البلاغة المقارنة ألف، العدد ٤، ربيع ١٩٨٤م، ص ١٠.

(٨) سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط ١، الدار البيضاء، ١٩٨٨م، ص ٩٢.

الارتباك والخلط الناتجين عن تعدد المسميات، إضافة إلى أن هذا المصطلح هو الأكثر شيوعاً وانتشاراً^(١).

ومادة (التناص) بصورتها اللفظية بمعنى تناص القوم أي: ازدحموا^(٢). وفي المعجمات العربية الأدبية الحديثة المتخصصة، يذكر بعضها أن التناص «يكون طبقات جيولوجية كتابية تتم عبر إعادة استيعاب غير محدد لمواد النص، بحيث تظهر مختلف مقاطع النص الأدبي، عبارة عن تحويلات لمقاطع، مأخوذة من خطابات أخرى، داخل مكون أيديولوجي شامل»^(٣)، أو هو «علاقة بين نصين أو أكثر، وهي التي تؤثر في طريقة قراءة النص المتناص» (Intertext)، أي الذي تقع فيه آثار نصوص أخرى، أو أصداؤها^(٤).

وكما تعددت الرؤى حول المصطلح، نجد تعدد الرؤى حول التعريفات كذلك، فمنهم من قال: «إن كل ما يضع النص في علاقة ظاهرة أو خفية مع نصوص أخرى فهو تناص»^(٥)، وهو ظاهرة لغوية «يعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقي وسعة معرفته وقدرته على الترجيح»^(٦)، أو هو «كل نص ليس إلا نسيجاً جديداً من

(١) انظر للتفصيل:

- شربل داعز، التناص سيلاً إلى دراسة النص الشعري وغيره، مجلة النقد الأدبي (فصول)، المجلد ١٦، العدد (١)، ١٩٧٧م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ١٢٧.
- محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط ١، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٣٧.
- النص الغائب، ص ٣٩.

(٢) المعجم الوسيط، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م، ٣٩٤ / ٢.

(٣) سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سوشريس للطباعة، ط ١، الدار البيضاء، المغرب، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٢١٥.

(٤) محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٤٦.

(٥) طروس: الأدب على الأدب، مقال لـ «جيرار جينت» ضمن كتاب آفاق التناصية، المفهوم والمنظور، ترجمة د. محمد خيرى البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٣٢.

(٦) تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص، ص ١٣١.

استشهادات سابقة»^(١) وآخر يقول: «إن كل نص يتعاش بطريقتين من الطرق مع نصوص أخرى»^(٢). ويتضح المقصود بالمصطلح عند جوليا كريستيفا حينما تذكر أن النص «ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء معين تتقاطع وتتألف ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى»^(٣)، ويؤكد على نفس المعنى آخر بقوله إن التناص: «تشكيل نص جديد من نصوص سابقة أو معاصرة، بحيث يغدو النص المتناص خلاصة لعدد من النصوص التي تحيى الحدود بينها، وأعيدت صياغتها بشكل جديد، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها، وغاب الأصل، فلا يدركه إلا ذو الخبرة والمران»^(٤).

ومن التعريفات الجامعة ما ذكره حسام فرج بقوله: «ويكاد يتفق أغلب الباحثين على أن التناص يعني استحضار نص ما لنص آخر، ويعني كذلك تلك العناصر الموجودة في نص ما وتربطه بنصوص أخرى، والنصوص بذلك تتشكل من نصوص أخرى، وتبني كذلك من مضامينها»^(٥). في حين نجد أن كل التعريفات السابقة قد ركزت على علاقة النص بسواه من النصوص، فإن تمام حسان نظر إلى التناص من زاوية أخرى، ركزت على العلاقات القائمة بين أجزاء النص الواحد، فهو يرى أن التناص: «علاقة تقوم بين أجزاء النص بعضها وبعض، كما تقوم بين النص والنص، كعلاقة السؤال بالجواب، وعلاقة التلخيص بالنص الملخص، وعلاقة

(١) رولان بارت، من العمل إلى النص، ضمن كتاب: آفاق التناصية، ص ٤٢.

(٢) مارك أنجينو، بحث في انبثاق حقل مفهومي وانتشاره، مقال ضمن كتاب آفاق التناصية، ص ٦٤.

(٣) جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، ط ٢، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧م، ص ٢١.

(٤) النص الغائب، ص ٢٧.

(٥) نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص الثري، ك ١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٩٤.

المُسَوِّدَة بالتبييض، وعلاقة المتن بالشرح، وعلاقة الغامض بما يوضحه، وعلاقة المحتمل بما يحدّد معناه، وهذه العلاقة الأخيرة هي المقصودة بعبارة: القرآن يفسر بعضه بعضاً^(١).

ولمصطلح التناص جذور عربية أصيلة في تراثنا النقدي والبلاغي، وإن أخذ مسمّيات ودلالات مختلفة عند العرب، كالتضمين، والتلميح، والإشارة، والاقتراس... الخ، هذا في الحقل البلاغي، أمّا في الميدان النقدي، كالمناقضات، والسرقات، والمعارضات... الخ^(٢)، وكلها تقترب قليلاً أو كثيراً من مفهوم التناص. أنواع التناص. وتتفاوت نظرة العلماء إلى أقسام التناص وأشكاله وأنماطه، فمنهم من يرى أن التناص إمّا أن يكون اعتباطياً، يعتمد في دراسته على ذاكرة المتلقي، وإمّا أن يكون مقصوداً يوجّه المتلقي نحو مظانه^(٣)، ومنهم من يفرّق بين التناص الداخلي (Intertexte) والتناص الخارجي (Interexte)^(٤)، وآخر يجعل التفاعل النصّي ثلاثة: أولها: التفاعل النصّي الذاتي، وثانيها: التفاعل النصّي المعاصر، وثالثها:

(١) تمام حسان، نحو الجملة ونحو النص، ص ٢.

(٢) انظر للتفصيل:

- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص ١٥٤.
- النص الغائب، ص ٤٠.
- نظرية علم النص، ص ١٩٤.
- ترويض النص، ص ١٨٥.
- علم لغة النص، ص ٨٠.
- التناص وإشارات العمل الأدبي، ص ٢٨.

(٣) ينظر:

- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص ١٥٣.
- النص الغائب، ص ٣٨.
- نحو النص، ص ٣٩.

(٤) التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري وغيره، ص ١٣٢.

التفاعل النصي الخارجي^(١)، وآخر يفرق بين التناص المباشر وغير المباشر^(٢). وبعد استقراء لما سبق حول التناص يمكننا أن نخلص إلى ما يلي:

أ - هناك قاسم مشترك بين كل التعريفات السابقة جلّها يتمثل في أنّ التناص

تداخل بين النصوص أو بين أجزاء النص الواحد بحيث يفسر بعضها بعضاً.

ب - يقع التناص بين النصوص المختلفة، ويقع كذلك بين أجزاء النص الواحد.

ج - يتضمن التناص العلاقات بين نصي ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة^(٣).

د - كل فهم للمصطلح بمعزل عن الشعر والثقافة العربية وسائر المصطلحات جدير ببعض الشك^(٤).

ومن ذلك يبدو لنا أنه لا مناص من التناص؛ لأنّ الإنسان لا يستطيع الابتعاد عنه، كيف يكون ذلك؟ وهو لا يستطيع أن يكتب إلاّ إذا قرأ أولاً، وبعد قراءات تطول وتتكدس في ذاكرته يبدأ في الكتابة، وهو لا يدري أنّ هذه الكتابة ما هي إلاّ خلاصة لكل ما قرأ.

التناص القرآني؛

القرآن الكريم كتاب الله المعجز الذي أيد الله به نبيه محمداً ﷺ، وجعله معجزته لقوم صنعتهم الأولى الكلام، يتنافسون فيه، ويتبارون، ويجعلون الكلمة سوقاً تلقى فيه وتقيم فيه، وقد احتوى القرآن الكريم معجزات كثيرة لا تستطيع الأذهان إحصاءها إلاّ أنّ الله - تعالى - يُبدي لكل عصر شيئاً منها، ومن هذا الإعجاز القرآني، أنك تجده يفسر بعضه بعضاً بما يمكن أن نطلق عليه - التناص القرآني -.

(١) انفتاح النص الروائي، ص ١٠٠.

(٢) علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ص ٧٩ - ٨٠.

(٣) النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٤.

(٤) مصطفى ناصف، اللغة والبلاغة والميلاد الجديد، دار سعاد الصباح، ط ١، الكويت، ١٩٩٢م، ص ٩.

وقد جمع أحد الباحثين^(١) أغراض التناسل القرآني ومقاصد، ومنها: -

- أ - أن يكون في الكلام لبس وخفاء؛ فيأتي التناسل ليزيل هذا اللبس.
- ب - أن يكون ظاهر الآيات مُشكِلاً؛ فيأتي التناسل ويكشف هذا الإشكال، ويوضحه.
- ج - أن يوجد ضمير، ولا يوجد مرجع له، فيأتي التناسل لذكرنا بآية أخرى بها العائد.
- د - أن يوجد في الآية إجمال يحتاج إلى تفصيل، فيأتي القرآن بآية أخرى أو آيات أخرى تفصل ما سبق إجماله.
- هـ - أن يكون هناك قول مُنكَر أو تساؤل ويحتاج إلى إجابة عن هذا التساؤل أو رد على هذا التساؤل.

أولاً: التناسل في سورة النساء.

وسوف تتضح هذه الأغراض وتلك المقاصد من خلال التطبيق على النص القرآني لسورتي النساء والأعراف فيما يلي: -
وبالرجوع إلى جدول (٧) التناسل في سورة النساء^(٢). يتبين لنا أنواع التناسل في سورة النساء كالآتي:

التناسل داخلياً		مع سورة الأعراف		مع بقية سور القرآن	
عدد آيات النساء	الآيات المرتبطة	عدد آيات النساء	الآيات المرتبطة	عدد آيات النساء	الآيات المرتبطة
١٩	٣١	٦	٧	٤٧	١٤٢

يتضح أن عدد آيات سورة النساء المرتبطة بإجمالي آيات سور القرآن هي (٧٢) آية من سورة النساء مرتبطة بـ (١٨٠) آية من سور القرآن الكريم بدءاً من الجزء الأول: سورة

(١) معايير النصية، ص ٥١٠.

(٢) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،

ط ١، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، سورة النساء ١ / ٣٦٥: ٢٦٢.

البقرة حتى الجزء الأخير: سورة العصر. مما له دلالة واضحة على تماسك النص القرآني كله كنص واحد.

(أ-١) - نماذج التناسل في سورة النساء

• قال تعالى ﴿وَأَتُوا آلِيَنَّهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢) يقول الشنقيطي: «أمر الله - تعالى - في هذه الآية الكريمة بإيتاء اليتامى أموالهم، ولم يشترط هنا في ذلك شرطاً، ولكنه بين بعد هذا أن هذا الإيتاء المأمور به مشروط بشرطين:

الأول: بلوغ اليتامى.

والثاني: إيناس الرشد منهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا آلِيَنَّهُمْ أَمْوَالَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦)»^(١).

• وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢). وقد ذكر - تعالى - في هذه الآية الكريمة «أن أكل أموال اليتامى حرب كبير، أي: إثم عظيم، ولم يبين مبلغ هذا الحوب من العظم، ولكنه بينه في موضع آخر وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠)»^(٢).

• قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِلَّا فَتَمَثَّلُوا لَكُمْ ذُرِيَّتُكُمْ فَأَمَّا إِلَهُكُمْ فَلْيُحْكَمْ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤).

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ١/ ٢٢٠.

(٢) نفسه، ١/ ٢٢٠.

وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أٰطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا (النساء: ٣٤).

ذكر - سبحانه وتعالى - في هذه الآية الكريمة أن النشوز قد يحصل من النساء، ولم يبين أن يحصل من الرجال نشوز أم لا؟ ولكنه بين في موضع آخر أن النشوز أيضاً قد يحصل من الرجال، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ (النساء: ١٢). «وأصل النشوز في اللغة الارتفاع، فالمرأة الناشز كأنها ترتفع عن المكان الذي يضاجعها فيه زوجها، وهو في اصطلاح الفقهاء الخروج عن طاعة الزوج، وكأن نشوز الرجل ارتفاعه أيضاً عن المحل الذي فيه الزوجة وتركه مضاجعتها والعلم عند الله تعالى»^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٤٣). بين - تعالى - في هذه الآية «زوال السكر بأنه هو أن يثوب للسكران عقله، حتى يعلم معنى الكلام الذي يصدر منه بقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾» (النساء: ٤٣)^(٢).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (النساء: ٦١). ذكر - سبحانه وتعالى - في هذه الآية الكريمة «أن المنافقين إذا دعوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول - ﷺ - يصدون عن ذلك صدوداً أي: يعرضون إعراضاً. وذكر في موضع آخر: أنهم إذا دعوا إليه - ﷺ -

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ١/ ٢٨٣.

(٢) نفسه، ١/ ٢٨٥.

- ليستغفر لهم لو وارؤوسهم، وصدوا واستكبروا، وهو قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُؤُسَهُمْ وَرَأْيَهُمْ يَعُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (المنافقون: ٥)»^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥). ذكر - سبحانه وتعالى - في هذه الآية الكريمة «أنه فضل المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وأجراً عظيماً، ولم يتعرض لتفضيل بعض المجاهدين على بعض، ولكنه بين ذلك في موضع آخر وهو قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: ١٠)، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ (النساء: ٩٥)، يفهم من مفهوم مخالفته أن من خلفه العذر إذا كانت نيته صالحة يحصل ثواب المجاهد»^(٢).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النَّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَلَا يَكُ اللَّهُ كَاَنَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١٢٩). ذا العدل الذي ذكره - تعالى - هنا أنه لا يستطيع هو العدل في المحبة، والميل الطبيعي؛ «لأنه ليس تحت قدرة البشر بخلاف العدل في الحقوق الشرعية فإنه مستطاع، وقد أشار - تعالى - إلى هذا بقوله: ﴿وَلَا يَخِفُّمُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فِي الْيَمِينِ فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَتَىٰ الْأَتَمُونَ﴾ (النساء: ٣) أي: تجوروا في الحقوق الشرعية»^(٣).

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/ ٢٩٢.

(٢) نفسه، ١/ ٢٩٨.

(٣) نفسه، ١/ ٣٥٠.

• قَالَ تَمَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٤٠). هذا المنزل الذي أحال عليه هنا هو المذكور في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٦٨) (١).

• قَالَ تَمَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَى سُلْطَنًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٥٣). لم يبين هنا - سبحانه وتعالى - سبب عفوهم عنهم ذنب اتخاذ العجل إلهًا ولكنه بيّنه في سورة البقرة بقوله: ﴿فَتَوَيَّأُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤) (٢).

• قَالَ تَمَالَى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٦٥). لم يبين هنا - سبحانه وتعالى - «ما هذه الحجة التي كانت تكون للناس عليه لو عذبهم دون إنذارهم على السنة الرسل ولكنه بينها في سورة طه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا إِنَّمَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَفَخَرَفَ﴾ (طه: ١٣٤). وأشار لها في سورة القصص بقوله: ﴿وَلَوْ لَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا إِنَّمَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا فَتَنَّا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص: ٤٧) (٣).

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ١ / ٣٥٤.

(٢) نفسه ، ١ / ٣٥٨.

(٣) نفسه ، ١ / ٣٦١.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤). المراد بهذا النور المبين القرآن العظيم؛ «لأنه يزيل ظلمات الجهل والشك كما يزيل النور الحسي ظلمة الليل، وقد أوضح - تعالى - ذلك بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن لَّشَاءَ مِن عِبَادِنَا وَإِلَّاكَ لَهْدَى إِلَىٰ سِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢)، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، ونحو ذلك من الآيات^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿تَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا النِّصْفَانِ بِمَا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦). صرح - سبحانه وتعالى - في هذه الآية الكريمة بأن الأختين يرثان الثلثين، والمراد بهما الاختان لغير أم، بأن تكونا شقيقتين أو لأب بإجماع العلماء، ولم يبين هنا ميراث الثلاث من الأخوات فصاعداً، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن الأخوات لا يزدن على الثلثين، ولو بلغ عددهن ما بلغ وهو قوله - تعالى - في البنات: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ﴾ (النساء: ١١)، ومعلوم أن البنات أمس رحماً وأقوى سبباً في الميراث من الأخوات، فإذا كن لا يزدن على الثلثين ولو كثرن فكذلك الأخوات من باب أولى، وأكثر علماء الأصول على أن فحوى الخطاب أعني: مفهوم الموافقة: الذي المسكوت فيه أولى بالحكم من المنطوق، من قبيل دلالة اللفظ، لا من قبيل القياس...^(٢).

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ١/ ٣٦٤.

(٢) نفسه، ١/ ٣٦٥.

(ب) التماس في سورة الأعراف

وبالرجوع إلى جدول (٨) التناص في سورة الأعراف^(١). يتبين لنا الآتي:

التناسخ داخليا		مع سورة النساء		مع بقية سور القرآن	
عدد آيات	الآيات المرتبطة	عدد آيات	الآيات المرتبطة	عدد آيات	الآيات المرتبطة
١١	١٥	٢	٢	٥٨	٢٤٤

يتضح كذلك أن عدد آيات سورة الأعراف المرتبطة بإجمالي آيات سور القرآن هي (٧٢) آية من الأعراف مرتبطة بـ (٢٦٢) آية من سور القرآن بدءاً من الجزء الأول: سورة البقرة حتى الجزء الثلاثين سورة العصر، مما له دلالة واضحة على تماسك النصّ القرآني كله كنص واحد.

(ب-١) نماذج التناص في سورة الأعراف

- قوله تعالى: ﴿لِشْنَذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٢) لم يبين هنا - سبحانه وتعالى - المفعول به لقوله لتذذر، ولكنه " بينه في مواضع آخر كقوله: ﴿وَتُذِذَرُ بِهِ قَوْمًا لَّا﴾ (مريم: ٩٧)، وقوله: ﴿لِشْنَذِرَ قَوْمًا مَّا أَتٰذِرَءَ أَبَاؤُهُمْ﴾ (يس: ٦)، إلى غير ذلك من الآيات^(١).

- قَسَالُ نَعْسَالِي: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٠). لم يبين هنا - سبحانه وتعالى - كيفية هذه المعاش التي جعل لنا في الأرض، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَّا صَبَّأْنَا الدَّهْرَ سَاءً ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَعَبَّأْنَا قُصَبًا ۚ وَزَرَعْنَا نَخْلًا ۚ وَجَعَلْنَا زُجْجًا ۚ وَجَعَلْنَا لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ عِشًا ۚ وَجَعَلْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ زُكْرًا ۚ وَجَعَلْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ مَعَدًا ۚ إِنَّكُمْ كَذِبُونَ ۚ﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢)، وقوله

(١) انظر للتفصيل: أضواء البيان، سورة الأعراف ٢/ ١٥٢: ٨١.

(۲) ۸۵/۶

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْشِحُ بِهِ دَرَكًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (السجدة: ٢٧)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْخَرْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقٍّ ۖ كُلُوا وَأَرْعُوا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِأُولِي الْأَلْبَانِ﴾ (طه: ٥٣ - ٥٤). وذكر كثيراً من ذلك في سورة النحل كقوله: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقْنَاهَا لَكُمْ فِيهَا وَفَاءً وَمَنْفُوعٌ وَرِيشُهَا يُكَلِّوْنَ﴾ (النحل: ٥) إلى غير ذلك من الآيات^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤)

(١٥-). لم يبين هنا - سبحانه وتعالى - في السورة «الغاية التي أنظره إليها، وقد ذكرها في «الحجر» و«ص» مبيناً أن غاية ذلك الإنظار هو يوم الوقت المعلوم، لقوله: في سورة «الحجر» و«ص» ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۖ إِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (الحجر: ٣٧ - ٣٨)، فقد طلب الشيطان الإنظار إلى يوم البعث، وقد أعطاه الله الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم، وأكثر العلماء يقولون: المراد به وقت النفخة الأولى، والعلم عند الله - تعالى -^(٢).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَهْرَقْنَا أَلْبَانًا كَلْبًا وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا عَمَلَكُمْ فَتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ سَاءَ الْمَقَلِّينَ﴾ (الأعراف: ٦٤) لم يبين هنا - سبحانه وتعالى - كيفية إغراقهم، ولكنه بينها في مواضع آخر كقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا كُنْهُمْ فِيهَا يَكْتُمُونَ﴾ (القمر: ١١)، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤)،^(٣).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَيْبٌ أَنْجِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْخَائِبِينَ﴾ (الأنعام: ١١٨)

(١) انظر للتفصيل: أضواء البيان، سورة الأعراف، ٨٨/٢.

(٢) نفسه، ٩١/٢.

(٣) نفسه، ١١٨/٢.

[illegible]

• قَالَ مَسْأَلُ (وَلَوْ لَمْ يَذْكُرْ) قَالَ يَقُولُ، أَتَأْتُونَ النَّجْثَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ الْحَوَارِ

(الأعراف: ٨٠). بين - تعالى - أن المراد بهذه الفاحشة «النواطيل بقوله بعد: ﴿إِنَّكُمْ لَأَنَافِتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِسَاءِ بَلْ أَنتُمْ مُنْشِقُونَ﴾ (الأعراف: ٨١)، وبين ذلك أيضاً بقوله: ﴿أَنَافِتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعُلَمِيِّينَ﴾ (الشعراء: ١٦٥)، وقوله: ﴿وَأَنَافِتُونَ فِي نَكَاحِكُمْ الْمُتَحَكِّرِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٩)؛^(١)

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي آيَاتِنَا وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا يَفْتَرُونَ﴾

كَانُوا يَتُوبُونَ بِنَا كَذِبًا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (الأعراف: ١٠١). ذكر - تعالى - أنباءهم مفصلة في مواضع كثيرة كالآيات التي ذكر فيها خبر نوح وهود، وصالح ولوط، وشعيب وغيرهم، مع أمهم - صلوات الله وسلامه عليهم - ففي هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه من التفسير: بعضها يشهد له القرآن:

منها: أن المعنى فيما كانوا ليؤمنوا بها سبق في علم الله يوم أخذ الميثاق أنهم يكذبون به، ولم يؤمنوا به، لاستحالة التغير فيما سبق به العلم الأزلي، ويروى هذا عن أبي بن كعب وأنس، واختاره ابن جرير، ويدل لهذا الوجه آيات كثيرة كقولهم ﴿إِنْ

(١) انظر للتفصيل: أعضاء البيان، سورة الأعراف، ١١٩/٢.

178/2-2(2)

الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (يونس: ٩٦)، وقوله: (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (يونس: ١٠١). ونحو ذلك من الآيات.

ومنها: أن معنى الآية: أنهم أخذ عليهم الميثاق، فأمنوا كرهاً، فما كانوا ليؤمنوا بعد ذلك طوعاً، ويروى هذا عن السدي وهو راجع في المعنى إلى الأول.

ومنها: أن معنى الآية: أنهم لو ردوا إلى الدنيا مرة لكفروا أيضاً، فما كان ليؤمنوا في الرد إلى الدنيا بما كذبوا به من قبل أي في المرة الأولى، ويروى هذا عن مجاهد، ويدل لمعنى هذا القول قوله تعالى: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (الأنعام: ٢٨). لكنه بعيد من ظاهر الآية.

ومنها: أن معنى الآية: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم^(١).

• قَالَ تَعَالَى: (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ) (الأعراف: ١٠٨). ذكر - تعالى - هنا أن موسى نزع يده فإذا هي بيضاء، ولم يبين أن ذلك البياض خال من البرص، ولكنه بين ذلك في سورة «النمل» و«القصص» في قوله فيهما: (بَيْضَاءُ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تَتَحِ مَائِي إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (النمل: ١٢)، أي من غير برص^(٢).

• قَالَ تَعَالَى: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا نَسِيرٌ طِيلٌ) (الأعراف: ١٠٩). بين - سبحانه وتعالى - هنا أن موسى لما جاء بأية العصا والبد قال الملأ من قوم فرعون إنه ساحر، ولم يبين ماذا قال فرعون، ولكنه بين في «الشعراء» أن فرعون قال مثل ما قال الملأ من قومه، وذلك في قوله تعالى: (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَيرٌ طِيلٌ) (الشعراء: ٣٤)^(٣).

(١) أضواء البيان، ٢/ ١٢٩.

(٢) نفسه، ٢/ ١٣١.

(٣) نفسه، ٢/ ١٣٢.

• قَالَ تَمَّال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أُولَئِكَ قَالَ لَيْسَ بَالُكُمْ بِمُتَّقِينَ﴾
 أَعْبَلْتُمْ أَنْتُمْ زِينَتَكُمْ وَالَّذِي الْأَلْوَابُ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ
 اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾
 (الأعراف: ١٥٠). أوضح - سبحانه وتعالى - ما ذكره هنا بقوله في «طه»: ﴿فَرَجَعَ
 مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أُولَئِكَ قَالَ يَقْتُلُونِي لَمْ يَبْعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَقَدْ آتَيْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
 الْمَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكُمْ غُصْبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿١٥١﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
 بِمَلَكِنَا﴾ (طه: ٨٦ - ٨٧).

• قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي﴾
 (الأعراف: ١٥٠). أشار - تعالى - في هذه الآية الكريمة إلى «ما اعتذر به نبي الله هارون
 لأخيه موسى عما وجهه إليه من اللوم، وأوضحه في «طه» بقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ
 بِلِحَيِّ وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه: ٩٤)
 وصرح الله - تعالى - ببراءته بقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا
 فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَالْيَعُونِي وَالْيَعُونُوا أَمْرِي ﴿٩٥﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ
 إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (طه: ٩٠ - ٩١)،^(١).

• قَالَ تَمَّال: ﴿وَقَالُوا لَنُحْيِيَنَّكَ لَمَنَ شَاءَ قَدْحُوهُنَّ بِهَا وَذَرُوا الدِّينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَانِهِمْ
 سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠). هدد - تعالى - في هذه الآية الذين
 يلحدون في أسمانه بتهديدين:

«الأول: صيغة الأمر في قوله: (وَذَرُوا) فإنها للتهديد.

والثاني: في قوله: (سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وهدد الذين يلحدون في آياته في سورة حم «السجدة» بأنهم لا يخفون عليه في قوله: ﴿إِنَّ

(١) أخواء البيان، ٢/ ١٤٠.

الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴿فصلت: ٤٠﴾، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِيهِ مِائَاتُ يَوْمٍ الْقِيَمَةِ أَهْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت: ٤٠) ^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْمَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨). هذه الآية دلالة على أنه - ﷺ - لم يكن يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، «وقد أمره - تعالى - أن يقول إنه لا يعلم الغيب في قوله في «الأنعام»: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الأنعام: ٥٠، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل: ٦٥، إلى غير ذلك من الآيات» ^(٢).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ (الأعراف: ١٩٩). بين - تعالى - في هذه الآية الكريمة ما ينبغي أن يعامل به الجهلة من شياطين الإنس والجن؛ «فبين أن شيطان الإنس يعامل باللين، وأخذ العفو، والإعراض عن جهره وإساءته، وأن شيطان الجن لا منجى منه إلا بالاستعاذة بالله منه. قال في الأول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وقال في الثاني: ﴿وَلِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: ٣٦)».

وبين هذا الذي ذكرنا في موضعين آخرين هما: أحدهما: في سورة المؤمنون قال فيه في شيطان الإنس: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٦). وقال في الآخر: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٣٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون: ٩٧-٩٨). والثاني: في حم «السجدة» قال فيه في شيطان الإنس: ﴿وَلَا تَسْتَوِ لِّلْحَسَنَةِ وَلَا السَّيِّئَةِ أَدْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَلِذَا الَّذِي يَبْنِيكَ وَيَبْنِي عَدَاوَةً كَأَنَّه لِي حَمِيمٌ﴾

(١) أضواء البيان، ٢/ ١٤٦.

(٢) نفسه، ٢/ ١٤٨.

(فصلت: ٣٤)، وزاد هنا أن ذلك لا يعطاه كل الناس، بل لا يعطيه الله إلا لذي الحظ
الكبير والبحث العظيم عنده فقال: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرِّيٌّ
عَظِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٥)،^(١).

وفي ختام هذا المبحث التطبيقي، يمكننا القول بأن التناص القرآني له عظيم
الأثر في تفسير كثير من الآيات، التي وقع فيها بعض الإيهام على متلقي النص القرآني؛
فلولا التناص لفقد النص تماسكه ومن ثم قبوله لدى المتلقي، وفي النهاية نؤكد صحة
ما ذهب إليه الدكتور تمام حسان حيث يقول: «نؤكد ثقتنا في أن القرآن يفسر بعضه
بعضاً، وأن ما كشف عنه البحث اللغوي الحديث من مفهوم التناص يؤيد صدق
تفسير القرآن بالقرآن، وأن من حقنا، بل من واجبنا أن نطيل التأمل في النص القرآني
للمعثور على ما يعزز هذه الثقة، في أن تفسير القرآن بالقرآن يعين على الكشف عن
معاني كثير من النصوص القرآنية»^(٢). كذلك نؤكد ثقتنا بأن مفسري أي القرآن
الكريم كانوا على وعي تام بأحد معايير النصية، وهو التناص، وإن لم يكن لديهم وعي
بجانبه النظري، شأن المنظرين الغربيين.

(١) أضواء البيان ١٥١/٢.

(٢) تمام حسان، اجتهادات لغوية، ص ٣١٦.

الفصل الرابع

(السياقة)

«Context»

مصطلح السياق:

فالسباق (لغة): يعني التابع والتوالي والتسلسل، يقول ابن منظور: «ساق الإبل وغيرها، يسوقها سوقاً وسياقاً... وقد انسأقت وتساوقت الإبل تساوقاً، إذا تابعت، وكذلك تقاودت، فهي متقاودة ومتساوقة. وفي حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعنزاً ما تسأوق، أي: ما تابع، والمساوقة: المتابعة، كأن بعضها يسوق بعضاً... وساق بنفسه سياقاً: نزع بها عند الموت، تقول: رأيت فلاناً يسوق سوقاً، أي ينزع نزعاً عند الموت»^(١).

ويقول الزمخشري: «تساوقت الإبل: تابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليها يساق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده»^(٢). مما سبق يلحظ معنى التابع والتوالي والتسلسل في استعمال لفظ السياق، كما في سوق الإبل والدواب، وسوق النفس عند الموت، وتتابع الكلام وتسلسله. أمّا في غير العربية، فالسياق كما يقول عيد بلع: «يتكون Context من السابقة اللاتينية بمعنى مع، وTextus اللاتينية - أيضاً - التي تعني النص أو المتن»^(٣).

أمّا السياق (اصطلاحاً): فالدراسات اللغوية تذكر أن كلمة (السياق) كانت شائعة بين القدماء بمدلولها اللغوي العام، ولم تحمل مفهومها الاصطلاحي المعروف لها الآن عند علماء الدلالة المحدثين إلا بعد استخدام ماليونوفسكي وفيرث لها، فالقدماء لم ينصّوا على تعريف اصطلاحى للسياق على الرغم من ممارستهم له

(١) ابن منظور، لسان العرب، ١٠/ ١٦٦، (مادة: سوق).

(٢) أساس البلاغة، ١/ ٤٨٤.

(٣) عيد بلع، السياق وتوجيه دلالة النص، بلنسية للنشر والتوزيع، ط ١، شبين الكوم، ١٤٢٩ هـ -

٢٠٠٨ م، ص ١٢٦

ولأهميته^(١). يذكر أولمان أن السياق هو: «النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم، بأوسع معاني هذه العبارة. إن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة للكلمة فحسب بل القطعة كلها، والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل - بوجه من الوجوه - كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن»^(٢). أما تمام حسان فيستند في تعريفه للسياق على معناه اللغوي وعلى نوعيه، فهو - عنده - : «التوالي من ناحيتين؛ الأولى: توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب، ومن هذه الزاوية يُسمى (سياق النص)، والثانية: توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي، وكانت ذات علاقة بالاتصال ويُسمى (سياق الموقف)»^(٣).

وشبيهه بتعريف تمام حسان ما ذكره جمعان عبد الكريم بقوله: «أما السياق في الدراسة اللغوية الحديثة، فيعني به كل ما يتعلق بأحوال المتألية اللغوية في ظروف استعمالها داخل النص وخارجه؛ ولذلك فهو ينقسم إلى قسمين، وقد انطلق أغلب اللغويين في تعريف السياق من تعريف قسميه كل على حدة»^(٤).

(١) قد يشيع المصطلح العلمي بين الدارسين إلى درجة الابتذال، فيتوهم البعض أن هذا المصطلح واضح مفهوم، فإذا ما حاولوا تحديد المعنى الذي ظنوا أنهم يفهمونه بدا الأمر عسيراً غاية العسرة وغامضاً أشد الغموض، ومن تلك المصطلحات اللغوية الشائعة الاستعمال، العصبية على التحديد الدقيق، بشكل متفق عليه بين الدارسين، مصطلح الكلمة، ومصطلح الجملة، ومصطلح السياق". محمد يوسف حبلص، البحث الدلالي عند الأصوليين، عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، ص ٢٨.

(٢) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، ط ١، القاهرة، ١٩٩٢ م، ص ٦٢.

(٣) تمام حسان، مقال قرينة السياق، الكتاب التذكاري لكلية دار العلوم، مطبعة عبير للكتب، ط ١، القاهرة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، ص ٣٧٥.

(٤) جمعان عبد الكريم، إشكالات النص، دراسة لسانية نصية، المركز الثقافي العربي، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٩ م، ص ٤٠٠.

مما سبق من تعريفات يتبين لنا أن السياق هو كل ما يحيط بالنص من عوامل تعين على فهمه، سواء أكانت عوامل لغوية داخلية، متمثلة في العلاقات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، أم عوامل غير لغوية خارجية متمثلة في حال المخاطب، والمخاطب، وكذلك الزمان والمكان، والغرض من النص ودواعيه، والإشارات والإيحاءات والتلميحات، والحركات الجسمانية بوجه عام المصاحبة للموقف الكلامي... إلخ

السياق والتداولية:

يمثل السياق بُعداً جوهرياً في التداولية إلى حد دخل معها في تعريفها، إذ يشير جيفري ليتش G.Leech إلى فكرة مقامات الكلام Speech situations في تحديد الفرق بين التداولية والدلالة، وذكر أن العناصر المكونة لهذا المقام تتمثل في: «المرسل والمستقبل - السياق - الأهداف والمقاصد - قوة فعل الكلام - الملفوظ» ورأى أنه من الممكن أن يضاف إليها عنصرا الزمان والمكان، ثم ذكر أن التداولية تتميز عن الدلالة في كونها تهتم بالمعنى في علاقته بمقام الكلام^(١). فالتداولية «تدرس استعمال اللغة في السياق، وتوقف شتى مظاهر التأويل اللغوية على السياق، فالجملية الواحدة يمكن أن تعبر عن معاني مختلفة أو مقترحات مختلفة من سياق إلى سياق»^(٢).

(١) جيفري ليتش وجيني توماس: اللغة والمعنى والسياق: البراغماتية (المعنى في السياق)، الموسوعة اللغوية، تحرير د. ن. ي. كولنج، ترجمة د. محي الدين حميدي، ود. عبدالله الحميدان، مج ١، كلية اللغات، جامعة الملك سعود، ص ١٩٤: ١٧٣.

(٢) انظر للتفصيل:

- عيد بلبع، التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، مجلة فصول، العدد ٦٦، ٢٠٠٥م، ص ٤٠.
- أحمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ١٢.

ويُعدُّ السياق من بين أهم العناصر التداولية المساعدة على التواصل؛ وإقامة العلاقة بين المتواصلين؛ لذا اعتمد المفسرون على هذا العنصر؛ لضمان التواصل بين القارئ والنص القرآني، وتأتي علاقة السياق بالمعنى من كون العديد من الملفوظات، لا يمكن تحديد معناها بدقة إلا بمعرفة سياقها الذي وردت فيه؛ فعادة ما يسأل شخص عن معنى كلمة، فيضطر إلى التساؤل عن سياقها الذي وردت فيه، وفي هذا الصدد يقول بيرغويرو: «إن الغموض الذي يلف العلامة المتعددة الدلالات يزول عندما توضع في سياقها»^(١).

ولأهمية السياق - سياق الموقف - في التداولية يقول ديكرود: «إننا نسمي مقام الخطاب مجموع الظروف التي نشأ الخطاب في وسطها...، ويجب أن نفهم من هذا المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ الظرف فيه مكانه، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه، وهوية هؤلاء...، وإننا لنعرف التداولية - غالباً - بوصفها دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة»^(٢). فالتداولية تراعي السياق - بنوعيه: اللغوي (الداخلي/المقالي) وغير اللغوي (الخارجي/المقامي) - الذي يضمن نجاح عملية التواصل.

(١) انظر للتفصيل:

- علي آيت أوشان - النص والسياق الشعري (من البنية إلى القراءة)، مطبعة النجاح الجديدة، ط ١، المغرب، ٢٠٠٠م، ص ٣٩.
- حسين حامد الصالح، التأويل اللغوي في القرآن الكريم، دار ابن حزم، ط ١، لبنان، ٢٠٠٥م، ص ١٢٨.

- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط ١، لبنان، ٢٠٠٥م، ص ١٨٧.

(٢) أوزوالد ديكرود، مقام الخطاب، مقال ضمن القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: مندر عياشي، المركز الثقافي العربي، ط ٢، المغرب، ٢٠٠٧م، ص ٦٧٧.

العلاقة بين النص والسياق

العلاقة بين النص والسياق جدُّ وثيقة، لدرجة تجعل الإنسان يظنها وجهين لعملة واحدة، حيث إن نصية النص تخلق نوعاً من التماسك والترابط الداخلي بين مكونات النص من ناحية، والترابط بين النص وما يحيط به من ظروف وملايسات غير لغوية من ناحية أخرى. ولأهمية السياق تناوله كثير من الدارسين فديهاً وحديثاً، فمنهم من تناوله من خلال قضايا لغوية أخرى، ومنهم من أفرد له بحثاً، أو رسالة، أو كتاباً^(١).

(١) ومن هذه الأعمال حول السياق:

- محمد بنعده، السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري، رسالة دكتوراه من كلية الآداب بجامعة محمد بن عبد الله - المغرب - ١٤١٨ هـ.
- ردة الله بن ردة بن هيف الله الطلمحي، دلالة السياق، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤٢٤ هـ.
- السياق ودلالته في توجيه المعنى، فوزي إبراهيم عبد السرازي، رسالة دكتوراه في اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- نوح الشهري، أثر السياق في النظام النحوي مع تطبيقات على كتاب: البيان في غريب القرآن لابن الأنباري، رسالة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م.
- سعيد بن محمد الشهراني، السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة، رسالة دكتوراه، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- عبد الحكيم القاسم، دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير من خلال تفسير ابن جرير، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين، جامعة الإمام ١٤٢٠ هـ.
- إبراهيم محمود خليل، السياق وأثره في الدرس اللغوي، دراسة في علم اللغة الحديث، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٤١١ هـ.
- عبد النعيم عبد السلام خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية واللغات الشرقية، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٠ م.
- عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار المنار، ط ١، القاهرة، ١٤١١ هـ.
- جون لايتز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة المائة كتاب، ١٩٨٧ م.
- علي عزت، اللغة ونظرية السياق، مقال في مجلة الفكر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، العدد (٧٦)، ١٩٧١ م... إلخ.

كما تعد نظرية السياق عماد علم الدلالة، يقول حليمي تحليل: «نظرية السياق تشكل - بلا شك - ركنا هاما من أركان علم الدلالة الآن؛ لأن التحليل اللغوي للنص أو الكلام لا يعطينا إلا المعنى الحرفي، أو معنى ظاهري النص، وهو معنى فارج تماماً من محتواه الاجتماعي والتاريخي، ومنعزل تماماً عن كل ما يحيط بالنص من القرائن التي تحدد المعنى»^(١). ومن ثمّ يقسم تمام حسان ما يسميه المعنى الدلالي - وهو عنده محصلة السياق اللغوي والاجتماعي معاً - إلى قسمين:

الأول: المعنى المقالي وهو مكوّن من المعنى الوظيفي والمعجمي ويشمل القرائن المقالية.
الثاني: المعنى المقامي وهو مكوّن من ظروف أداء المقال التي تشتمل على القرائن الحالية^(٢).
والمقامية أو سياق الموقف «Situationality» من معايير النصية السبعة التي ذكرها ديوجراندي ودريسلر، وتختص بمناسبة النص للموقف الذي قيل فيه، وهي من الأهمية بمكان، بحيث يفهم على ضوئها - كما مر - النص، وهي - كما يقول ديوجراندي -: «تتضمن العوامل التي تجعل النص مرتبطاً بموقف سائد يمكن استرجاعه، ويأتي النص في صورة عمل يمكن له أن يراقب الموقف وأن يغيره، وقد لا يوجد إلا القليل من الوساطة في عناصر الموقف، كما في حالة الاتصال بالمواجهة في شأن أمور تخضع للإدراك المباشر، وربما توجد وساطة جوهرية كما في قراءة نص قديم ذي طبيعة أدبية، يدور حول أمور تنتمي إلى عالم آخر»^(٣). إذا كان للسياق هذا الدور الفعال، وهذا الأثر الواضح في فهم معنى النص، والذي أدركه اللغويون والبلاغيون والمفسرون والأصوليون قديماً، والمحدثون والغربيون حديثاً، صار لازماً علينا أن نستجلي بعض الجوانب لمفهوم السياق وأنواعه وأهميته عند القدماء والمحدثين.

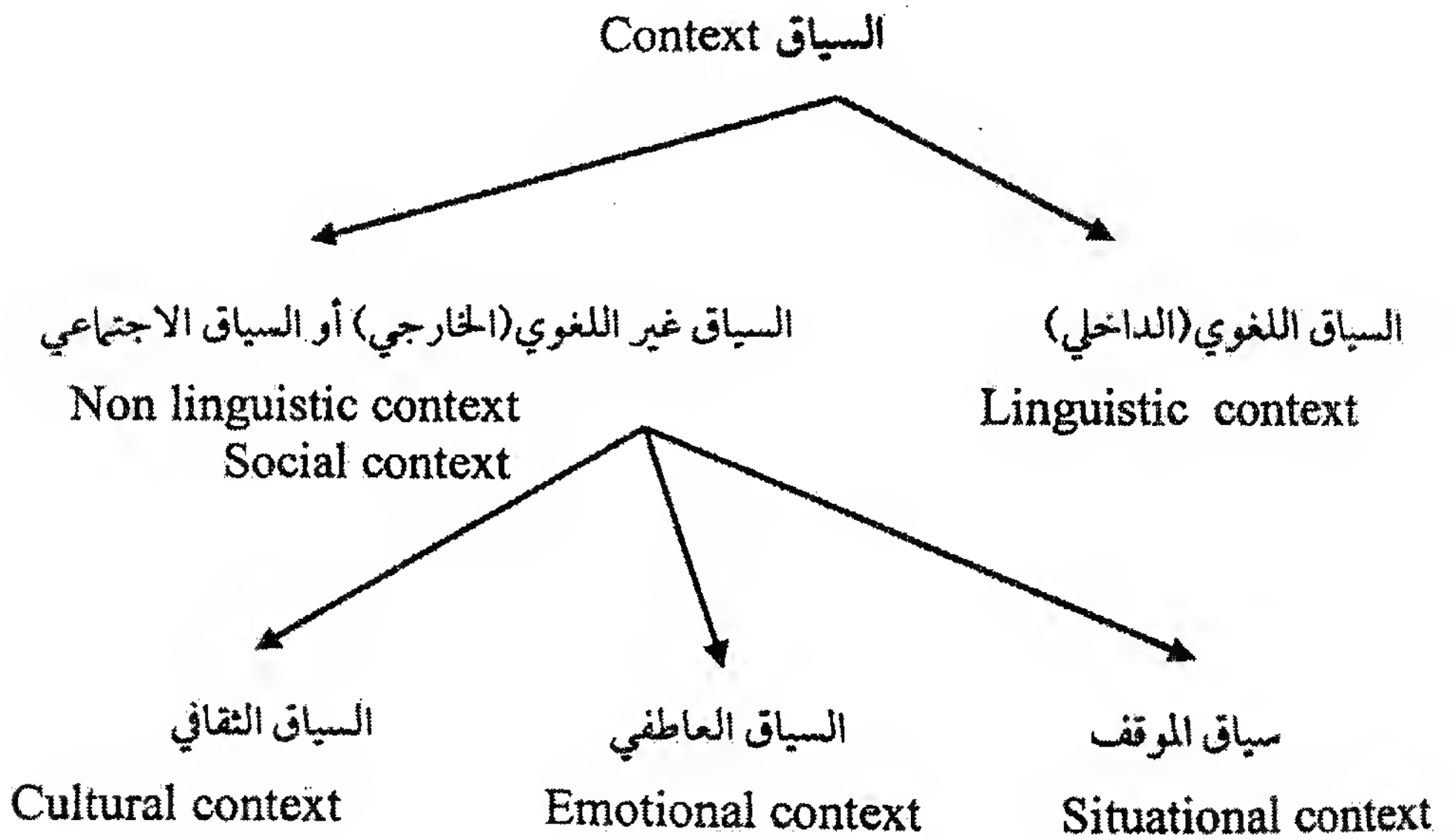
(١) الكلمة. دراسة لغوية معجمية، ص ١٦٢.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط ٥، القاهرة، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ص ٣٣٩.

(٣) النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٤.

أنواع السياق:

تباينت تقسيمات اللغويين المحدثين للسياق بين الإجمال والتفصيل؛ فمنهم من جعل السياق نوعين: أحدهما: السياق اللغوي، والآخر: السياق غير اللغوي أو الاجتماعي^(١). ومنهم من جعل السياق ثلاثة أنواع: أولها: السياق اللغوي، والثاني: سياق المقام، والثالث: السياق الثقافي^(٢)، ومنهم من جعل السياق أربعة أنواع؛ فزاد على تقسيم الثلاثي السابق السياق العاطفي^(٣). بيد أنني أفضل التقسيم الثنائي الذي يشمل الأنواع الأربعة المذكورة آنفاً، والذي يبينه المخطط الآتي:



(١) ينظر:

- محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، ط ١، دار قباء، القاهرة، ص ١٥٩.
- الكلمة. دراسة لغوية معجمية، ص ١٦١.
- السياق وتوجيه دلالة النص، ص ١٣٠-١٣١.
- (٢) عاطف مذكور. علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط ١، القاهرة، ١٩٨٧ م، ص ٢٤١ وما بعدها.
- (٣) علم الدلالة، ص ٧١: ٦٩، ويحيى عباينة وآمنة الزعبي، علم اللغة المعاصر، مقدمات وتطبيقات، دار الكتاب الثقافي، ط ١، الأردن، ص ٩٦-٩٧.

وربما دفع الباحث لهذا الاختيار ما ذكره محمود فهمي حجازي بقوله: «كلمة السياق كثيرة الدوران في البحوث اللغوية، تناولها الباحثون في الدلالة بمعنيين مختلفين، يمكن تحديدهما في أمرين، هما السياق اللغوي «Linguistic context» على عكس السياق الاجتماعي عند فيرث باسم «Context of situation» أي سياق الموقف، وعند بالمر «Non linguistic context» أي السياق غير اللغوي»^(١). وكذلك ما ذكره محمد خطابي عندما تحدث عن كيفية تفسير معنى النص بقوله: «السامع أو القارئ حين يحدد - بوعي أو بدون وعي - وضعية عينه لغوية يستدعي بنيتين: خارجية وداخلية؛ تتمثل البنية الداخلية في اعتماد الوسائل اللغوية التي تربط أواخر مقطع ما، وتكمن الخارجية في مراعاة المقام، أي أن المتلقي يضع في اعتباره كل ما يعرفه عن المحيط»^(٢).

وقد تفاوتت تعريفات المحدثين للسياق اللغوي، فمنهم من نظر إليه باعتبار دوره في فهم دلالة الكلمة في ضوء ما يسبقها وما يليها، وآخر نظر إليه باعتبار العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين الكلمات^(٣).

(١) مدخل إلى علم اللغة، ص ١٥٩.

(٢) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ١٤.

(٣) من الفريق الأول:

• محمد حماسة، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، ط ١، ١٩٨٣ م، ص ١١٧.

• ومحمد حسن جيل، المعنى اللغوي، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص ٢٢٠.

• وعاطف مذكور، علم اللغة بين التراث والمعاصرة، ص ٢٤١.

ومن الفريق الثاني:

• محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، ص ١٥٩.

• وحلمي خليل، الكلمة. دراسة لغوية معجمية، ص ١٦١.

• وعيد بليغ، السياق وتوجيه دلالة النص، ص ١٣٠.

• محمد حبلى، البحث الدلالي عند الأصوليين، ص ٣١.

أما بالنسبة لتعريفات السياق غير اللغوي (الاجتماعي) فملخصها: كل ما يتعلق بالنص من أشياء خارج النص تساعد على فهم معنى النص^(١).
كما سبق يتبين لنا الآتي:

أولاً: السياق ينقسم إلى نوعين فقط يندرج تحتها كل السياقات هما: السياق اللغوي، والسياق غير اللغوي؛ وذلك لأن السياق اللغوي معروف، وهو توالي العناصر اللغوية التي يتكون منها النص، ويتحقق بها السبك والحبك داخل النص، وكل ما عدا ذلك فهو ينتمي إلى السياق غير اللغوي؛ لأنه يضم كل العناصر غير اللغوية التي تسهم في تفسير النص وفهمه؛ فهو يضم السياق الاجتماعي، والسياق الثقافي، وسياق الموقف؛ لأنها جميعاً سياقات تشتمل على أمور غير لغوية، وإن كانت تؤثر في السياق اللغوي، وتسهم في تفسيره.

ثانياً: لم نفرّد للسياق التاريخي، أو السياق الديني، أو السياق السياسي، أو السياق الاقتصادي فرعاً خاصاً به؛ لأنها جميعاً تنضوي تحت السياق الاجتماعي؛ فهي جميعاً من الخصائص الاجتماعية التي يجب معرفتها عن العصر (الزمن)، والبلد (المكان) اللذين قيل فيها النص، فيجب معرفة العقيدة الدينية لهذا البلد، وكذلك المواقف التاريخية سواء معارك، أو انقلابات، أو... إلخ، وكذلك الأحوال السياسية والاقتصادية، وبخاصة إذا كان لها تأثير في إيضاح النص وتفسيره.

(١) للتفصيل انظر:

- تمام حسان: الأصول، دراسة أبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ص ٣٠٤.
- السياق توجيه ودلالة النص، ص ١٣١.
- علم اللغة المعاصر، ص ٣٧.
- إبراهيم الدسوقي، نحو النص، قصة موسى عليه السلام في النص القرآني نموذجاً، رسالة دكتوراه، دار العلوم - القاهرة، ص ٢٠٠.

لقد اهتم العلماء قديماً وحديثاً بالسياق بنوعيه - اللغوي (المقالي)، وغير اللغوي (المقامي) - مما يدل على أهميته الواضحة في تفسير النصوص، والكشف عن علاقاتها السطحية، والعميقة.

ولقد أدرك أسلافنا من علماء العربية ما أراده المحدثون الآن من أن النص اللغوي، إنما هو نص في موقف، فما ذكره هؤلاء المحدثون من علماء النص حول «سياق الموقف» (المقامية) لا تكاد تخرج دائرته عما قاله العرب قديماً. يقول عبد الفتاح البركاوي بعد أن خلص من مناقشة مفاهيم السياق إلى أن: «مفهوم السياق في معنى الظرف الخارجي يرادفه في التراث العربي كل من المقام والحال والموقف، وأن مفهوم السياق يتسع أيضاً ليشمل ما يعرف في الدراسات اللغوية الحديثة بـ «سياق النص» Context Verbal، وسياق الموقف أو المقام الخارجي، وهو ما يعرف بـ Context of situation أي أن هذا السياق كما فهمه العلماء العرب يشتمل على عناصر دلالية تستفاد من المقال ومن المقام جميعاً»^(١).

بيد أن علماء العربية لم يتمكنوا من صياغة نظرية منهجية متكاملة تُسمَّى السياق، لكن إرهاباتهم العبقرية عن السياق جاءت في صورة مقولات كثيرة ومتناثرة في ثنايا كتبهم السامقة، حيث لم يفرّدوا السياق بدرس لغوي مستقل؛ «حيث كان السياق في الأعمال القديمة ينصبُّ على معنى العبارة المفردة، أو معنى عدة عبارات مأخوذة على هذا الشكل المتمايز الأجزاء، على نحو ما تتمايز حبات العقد فيما بينها، والحق أن المعنى يُفهم من السياق أكثر مما يفهم من الوحدات الصريحة التي تولّفه»^(٢).

(١) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة المعاصر، ص ٣٠.

(٢) البلاغة والأسلوبية، ص ٣٢١.

جدير بالذكر أن معنى سبب النزول: «هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدة معه أو مهيئة لحكمه أيام وقوعه». والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي - ﷺ - أو سبب نزول الآية إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله - تعالى - ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو يجواب هذا السؤال^(١)، وليس لكل آية وردت في كتاب الله - تعالى - سبب نزول، فكثير من الآيات نزل من الله ابتداءً لمجرد هداية الخلق، أما ما نزل مرتبطاً بسبب - وهو كثير أيضاً - فلا يمكن استعراضه جميعه، حيث إن ذلك شأؤ بعيد، وقد أفردّه الكثيرون بالتأليف، وأبرزهم: الواحدي والنيسابوري والسيوطي... إلخ. كما تعد معرفة أسباب النزول من الصق الموضوعات بسياق المقام، أو السياق الاجتماعي، فما من مفسر للقرآن إلا تعرض لأسباب النزول بغية الوقوف على الفهم الصحيح للنص القرآني، يقول تمام حسان: «يُحْتَم الأصوليون على من يتصدى لاستخراج الأحكام من القرآن، أموراً لا ينبغي أن يغفل عنها، هي في الواقع «مقام» للفهم، فعليه مثلاً:

١. ألا يغفل عن بعضه في تفسير بعضه.

٢. ألا يغفل عن السنة في تفسيره.

٣. أن يعرف أسباب النزول.

٤. أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب.

فهذه العناصر الأربعة يمكن اختصارها في كلمة «المقام»، ولا ينبغي لمن يتصدى لتفسير آية أن يغفل عن مقامها^(٢). وهذا الواحدي يذكر أهمية سياق الموقف - مثلاً في معرفة أسباب نزول الآيات - في تفسير النص القرآني وبيان معاني آياته،

(١) ثورقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط ٣، القاهرة، ص ١٠٦.

(٢) لغة عربية معناها ومبناها، ص ٣٤٨.

يقول: «عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة عن آية من القرآن، فقال: اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن، وأما اليوم فكل واحد مخترع شيئاً، ويخلق إفكاً وكذباً، ملقياً زمامه إلى الجهالة غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب الآية»^(١). وينقل السيوطي نصاً آخر عن الواحدي يقول: «قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها»^(٢). ويقول ابن تيمية: «ومعرفة سبب النزول تعين على فهم الآية: فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، وقد أشكل على جماعة من السلف معاني آيات، حتى وقفوا على أسباب نزولها فزال عنهم الإشكال»^(٣). وبالمثل قال الزركشي^(٤)، والشاطبي^(٥).

مما سبق نخلص إلى أهمية أسباب النزول في تفسير القرآن، كما يعد وجهاً من وجوه السياق الخارجي (غير اللغوي) في فهم المعنى المراد للنص القرآني؛ وذلك لتعلق أسباب النزول بمعرفة حال الخطاب، «كما ينبغي أن نشير إلى أن المفسرين قد فطنوا منذ زمن سحيق في القدم إلى الفرق بين ظاهر النص القرآني وباطنه»، فكان فهمهم لهذا

(١) انظر:

- الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتاب الجديد، ط ١، القاهرة، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م، ص ٥: ٦.
- السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة المختار، ط ١، القاهرة، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ص ٦.

(٢) ينظر:

- لباب النقول في أسباب النزول، ص ٥.
- السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة لصاحبها مصطفى محمد، ١٣٦٨ هـ / ١ / ٢٩.

(٣) مجموع الفتاوى ٣٣٩ / ١٣.

(٤) البرهان في علوم القرآن، ١ / ٢٢.

(٥) المرافقات ١٤٦ / ٤.

الفرق تفريقاً منهم بين المعنى «المقالى» والمعنى «المقامى»^(١)، كما أنه لا بد من تضافر السياقين معاً - كما سيتبين لنا بعد قليل إن شاء الله - فالسياق بنوعيه - اللغوي وغير اللغوي - مرجح دلالي بين كثير من الأقوال والآراء التي ازدحمت بها كتب التفسير، خاصة في تلك الآيات التي تحتل أكثر من معنى، ففهم المعنى دَوَّارٌ مع السياق «وكان السياق هو الذي ينطق الكلمات ويُصرف لسانها... إلخ»^(٢). ولا شك أن المفسرين اعتمدوا على السياق القرآني بنوعيه في تحليل الآيات، والكشف عن معانيها، ثم إن اعتبار المفسرين السياق منهجاً عاماً في تفسيرهم للقرآن الكريم جعلهم يوظفونه في فهم دلالات ألفاظه وتراكيبه، «وقد تجلّى اعتماد المنهج السياقي أكثر ما تجلّى في تفسير القرآن بالقرآن ولما كانت دلالة السياق من أهم القرائن التي تدل على مراد المتكلم، وإثبات المعنى المراد دون غيره، فإن المفسرين اهتموا بمنهج السياق، واعتبروا كل قول لا يؤيده السياق لا عبرة به، ولا يعول عليه»^(٣).

السياق القرآني ودوره:

(أ) في فهم المعنى:

(١-أ) النساء

• قَالَ تَمَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

(١) اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٣٩.

(٢) محمد محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، ط ٤، ١٤٢٩ هـ -

٢٠٠٨ م، ص ٢٤٠.

(٣) أحمد محمد عبد الراضي، المعايير النصية في القرآن الكريم، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، القاهرة،

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م، ص ٢٠٠.

شَتَّ وَعَلِيكَ (النساء: ٣٢). هل النهي عن التمني في أمور الدنيا وأنصبة الموارث بين الرجال والنساء أم في أمور منازل الفضل وفعل الخيرات ؟ ذكر الرايين الطبري فقال في الرأي الأول: «عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، يقول: لا يتمنى الرجل يقول: «ليت أن لي مال فلان وأمله»! فنهى الله - سبحانه - عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله، وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يتمن بعضكم ما خص الله بعضاً من منازل الفضل»^(١).

وبالرجوع إلى أسباب النزول للواحد يقول: «قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ قالت أم سلمة: يارسول الله تغزو الرجال ولا تغزو، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾، عن عكرمة أن النساء سألن الجهاد، فقلن: وددنا أن الله جعل لنا الغزو فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، وقال قتادة والسدي: لما نزل قوله - ﴿لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ - للذكر مثل حظ الأنثيين - قال الرجال: إنا لندرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث فيكون أجراً على الضعف من أجر النساء، وقالت النساء: إنا لندرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢). ولكن أبا حيان - بعد ما ذكر أسباب النزول - يربط بين الآية وسياق الآيات التي قبلها، فيقول: «ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه - تعالى - لما نهى عن أكل المال بالباطل، وعن قتل الأنفس، وكان ما نهى عنه مدعاة إلى التبسط في الدنيا والعلو فيها وتحصيل حطامها، نهاهم عن تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض، إذ التمني لذلك سبب مؤثر في

(١) تفسير الطبري ٨/ ٢٦١، ٢٦٤.

(٢) أسباب النزول ١/ ٩٩، ١٠٠.

تحصيل الدنيا وشوق النفس إليها بكل طريق، فلم يكتف بالنهي عن تحصيل المال بالباطل وقتل الأنفس، حتى نهى عن السبب المحرّض على ذلك، وكانت المبادرة إلى النهي عن المسبب أكد لفظاً عنه ومشقته فبدىء به، ثم أتبع بالنهي عن السبب حسماً لمادة المسبب، وليوافق العمل القلبي العمل الخارجي فيستوي الباطن والظاهر في الامتناع عن الأفعال القبيحة، وظاهر الآية يدل على النهي أن يتمنى الإنسان لنفسه ما فضل به عليه غيره، بل عليه أن يرضى بما قسم الله له، وتمنى ذلك هو أن يكون له مثل ما لذلك المفضل^(١). أي: أن أبا حيان يرجح أن النهي عام في كل الأمور دون تقييد أو تخصيص بأسباب التزول - وهو الرأي الثاني الذي ذكره الطبري - استناداً إلى سياق الآيات اللغوي - وذهب إلى ترجيح هذا الرأي من قبله الزمخشري^(٢)، وهو أولى القولين عند الباحث؛ لأن الأصل في النص القرآني أن يؤخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما أن العموم يشمل أمور الدنيا والآخرة فهو أعم وأشمل من الرأي الثاني - فلا تعارض - . وهل نصيب الرجال ونصيب النساء - أيضاً - في أمور التورث أو في أمور الفضل والطاعات ؟

وقد ذكر الرأيين - أيضاً - الطبري فقال: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: للرجال نصيب مما اكتسبوا، من الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، وللنساء نصيب من ذلك مثل ذلك. وقال آخرون: بل معنى ذلك: للرجال نصيب مما اكتسبوا من ميراث موتاهم، وللنساء نصيب منهم»^(٣). وفي الترجيح بين القولين. قال الطبري معتمداً على السياق اللغوي: «وأولى القولين في ذلك بتأويل الآية، قول من قال: معناه: للرجال نصيب من ثواب الله وعقابه مما

(١) البحر المحيط ٤/ ١١٣، ١١٤.

(٢) الكشف ١/ ٥٣٥.

(٣) تفسير الطبري ٨/ ٢٦٥، ٢٦٦.

اكتسبوا فعملوه من خير أو شر، وللنساء نصيب مما اكتسبن من ذلك كما للرجال. وإنما قلنا: إن ذلك أولى بتأويل الآية من قول من قال: «تأويله: للرجال نصيب من الميراث، وللنساء نصيب منه»؛ لأن الله جل ثناؤه أخبر أن لكل فريق من الرجال والنساء نصيباً مما اكتسب. وليس الميراث مما اكتسبه الوارث، وإنما هو مال أورثه الله عن ميتة بغير اكتساب، وإنما (الكسب) العمل، و(المكتسب): المحترف. فغير جائز أن يكون معنى الآية - وقد قال الله: **(الرِّجَالُ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ)**، للرجال نصيب مما ورثوا، وللنساء نصيب مما ورثن؛ لأن ذلك لو كان كذلك لقليل: «للرجال نصيب مما لم يكتسبوا، وللنساء نصيب مما لم يكتسبن»!!^(١).

أما أبو حيان فذكر أربعة أقوال، فيقول: «قال ابن عباس: معناه من الميراث، لأن العرب كانت لا تورث النساء. وضعف هذا القول لأن لفظ الاكتساب ينبو عنه، لأن الاكتساب يدل على الاعتمال والتطلب للمكسوب، وهذا لا يكون في الإرث؛ لأنه مال يأخذه الوارث عفواً بغير اكتساب فيه...» وقالت فرقة: المعنى أن الله - تعالى - جعل لكل من الصنفين مكاسب تختص به، فلا يتمنى أحد منهما ما جعل للآخر. فجعل للرجال الجهاد والإنفاق في المعيشة، وحمل التكاليف الشاقة كالأحكام والإمارة والحسبة وغير ذلك. وجعل للنساء الحمل ومشقته، وحسن التبعل، وحفظ غيب الزوج، وخدمة البيوت. وقيل: المعنى مما اكتسب من نعيم الدنيا، فينبغي أن يرضى بما قسم الله له، وهذه الأقوال الثلاثة هي بالنسبة لأحوال الدنيا. وقالت فرقة: المعنى نصيب من الأجر والحسنات^(٢). أي: أن أبا حيان ومن قبله الطبري يضعفان الرأي

(١) تفسير الطبري، ٢٦٧/٨.

(٢) البحر المحيط، ١١٤/٤، ١١٥.

الأول استناداً إلى المعنى الدلالي للفظ الاكتساب وهو سياق لغوي - أيضاً - . بينما نجد الألوسي يرجح الرأي الأول في تحديد الأنصبة في المواريث استناداً إلى النظم القرآني وسياق الحديث في الآيات السابقة عن الميراث وأنصبة كل من الفريقين: الرجال والنساء، وهذا ما يؤكد - أيضاً - سبب النزول، يقول: «والمعنى لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعداده، وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاه حاله لنصيبه باكتسابه إياه تأكيداً؛ لاستحقاق كل منهما لنصيبه، وتقوية لاختصاصه بحيث لا يتخطاه إلى غيره فإن ذلك مما يوجب الانتهاء عن التمني المذكور انتهى»^(١). ويرى الباحث أن ما يؤكد السياق بنوعيه - اللغوي وغير اللغوي (سبب النزول) - أولى مما يؤكد أحد نوعيه فقط، وهو ما ذكره الألوسي من صحة التأويل بما يتناسب مع سبب النزول، وكذلك سياق الآيات السابقة عن أنصبة المواريث، واستخدام لفظ الاكتساب على لغة التغليب.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝﴾ (النساء: ٤٣). فالمعنى الظاهري لنص الآية يشير عدة تساؤلات منها: هل المنهي عنه السكر في الصلاة فقط دون غيرها؟ وهل المقصود من السكر هو ذهاب العقل الناتج عن شرب الخمر أم سكر النوم؟ وقد ذكر الرايين الطبري فقال: «اختلف أهل التأويل في (السكر) الذي عناء الله بقوله:

(١) روح المعاني ٥/ ١٩.

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾. فقال بعضهم: عنى بذلك السكر من الشراب. وقال آخرون: معنى ذلك: لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكَارَى من النوم^(١). وبالعودة إلى أسباب النزول - سياق الموقف «غير اللغوي» - يتبين لنا الإجابة عن السؤال الأول. يقول الواحدي: «نزلت في أناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - كانوا يشربون الخمر ويحضرون الصلاة وهم نشاوى، فلا يدرون كم يصلون ولا ما يقولون في صلاتهم...» عن أبي عبد الرحمن قال: صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً ودعا أناساً من أصحاب رسول الله - ﷺ - فطعموا وشربوا، وحضرت صلاة المغرب فتقدم بعض القوم فصلى بهم المغرب، فقرأ - ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ - فلم يقمها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٢).

ويذكر أبو حيان سبباً آخر للنزول، فيقول: «وقيل: نزلت بسبب قول عمر ثانياً: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافياً، وكانوا يتحامونها أوقات الصلوات، فإذا صلوا العشاء شربوها، فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر، إلى أن سأل عمر ثالثاً فنزل تحريمها مطلقاً^(٣). وذكر الطبري سن قبل - قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾، قال: كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات، ثم نسخ بتحريم الخمر^(٤). أي أن النهي المذكور في الآية كان نهياً يخص السكر حين دخول وقت الصلاة فقط دون غيرها من بقية الأوقات، ولم يكن شرب الخمر قد نزل في تحريمه شئ بعد. وفي الإجابة عن السؤال الثاني، يقول الطبري: «وأولى القولين في ذلك بتأويل الآية، تأويل من قال: ذلك نهى من الله المؤمنين عن أن يقربوا الصلاة وهم سُكَارَى من الشراب قبل تحريم الخمر، للأخبار المتظاهرة عن أصحاب رسول الله -

(١) تفسير الطبري ٨ / ٣٧٧، ٣٧٦.

(٢) أسباب النزول ١ / ١٠٢، ١٠٣.

(٣) التحرير والتنوير ٤ / ١٤٠.

(٤) تفسير الطبري ٨ / ٣٧٧.

﴿...﴾ - بأن ذلك كذلك، نهي من الله، وأن هذه الآية نزلت فيمن ذكرت أنها نزلت فيه^(١). وذكر الرايين أبو حيان إلا أنه زاد رأياً ثالثاً ولكنه رجح الرأي الأول فقال: (والجمهور على أن المراد: وأنتم سكارى من الخمر، وقيل: المراد السكر من النوم، لقوله ﷺ: «إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإنه لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه» وقيل...: المراد بقوله وأنتم سكارى إذا كنتم حاقنين، لقوله ﷺ: «لا يصلين أحدكم وهو حاقن» وفي رواية: «وهو ضام فخذيه»^(٢)).

ويرجح الباحث الرأي الأول؛ وذلك بتعاقب السياقين معاً - اللغوي وأسباب النزول «غير اللغوي»؛ وذلك لأن الآية تمثل مرحلة من مراحل تحريم شرب الخمر مع ما قبلها في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ﴾ (البقرة: ٢١٩)، وما بعدها في سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة: ٩٠)، وهو يمثل السياق اللغوي، ومع الأخذ بأسباب النزول وهو يمثل السياق غير اللغوي.

(أ-٢) الأعراف:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّنَا وَلَعَلَّهُمْ يَرْشِقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤). اختلف أهل العلم في هذه الفرقة التي قالت: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهِ مُهْلِكُهُمْ﴾، هل كانت من الناجية، أم من الهالكة؟!.. ذكر الطبري دون ترجيح فقال: «فقال بعضهم: كانت من الناجية، لأنها كانت هي الناهية الفرقة الهالكة عن الاعتداء في السبت. وقال آخرون: بل الفرقة التي قالت: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهِ مُهْلِكُهُمْ﴾، كانت من الفرقة الهالكة»^(٣). وجاء في سبب

(١) تفسير الطبري ، ٣٧٨ / ٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٤١ / ٤. القرطبي، ٢٠١ / ٥.

(٣) تفسير الطبري ١٩٦ / ١٣: ١٩٩.

نزول الآية - سياق الموقف «غير اللغوي» - : «عن عكرمة قال: جثت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تَقَدَّمْتُ فَجَلَسْتُ، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس، جعلني الله فداك؟ فقال: هؤلاء الورقات! قال: وإذا هو في «سورة الأعراف»، قال: تَعْرِفُ آيَةَ! قلت: نعم! قال: فإنه كان حي من يهود، سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرُونَ عليها حتى يَغُوصُوا، بعد كدٍّ ومؤنة شديدة، كانت تأتِيهم يوم السبت شرعاً بيضاً سماناً كأنها الماخض، تنبطحُ ظهورُها لبطونِها بأفئدتهم وأبنتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام! فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة منهم: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها في يوم السبت. وكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فعدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحّت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم! الله، الله، ننهاكم أن تعترضوا لعقوبة الله! وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمَ اللَّهِ مُهُلِكُهُمْ أَوْ تُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾؟ قال الأيمنون: ﴿مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتتهون، هو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم يتتهوا فمعدرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة، فقال الأيمنون: قد فعلتم، يا أعداء الله! والله لا نُبَايِعُكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصيبكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده بالعذاب! فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلماً، وأعلوا سور المدينة رجلاً فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردةٌ والله تعاوى لها أذنان! قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فتقول لهم: ألم ننهاكم عن كذا؟ فتقول برأسها: نعم! ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَكَ عَنِ الشُّرُوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا». قال: فأرى اليهود الذين نَهَوْا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكِرُوا، ونحن نرى أشياء ننكرها فلا نقول فيها! قال قلت: إنَّ جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كَرِهُوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾؟ قال: فأمر بي فكسيت بُرْدَيْنِ غليظين^(١). أي: أن ابن عباس أظهر خوفه لعدم وضوح نجاة الطائفة - استناداً إلى سياق الموقف فقط «سبب النزول» - التي تنحت ولم تعظ، وحينما ذكر له عكرمة - استناداً إلى السياق اللغوي - أنهم من الناجين؛ لأنهم كَرِهُوا ما عليه الطائفة الظالمة انشرح صدره وأهداه البردين.

أما الزمخشري فإنه يرجح كون الفرقة التي قالت ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا﴾ أنها من الناجين استناداً إلى السياق اللغوي، وكذلك سياق حال القوم، فقال: «فإن قلت: الأمة الذين قالوا ﴿لَمْ تَعْظُونْ﴾ من أي الفريقين هم أمن فريق الناجين أم المعذبين؟ قلت: من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين. وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم. وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهي لا يؤثر فيه، سقط عنه النهي، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث. ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه، كان ذلك عبثاً منك، ولم يكن إلا سبباً للتلهي بك. وأما الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم إماماً لأن يأسهم لم يستحکم كما استحکم یأس الأولین، ولم یخبروهم كما خبروهم، أو لفرط حرصهم وجدهم في أمرهم كما وصف الله - تعالى - رسوله - ﷺ - في قوله ﴿فَلَمَّا كَبَتْ جُنُوحُ النَّفْسِ﴾ (الكهف: ٦). وقيل: الأمة هم الموعوظون، لما وعظوا قالوا للواعظين: لم

(١) تفسير الطبري، ١٣/١٨٩.

تعظرون منا قوماً تزعمون أن الله مهلكهم أو معذبهم ؟^(١) . وكذلك ذهب القرطبي
مذهب الزمخشري، فقال: «ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غير قوله:
﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ . وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الآية»^(٢) .
وقد أكد ابن عاشور كون هذه الفرقة من الناجين اعتماداً على السياقين معاً -
اللغوي وغير اللغوي «سياق الحال» - فقال: «قال المفسرون: إن أمة من بني إسرائيل
كانت دائبة على القيام بالموعظة والنهي عن المنكر، وأمة كانت قامت بذلك ثم أيست من
اتعاط الموعوظين وأيقنت أن قد حقت على الموعوظين المصمين آذانهم كلمة العذاب،
وأمة كانت سادرة في غلوائها لا ترعوي عن ضلالتها ولا ترقب الله في أعمالها. وقد
أجملت الآية مما كان من الأمة القائلة إيجازاً في الكلام اعتماداً على القرينة؛ لأن قولهم ﴿اللَّهُ
مُهْلِكُهُمْ﴾ يدل على أنهم كانوا منكبين على الموعوظين. وأنهم ما علموا أن الله مهلكهم
إلا بعد أن مارسوا أمرهم وسبروا غورهم ورأوا أنهم لا تغني معهم العظات ولا يكون
ذلك إلا بعد التقدم لهم بالموعظة. وبقريئة قوله بعد ذلك: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَكَ عَنِ الشُّؤْمِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيعِيسٍ﴾؛ إذ جعل الناس فريقين فعلمنا أن القائلين من الفريق
الناجي؛ لأنهم ليسوا بظالمين، وعلمنا أنهم ينهون عن سوء»^(٣) .

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ

الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَٰوِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٥). يروي أن الذي أوتي الآيات
قولين: أحدهما: رجل من بني إسرائيل، والثاني: أمية بن أبي الصلت. وقد ذكر
القولين الطبري فقال: «واختلف أهل التأويل فيه. فقال بعضهم: هو رجل من بني
إسرائيل. وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت. وقال آخرون: كان بلعم هذا من أهل

(١) الكشاف، ١٦٢/٢.

(٢) تفسير القرطبي، ٣٠٧/٧.

(٣) التحرير والتنوير، ١٦٦٢/١.

اليعن، وقال آخرون: كان من الكنعانيين^(١). ويذكر ابن عاشور القولين غير أنه زاد قولاً ثالثاً فقال: «وظاهر اسم الموصول المفرد أن صاحب الصلة واحد معين، وأن مضمون الصلة حال من أحواله التي عرف بها، والأقرب أن يكون صاحب هذا النبأ من للعرب إمام بمجمل خبره، فقليل المعنى به أمية بن أبي الصلت الثقفي...؛ ذلك أن أمية بن أبي الصلت الثقفي كان ممن أراد اتباع دين غير الشرك طالبا دين الحق ونظر في التوراة والإنجيل فلم ير النجاة في اليهودية، ولا النصرانية، وتزهد وتوخي الحنيفية دين إبراهيم، وأخبر أن الله يبعث نبياً في العرب فطمع أن يكونه...، فلما بُعث محمد - ﷺ - أسف أن لم يكن هو الرسول المبعوث في العرب...، وروي عن أمية أنه قال لما مرض مرض مريض موته: أنا أعلم أن الحنيفية حق ولكن الشك يداخلني في محمد - ﷺ -، وقيل: نزلت في أبي عامر بن صيفي الراهب واسمه النعمان الخزرجي وكان يلقب بالراهب في الجاهلية؛ لأنه قد تنصر في الجاهلية، ولبس المسوح، وزعم أنه على الحنيفية فلما قدم النبي - ﷺ - المدينة دخل على النبي فقال: يا محمد ما الذي جئت به؟ قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم. قال: فإني عليها فقال النبي: لست عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها» فكفر وخرج إلى مكة؛ يحرض المشركين على قتال النبي - ﷺ - ويخرج معهم إلى أن قاتل في حنين بعد فتح مكة فلما انهزمت هوازن ينس وخرج إلى الشام فمات هنالك.

وذهب كثير من المفسرين إلى أنها نزلت في رجل من الكنعانيين وكان في زمن موسى - عليه السلام - يقال له بلعام بن باعور وذكروا قصته فخلطوها، وغيرها واختلفوا فيها، والتحقيق أن بلعام هذا كان من صالحى أهل مدين وعرافيهم في زمن مرور بني إسرائيل على أرض (مؤاب)، ولكنه لم يتغير عن حال الصلاح وذلك مذكور

(١) تفسير الطبري، ١٣/٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥.

في سفر العدد من التوراة في الإصحاحات [٢٢ - ٢٣ - ٢٤]، فلا ينبغي الالتفات إلى هذا القول لاضطرابه واختلاطه^(١).

ويرى الباحث: ترجيح قول ابن عاشور - كون الذي أوتي الآيات أمية بن أبي الصلت - هو الصواب؛ استناداً لسياق الحال لكل من الشخصيات موضع الاختلاف، حيث وجد أن أقرب الشخصيات استناداً إلى دراسة حالهم هو أمية بن أبي الصلت - هو الصواب؛ لأن السياق ومنه سياق الحال يرجح لنا أحد أسباب النزول إذا تعدد، كما أن أسباب النزول يرجح لنا أحد احتمالات السياق للترجيح - كذلك - إذا تعدد.

(ب) معرفة الناسخ والمنسوخ

تعتمد معرفة الناسخ والمنسوخ - على أرجح الأقوال - على زمن نزول الآيات، أو مكان نزولها، ومن المعروف بما سبق القول فيه أن الزمان والمكان من عناصر سياق الموقف (السياق غير اللغوي)، وبما لا شك فيه أن معرفة الزمان والمكان له من الأهمية - خاصة - في ترتيب الأحداث وما استقرت عليها الأحكام الفقهية...، مما يعني أن تجاهلها يؤدي إلى إرباك النص بل إرباك المتلقي وفقدان النص لأهم معايير تماسكه - سبكه وحبكه - كما بينا سابقاً - وقصده وقبوله^(٢). وقد اختلف في الناسخ والمنسوخ، لكن أرجح الأقوال ما أورده الزركشي - في البرهان حيث يقول: «الآيتان إذا أوجبتا حكمين مختلفين وكانت إحداها متقدمة الأخرى، فالتأخرة ناسخة الأولى»^(٣)، وهو هنا يجعل المقياس زمن نزول الآيتين ثم يقول: «وقيل: ما نزل بالمدينة ناسخ لما نزل بمكة»^(٤)، وهو هنا يجعل المقياس هو مكان نزول الآيتين.

(ب-١) النساء:

(١) التحرير والتوير ١/ ١٦٧٢، ١٦٧٣.

(٢) انظر للتفصيل: فصل القصد والقبول، ص ٢٨١: ٢٣٣.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٣٦.

(٤) نفسه، ٢/ ٣٦.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ إِسَاءَاتِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ النساء: ١٥ يقول الزمخشري: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ قيل معناه فخلدوهن محبوسات في بيوتكم وكان ذلك عقوبتهن في أول الإسلام ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ (الآية النور ٢)^(١)، وبالمثل قال القرطبي^(٢)، ويؤكد ابن عاشور حجة النسخ فيقول: وجزمنا بأن أول هذه السورة نزل قبل أول سورة النور وأن هذه العقوبة كانت مبدأ شرع العقوبة على الزنا فتكون هاته الآية منسوخة بآية سورة النور لا محالة كما يدل عليه قوله ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ قال ابن عطية: أجمع العلماء على أن هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور^(٣).

يتضح لنا أن ظاهر النص - دون مراعاة السياق بنوعيه - يجعل عقوبة الزانية الحبس في البيوت حتى يأتي أجلهن، ولكن السياق اللغوي لنفس الآية يؤكد على أن هذا الحكم مؤقت حتى يحكم الله حكماً آخر، بدليل قوله - تعالى -: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ بعد قوله - تعالى -: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾، ثم يأتي سياق الموقف (غير اللغوي) الذي يوضح لنا زمن ترتيب الآية لنفس الحكم الشرعي مع آية سورة النور؛ فيتضح أن الآية قد نسخت بآية النور وأصبح الحكم الذي استقر عليه الفقهاء هو الجلد أو الرجم. وبذلك فقد تعانق السياق - بنوعيه - في تماسك النص القرآني؛ لمعرفة الفهم الصحيح للحكم الشرعي لعقوبة الزنا الذي استقر عليه في الإسلام

(١) الكشف، ١/٥١٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سميح البخاري، دار عالم الكتب، ط ٢، الرياض، المملكة العربية السعودية ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣ م، ٨٤/٥.

(٣) التحرير والتنوير، ١/٩٠٩.


• قَالَ تَمَّالٌ: ﴿وَالْمُتَعَمِّتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُجِّلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْتَفْجِينَ﴾ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٢٤). يقول الزنجشري: «قيل: نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله - ﷺ - ثم نسخت؛ كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً: ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً بثوب أو غير ذلك، ويقضي منها وطره ثم يسرحها، وسميت متعة؛ لاستمتاعه بها أو لتمتيعه لها بما يعطيها»^(١). ثم يذكر الزنجشري نسخ هذه الآية بما ورد في السنة فيقول: «وعن عمر أنه قال: لا أوتى برجل تزوج امرأة إلى أجل إلا رجعتها بالحجارة، وعن النبي - ﷺ - أنه أباحها ثم أصبح يقول: (يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء إلا أن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة)، وقيل أبيح مرتين وحرم مرتين، وعن ابن عباس هي محكمة يعني: لم تنسخ، وكان يقرأ (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى) ويروى أنه رجع عن ذلك عند موته، وقال اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة»^(٢).

يقول القرطبي: «واختلف العلماء في معنى الآية، فقال الحسن ومجاهد وغيرهما: المعنى فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن...، وقال ابن خويز منداد: ولا يجوز أن تحمل الآية على جواز المتعة، لأن رسول الله - ﷺ - نهى عن نكاح المتعة وحرمه؛ ولأن الله تعالى - قال: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، ومعلوم أن النكاح بإذن الأهلين هو النكاح الشرعي بولي وشاهدين، ونكاح المتعة ليس كذلك. وقال الجمهور: المراد نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام. وقرأ ابن عباس وأبي وابن جبير (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى

(١) الكشف ١٠ / ٥٣٠.

(٢) نفسه، ١ / ٥٣٠.

فأنوهن أجورهن) ثم نهى عنها النبي ﷺ، وقال سعيد بن المسيب: نسختها آية الميراث، إذ كانت المتعة لا ميراث فيها، وقالت عائشة والقاسم بن محمد: تحريمها ونسخها في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلِأَنَّهُمْ غَيْرَ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون: ٥ - ٦). (وليست المتعة نكاحاً ولا ملك يمين، وروى الدارقطني عن علي بن أبي طالب قال: نهى رسول الله ﷺ عن المتعة، قال: وإنما كانت لمن لم يجد، فلما نزل النكاح والطلاق والعدة والميراث بين الزوج والمرأة نسخت.... إلخ^(١)).

يتضح لنا مما سبق أن ظاهر النص القرآني يبيح للمسلمين نكاح المتعة على إطلاقه، وليس في القرآن نص صريح على تحريمه، ولكن (سياق الموقف) الذي يوضح لنا ليس في النص القرآني فحسب وإنما في السنة المطهرة أيضاً - أن هذا النوع من الأنكحة قد حرمها الإسلام بما ورد في صحيح السنة عن النبي ﷺ - وصحابته -  ومن ثم كان دور السياق في تحديد الحكم الشرعي لنكاح المتعة في الإسلام.

(ج) تحديد المعنى الدلالي المقصود:

إن السياق يلعب دوراً مهماً في تحديد المعنى الدلالي المقصود للنص؛ حيث إن النص الواحد قد يمتلك غير دلالة إلا أن الذي يحدد إحدى هذه الدلالات هو السياق بنوعيه أو أحدهما، ويؤكد الدكتور محمد حماسة على هذا المعنى فيقول: «إن دلالة السياق تجعل الجملة الواحدة إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة تختلف معناها الدلالي باختلاف السياق الذي قيلت فيه، وذلك مهما كانت بساطة الجملة...»^(٢).

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد السبردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ١٢٨/٥: ١٣٠.
(٢) النحو والدلالة ص ١١٣..

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ

وَأَحَدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّنِ﴾ (النساء: ١٢). يقول الزمخشري: «فإن قلت ما الكلالة؟

قلت: ينطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولداً ولا والدًا، وعلى من ليس بولد ولا والد

من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد، ومنه قولهم ما ورث المجد عن

كلالة...، والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو ذهاب القوة من الأعياء^(١)

فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد^(٢). ويقول القرطبي: «قوله تعالى:-

﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً﴾ الكلالة مصدر؛ من تكلله النسب أي

أحاط به. وبه سمي الإكليل، وهي منزلة من منازل القمر لإحاطتها بالقمر إذا احتل

بها. ومنه الإكليل أيضا وهو التاج والعصابة المحيطة بالرأس. فإذا مات الرجل وليس

له ولد ولا والد فورثته كلالة. هذا قول أبي بكر الصديق وعمر وعلي وجهور أهل

العلم....، وأجمعوا على أن الكلالة من مات ليس له ولد ولا والد....، فسموا القرابة

كلالة؛ لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه وليسوا منه ولا هو منهم، وإحاطتهم به أنهم

يتسبون معه. كما قال أعرابي: مالي كثير ويرثني كلالة متراخ نسبهم^(٣).

يتبين لنا أن معنى الكلالة اللغوي: بمعنى أحاط أو ذهاب القوة، وقد

استعمل اللفظ في غير معناه اللغوي إلى معنى دلالي آخر فهم من سياق

الموقف (السياق غير اللغوي) وهي أقوال الصحابة - رضي الله عنهم، كما نستطيع أن نقول: إن

السياق اللغوي يؤكد ذلك - أيضاً - من خلال ما ذكرته الآية قبل ذكر الكلالة من

(١) الكشف ٥١٦/١.

(٢) يقال هو مصدر من تكلله النسب أي: تطرفه؛ كأنه أخذ طرفيه من جهة الولد والوالد، وليس له منها أحد؛ فسمي بالمصدر، لسان العرب، ١١/ ٥٩٠، مادة (كلل).

(٣) تفسير القرطبي، ٥/ ٧٦.

وجود الولد أو عدم وجوده للزوج أو الزوجة، وحينما ذكر الكلالة سواء كان رجلاً أم امرأة لم يذكر معها الولد، فأصبح الميت بلا ولد وارث، فأحاطته قرابته وهم ليسوا منه ولا هو منهم بمنزلة الوالد أو الولد، هذا والله أعلم. وللألوسي كلام طيب - أيضاً - قريب من نفس المعنى^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْتَغْفِرُونَكَ فِي الْإِنْسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُغْفِرُكُمْ فِيهِمْ وَمَا يَسْتَلِ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَمَى الْإِنْسَاءِ لَيْقَ لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَظْهَرِينَ مِنْ الْأَوْلَادِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٢٧). فإن قوله تعالى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ من المعاني التي تحمل معنيين متضادين، أحدهما: وترغبون في أن تنكحوهن، والآخر: وترغبون عن أن تنكحوهن، ولا يحدد السياق اللغوي أحد المعنيين دون الآخر. يقول ابن عاشور: «ولحذف حرف الجر بعد ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ هنا موقع عظيم من الإيجاز وإكثار المعنى، أي: ترغبون عن نكاح بعضهن وفي نكاح بعض آخر، فإن فعل رغب يتعدى بحرف (عن) للشيء الذي لا يحب؛ ويحرف (في) للشيء المحبوب. فإذا حذف حرف الجر احتمل المعنيين إن لم يكن بينهما تناف»^(٢).

ولكن سياق الموقف يساعد على تحديد أحد المعنيين دون الآخر، يقول القرطبي: «وقوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: وترغبون عن أن تنكحوهن، ثم حذف (عن)، وقيل: وترغبون في أن تنكحوهن ثم حذف (في)، قال (سعيد بن جبیر ومجاهد): ويرغب في نكاحها إذا كانت كثيرة المال، وحديث (عائشة) يقوي حذف (عن) فإن في حديثها: وترغبون أن تنكحوهن رغبة أحدكم عن يتيمة التي

(١) روح المعاني ٤/ ٢٣٣.

(٢) التحرير والتنوير، ١/ ١٠٣٢.

تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال^(١). أي أنه إذا كانت اليتيمة كثيرة المال والجمال كانت سيئاً في الرغبة فيهن للزواج، والعكس صحيح - أيضاً - إذا كانت اليتيمة قليلة الجمال والمال كانت سيئاً في الرغبة عنهن للزواج بهن. إذن: سياق الموقف يحدد أحد المعنيين بحسب الموقف، فإذا كانت اليتيمة كثيرة المال موفرة الجمال فإن الموقف يستدعي معنى الرغبة في الزواج، أما إذا كانت اليتيمة قليلة المال والجمال فإن الموقف يستدعي معنى الرغبة عن الزواج، والإعراض عنه، وبذلك فكل موقف يحدد المعنى الذي يتلائم معه.

(ج-٢) الأعراف:

• قَالَ قَالَ: ﴿يَنْبَغُ آدَمَ لَا يَقْبَلَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧). هل المقصود بتنزع اللباس هو ما تعارف عليه الناس أم أنه مجاز عن شيء آخر كالنور مثلاً أو التقوى؟ ذكر الطبري الأقوال الثلاثة ولكنه رجح الرأي الأول، فقال: «وقد اختلف أهل التأويل في صفة (اللباس) الذي أخبر الله - جل ثناؤه - أنه نزعه عن أبوين، وما كان. فقال بعضهم: كان ذلك أظفاراً...، وقال آخرون: كان لباسهما نوراً...،

وقال آخرون: إنما عني الله بقوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، يسلبها تقوى الله. والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أن يقال: إن الله - تعالى - حذر عباده أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم آدم وحواء، وأن يجردهم من لباس الله الذي أنزله إليهم، كما نزع عن أبويهم لباسهما. (اللباس) المطلق من الكلام بغير إضافة إلى شيء في متعارف الناس، وهو ما اجتناب فيه اللابس من أنواع الكُسي، أو غطى بدنه أو بعضه.

(١) تفسير القرطبي، ٤٠٣/٥.

وإذا كان ذلك كذلك، فالحق أن يقال: إن الذي أخبر الله عن آدم وحواء من لباسها الذي نزع عنها الشيطان، هو بعض ما كانا يواريان به أبدانها وعورتها^(١). ويذكر أبو حيان الرايين مع ترجيح الرأي الأول، فيقول: «والظاهر أن لباسها هو الذي كان عليهما في الجنة»^(٢). أما ابن عاشور، فيقول: «واللباس يجوز هنا أن يكون حقيقة وهو لباس جليلهما الله به في تلك الجنة يحجب سواتهما كما روى أنه حجاب من نور وروى أنه كقشر الأظفار وهي روايات غير صحيحة والأظهر أن نزع اللباس تمثيل لحال التسبب في ظهور السوء...، ولما كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بورق الجنة منه عليه وقد تقلدها بنوه خوطب الناس بشمول هذه المنة لهم بعنوان يدل على أنها منة موروثه وهي أوقع وأدعى للشكر...، واللباس اسم لما يلبسه الإنسان أي يستر به جزءاً من جسده فالقميص لباس والإزار لباس والعمامة لباس ويقال لبس التاج ولبس الخاتم قال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (فاطر: ١٢)....»^(٣).

ويرى الباحث أن دلالة اللفظ تشمل كل المعاني ولا تعارض بينهما إلا أن سياق الآيات السابقة يرجح ما ذهب إليه الطبري وأبو حيان وابن عاشور من تحديد المعنى باللباس المعروف والمتعارف عليه بين الناس وذلك لقوله: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ قَدْ أَزَلَكَا عَلَيْكُمَا لِبَاسًا﴾، وقوله: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ الْيَلَّ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤). يقول الزمخشري: «أي

(١) تفسير الطبري، ٣/ ٣٧٤، ٣٧٥.

(٢) البحر المحيط، ٥/ ٣٢٩.

(٣) التحرير والتنوير، ١/ ١٥١٢، ١٥١٣.

يلحق الليلُ النهارُ، أو النهارُ بالليلِ يحتملها جميعاً. والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس: يغشى الليلُ النهارُ، بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار، أي يدرك النهارُ الليلَ ويطلبه حيثاً، حسن الملاءمة لقراءة حميد^(١). يقول السمرقندي: «قال تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ يعني أن الليل يأتي على النهار فيغطيه، ولم يقل يغشى النهار الليل؛ لأن في الكلام دليلاً عليه وقد بين في آية أخرى ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر ٥)، فكذلك هاهنا معناه يغشى النهار الليل ويغشى الليل النهار يعني إذا جاء النهار يذهب بظلمة الليل وإذا جاء الليل يذهب بنور النهار^(٢). فقد اعتمد كل من الزمخشري والسمرقندي على السياق اللغوي في تفسير معنى ﴿يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ في الآية وهو أن كليهما يغشي الآخر وهو من التراكيب النحوية، فقد اعتمد الزمخشري على قراءة حميد بن قيس، واعتمد السمرقندي على آية الزمر، وكلاهما سياق لغوي.

(د) اختيار صيغة صرفية معينة:

قد يفرض السياق صيغة صرفية معينة، فقد يستعمل (التصغير) مثلاً للتقليل من شأن المتحدث عنه، وقد تستخدم (صيغ المبالغة) عندما تراد المبالغة والتكثير، ومن ذلك:

(د-١) النساء:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَمِّنِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَلَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧). يقول الألوسي حول صيغة الفعل (توفاهم) كونه للماضي أو للمضارع: «وتوفاهم محتمل: أن يكون ماضياً وتركت علامة التانيث للفصل، ولأن الفاعل غير المؤنث حقيقي، ويحتمل: أن يكون مضارعاً، وأصله تتوفاهم؛ فحذفت إحدى

(١) الكشف ٢/ ١٠٤.

(٢) السمرقندي، بحر العلوم، ت: محمود مطرجي، ط ١، دار الفكر، بيروت، ١/ ٥٣٧.

التاءين تخفيفاً، وهو لحكاية الحال الماضية، ويؤيد الأول قراءة من قرأ توفتهم والثاني قراءة إبراهيم توفاهم بضم التاء على أنه مضارع^(١)، وبالمثل قال من قبل الزمخشري^(٢)، وأبو حيان^(٣). ويرى الباحث أننا لا نستطيع أن نحدد أي الصيغتين أولى، ولكن السياق اللغوي للحوار بين الملائكة والذين توفاهم يغلب عليه صيغة الماضي مثل: قالوا - كنتم... إلخ، مما يرجح صيغة الماضي للفعل توفاهم، وخاصة أن المعنى لا يتغير لكونه ماضياً أو مضارعاً، وذلك لأن المضارع هو أيضاً لحكاية الحال الماضية، وكلاهما يفيد التوكيد والتحقيق، والله أعلم.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ

خَوَّافًا أَثِيمًا﴾ (النساء: ١٠٧). يقول أبو حيان: «أتى بصيغة المبالغة في الخيانة والإثم ليخرج منه من وقع منه المرة، ومن صدرت منه الخيانة على سبيل الغفلة وعدم القصد»^(٤)، ويقول البيضاوي: «مبالغة في الخيانة مصراً عليها»^(٥). وإذا ما عرفنا (سياق الموقف) - من خلال سبب نزول الآية - تبين لنا ضرورة استخدام السياق لصيغة المبالغة، وصحة ما ذهب إليه أبو حيان والبيضاوي.

يقول الواحدي: «روي أن طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر سرق درعاً من جار له اسمه قتادة بن النعمان في جراب دقيق فجعل الدقيق يتثر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين رجل من اليهود، فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها، وما له بها علم فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي

(١) روح المعاني، ٥/ ١٢٥.

(٢) الكشف، ١/ ٥٨٧.

(٣) البحر المحيط، ٤/ ٢٤٥.

(٤) البحر المحيط، ٤/ ٢٥٩.

(٥) تفسير البيضاوي، ٢/ ٢٤٩.

فأخذوها، فقال دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر انطلقوا إلى رسول الله - ﷺ - فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك واقتضح، وبرى اليهودي، فهم رسول الله - ﷺ - أن يفعل وأن يعاقب اليهودي، وقيل هم أن يقطع يده فنزلت. وروي أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله^(١).

وهذا ما أكدته الزمخشري - من قبل - بقوله: «..على المبالغة قلت: كان الله عالماً من طعمة بالإفراط في الخيانة، وركوب المآثم، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك في حاله، وقيل اذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر - رضي الله عنه - أنه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكي، وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه، فقال: كذبت إن الله لا يؤخذ عبده في أول مرة^(٢)».

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَكُنْ ذُرِّيَّتَهُمْ جَنَّاتٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء: ١٢٢). يقول أبو حيان في تفسير اختيار صيغة المصدر لكل من (وعد، وحقاً، وقيلاً): «لما ذكر أن وعد الشيطان هو غرور باطل، ذكر أن هذا الوعد منه - تعالى - هو الحق الذي لا ارتياب فيه، ولا شك في إنجازه، وانتصب وعد الله حقاً على أنه مصدر مؤكد لغيره، فوعد الله مؤكداً لقوله: سيدخلهم، وحقاً مؤكداً لوعد الله. والقييل والقول واحد، أي: لا أحد أصدق قولاً من الله، وهي جملة مؤكدة أيضاً لما قبلها، وفائدة هذه

(١) الواحدي، النيسابوري، أسباب نزول القرآن، ت: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ط ٢، دار الإصلاح، الدمام، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ١/١٨١.
(٢) الكشف، ١/٥٩٦.

التواكيد المبالغة فيما أخبر به تعالى عباده المؤمنين، بخلاف مواعيد الشيطان وأمانته الكاذبة المخلفة لأمانيه^(١).

ويؤكد ابن عاشور قول أبي حيان فيقول: «وقوله (وَعَدَ اللَّهُ) مصدر مؤكد لمضمون جملة (مَكُنْ خَلُوهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي) الخ، وهي بمعناه؛ فلذلك يسمي النحاة مثله مؤكداً لنفسه أي: مؤكداً لما هو بمعناه، وقوله (حقاً) مصدر مؤكد لمضمون (مَكُنْ خَلُوهُمْ جَنَّاتٍ) إذ كان هذا في معنى الوعد أي: هذا الوعد أحققه حقاً أي: لا يتخلف، ولما كان مضمون الجملة التي قبله خالياً عن معنى الإحفاق كان هذا المصدر مما يسميه النحاة مصدراً مؤكداً لغيره، وجملة (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) تذييل للوعد وتحقيق له أي: هذا من وعد الله، ووعد الله وعود صدق إذ لا أصدق من الله قِيلًا^(٢).

ويرى الباحث أن السياق اللغوي للآيات التي سبقت هذه الآية والتي تحدثت عن وعود الشيطان وأمانيه الكاذبة الخادعة، أتت بهذه المصادر لتحقيق التوكيد بل المبالغة في التوكيد لوعد الله - سبحانه وتعالى -؛ طمأنة للمؤمنين وحسرة للكافرين.

(د-٢) الأعراف:

• قَالَ تَعَالَى: (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَكَمَارَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝) وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين (الأعراف: ٢٠ - ٢١). يقول الزمخشري: «قلت: كأنه قال لهما: أقسم

(١) البحر المحيط، ٤/ ٢٧٣.

(٢) التحرير والتنوير، ١/ ١٠٢٩.

لكما إني لمن الناصحين، وقالوا له أتقسم بالله إنك لمن الناصحين، فجعل ذلك مقاسمة بينهم. أو أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها. أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة؛ لأنه اجتهد فيه اجتهد المقاسم^(١). يقول البيضاوي: «أي: أقسم لهما على ذلك، وأخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة، وقيل أقسما له بالقبول، وقيل أقسما عليه بالله انه لمن الناصحين، فأقسم لهما؛ فجعل ذلك مقاسمة»^(٢). فقد استخدم السياق صيغة المفاعلة، ومعلوم من (سياق الموقف) أن إبليس - لعنه الله - لا يعمل ولا يألو جهداً في الإيقاع ببني آدم في المعصية، فناسب ذلك استخدام صيغة المفاعلة للمبالغة.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَنْقَوِرْ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٦). يوضح الزمخشري العلة في اختيار صيغة (ضلالة) بدلاً من (ضلال) استناداً إلى السياق الثقافي والاجتماعي للعرب، فيقول: «فإن قلت: لم قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ ولم يقل ضلالاً كما قالوا؟ قلت: الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر، فقلت: ما لي ثمرة»^(٣). في حين نجد أن ابن عاشور يخالف الزمخشري، ويرى أن اختيار صيغة (ضلالة) لمجرد التباين بينها وبين صيغة (ضلال) في الآية السابقة، فيقول: «والضلالة مصدر مثل الضلال فتأنيثه لفظي محض، والعرب يستشعرون التأنيث غالباً في أسماء أجناس المعاني مثل: الغواية والسفاهة فالتاء لمجرد تأنيث اللفظ وليس في هذه التاء معنى الوحدة؛ لأن أسماء أجناس المعاني لا تراعى فيها الشخصيات فليس الضلال بمتزلة اسم الجمع للضلالة خلافاً لما في الكشف وكأنه حاول إثبات

(١) الكشف ٩١/٢.

(٢) تفسير البيضاوي، ١٢/٣.

(٣) الكشف، ١٠٨/٢.

الفرق بين قول قومه له: «إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ»، وقوله هو: «لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ»...، ولا حاجة إلى ذلك؛ لأن التخالف بين كلمتي ضلال وضلالة اقتضاه التفنن حيث سبق لفظ ضلال وموجب سبقه إرادة وصفه بـ (مبين) فلو عبر هنالك بلفظ ضلالة لكان وصفها بمبينة غير مألوف الاستعمال، ولما تقدم لفظ (ضلال) استحس أن يعاد بلفظ يغايره في السورة دفعاً لثقل الإعادة؛ فقوله «لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ» رد لقولهم «إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» بمساوية لا بأبلغ منه^(١).

غير أن الباحث يؤيد رأي الزمخشري، وذلك؛ لأن قوم نوح وصفوه بالضلال المبين، وهو الضلال البالغ الغاية في البعد عن طريق الحق، وهذه شبهة منهم فإنهم قد توهموا أن الحق هو ما هم عليه، فلا عجب إذا جعلوا ما بعد عنه بعداً عظيماً ضلالاً بئناً؛ لأنه خالفهم وجاء بما يعدونه من المحال؛ فاستلزم أن يأتي سياق الكلام على لسان نبي الله نوح بنفي تلك الشبهة العظيمة بصيغة المبالغة - أيضاً - في أقل درجاتها وأصغر صورها، بالإضافة إلى الكفاءة اللغوية لأصحاب اللغة التي تجعل نفي الشيء الأقل تأكيداً على نفي الأكبر لا محالة، ومن ثم يتعاقب السياق اللغوي مع السياق الاجتماعي في تحقيق فهم المعنى من الحوار بين نبي الله نوح وبين قومه.

(هـ) الإجابة عن سؤال السائل: لماذا هذا المذكور خاصة؟

وذلك عندما يرد ذكر لفظ بعينه في نص ما أو ذكر أحد عناصر السياق غير اللغوي، ولا يتبين لمتلقي النص سبب ذكر هذا اللفظ خاصة، أو هذا العنصر؛ فنستعين بالسياق - بنوعيه أو أحدهما - وعندها ينجلي لنا الأمر، ومن ذلك:

(هـ-١) النساء،

(١) التحرير والتنوير، ١/ ١٥٦٤.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ الْيَسَلَىٰ مَثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرَبْعٌ فَلِئَلَّا تُؤْتُوا عَصَاجًا أَوَّاهًا مَّاءً مَّاءً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدَقُّ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣).

جاء في الآية الكريمة استخدام حرف العطف (الواو) دون غيره من بقية أدوات وحروف العطف في قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرَبْعٌ﴾ فلماذا حُصِرَ دون غيره؟ يقول الزمخشري: «فإن قلت: فلم جاء العطف بالواو دون أو؟ قلت: كما جاء بالواو في المثال الذي حدوته لك، ولو ذهبت تقول: اقتسموا هذا المال درهمين درهمين، أو ثلاثة ثلاثة، أو أربعة أربعة؛ أعلمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة، وليس لهم أن يجمعوا بينها؛ فيجعلوا بعض القسم على ثنية، وبعضه على تثليث، وبعضه على تربيع، وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذي دلت عليه الواو؛ وتحريره أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع إن شاءوا ومختلفين في تلك الأعداد، وإن شاءوا متفقين فيها محظوراً عليهم ما وراء ذلك»^(١). فالزمخشري استند إلى السياق اللغوي في تفسير أعداد الزوجات التي يجوز للرجل الجمع بينهم بناءً على الفرق اللغوي بين حرفي العطف (الواو وأو)، كما اعتمد - أيضاً - على سياق الحال أو الموقف «وهو الحكم الشرعي الجائز لأعداد الزوجات للرجل الواحد» في تفسير سبب وعلة اختيار حرف العطف (الواو) - خاصة - دون أو مثلاً.

وأما الألوسي - فنجد مفسراً ومعللاً السبب معتمداً على السياق اللغوي - فيقول «أنه إنما أتى بالواو دون أو؛ ليفيد الكلام أن تكون الأقسام على هذه الأنواع غير متجاوز إياها إلى ما فوقها، لا أن تكون على أحد هذه الأنواع غير مجموع بين اثنين منها، وذلك بناءً على أن الحال بيان لكيفية الفعل، والقييد في الكلام نفي لما يقابله،

(١) الكشف ٤٩٩/١.

والواو ليست لأحد الأمرين أو الأمور كأو، وهذا يتدفع ما ذهب إليه البعض من جواز التسع تمسكاً بأن الواو للجمع؛ فيجوز الثتان والثلاث والأربع وهي تسع، وذلك لأن من نكح الخمس أو ما فوقها لم يحافظ على القيد، أعني: كيفية النكاح وهي كونه على هذا التقدير والتفصيل، بل جاوزه إلى ما فوقه^(١).

• قَالَ تَمَّالُ: «الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَوِدْ عَلَيْهِمْ وَنَمَنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» (النساء: ١٤١). يقول الزمخشري: «فإن قلت لم سمى ظفر المسلمين فتحاً وظفر الكافرين نصيباً؟ قلت: تعظيماً لشأن المسلمين، وتحسباً لحظ الكافرين؛ لأن ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه، وأما ظفر الكافرين فما هو إلا حظ دني، ولحظة من الدنيا يصيبونها»^(٢). ويقول ابن عاشور: «وجعل ما يحصل للمسلمين فتحاً، لأنه انتصار دائم، ونسب إلى الله؛ لأنه مقدره ومريده بأسباب خفية ومعجزات بينة، وجعل ما يحصل للكافرين من النصر نصيباً تحقيراً له»^(٣). أي أن سياق الحال «حال المؤمنين والكافرين» وضح لنا سبب اختيار تلك الألفاظ خاصة؛ فالمؤمنين يجاهدون في سبيل أن ينالوا رضا الله عنهم في الدنيا والآخرة، ويؤمنون بأن هذه الدنيا دار عمل وفي الآخرة دار الحساب والخلود، في حين أن هؤلاء الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة فعملهم ينتهي بإنهاء هذه الدنيا الفانية؛ لذلك كان النصر فتح للمؤمنين سواء في الدنيا والآخرة؛ لأن هدفهم هو أن ينالوا رضا الله، بينما كان النصر للكافرين مجرد نصيب فإن في الدنيا فقط.

(١) روح المعاني ١/ ١٩١.

(٢) الكشاف ١/ ٦١٢.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ١٠٤٥.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

(الأعراف: ٤). يقول الزمخشري في تفسير سبب اختيار هذين الوقتين تحديداً وهما: وقت البيات أي السحر، ووقت القيلولة: «ولأننا خُصَّ هذان الوقتان: وقت البيات ووقت القيلولة؛ لأنها وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأقطع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القيلولة»^(١). ويؤكد المعنى البيضاوي فيقول: «وفي التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب؛ ولذلك خص الوقتين؛ ولأنهما وقت دعة واستراحة؛ فيكون مجيء العذاب فيهما أقطع»^(٢). ومن ثم كان سياق الحال للبشر - عامة - في مثل هذه الأوقات مفسراً لاختيار هذين الوقتين خاصة.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٠)

وفي إطار أهمية السياق الاجتماعي والعُرف في اختيار هذا المثل، ولماذا كان اختيار (الجمال) - خاصة - دون بقية الحيوانات الأخرى - استناداً إلى السياق الاجتماعي - ؟ يقول ابن عاشور: «فقد جُعل لانتفاء دخولهم الجنة امتداداً مستمراً؛ إذ جعل غايته شيئاً مستحيلاً، وهو أن يلجَ الجملُ في سَمِّ الْخِيَاطِ أي: لو كانت لانتفاء دخولهم الجنة غاية لكانت غايته ولوج الجمل (وهو البعير) في سَمِّ الْخِيَاطِ، وهو أمر لا يكون أبداً، والجمال: البعير المعروف للعرب ضُرب به المثل؛ لأنه أشهر الأجسام في الضخامة في عُرف العرب، والخياط هو المِخِيط (بكسر الميم) وهو آلة الخياطة المسمى بالإبرة والفعال ورد اسماً مرادفاً للمفعول في الدلالة على آلة الشيء، كقولهم: حزام

(١) الكشف ٢ / ٨٤.

(٢) تفسير البيضاوي ٣ / ٥.

ومحزم وإزار ومترر ولحاف وملحف وقناع ومقنع، والسهم: الحرت الذي في الإبرة يدخل فيه خيط الخائط وهو ثقب ضيق، وهو بفتح السين في الآية بلغة قريش، وتضم السين في لغة أهل العالية، وهي ما بين نجد وبين حدود أرض مكة، والقرآن أحال على ما هو معروف عند الناس من حقيقة الجمل وحقيقة الخياط ليُعلم أن دخول الجمل في حرت الإبرة محال متعذراً ما دام على حالهما المتعارفين^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنَزِلُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَطَنُكَ مِنَ الْكَذِبِ﴾ (الأعراف: ٦٦). يقول الزمخشري - معللاً سبب وصف الملا من قوم سيدنا هود بالذين كفروا في حين لم يوصف الملا من قوم سيدنا نوح بالكفر -: «فإن قلت: لم وصف الملا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دون الملا من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتنم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ (هود: ١٢). ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير^(٢). ويؤكد الألوسي نفس العلة استناداً إلى نفس سياق الموقف، فيقول: "إذ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد^(٣)".

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٥٣٥.

(٢) الكشف ٢/ ١١٠.

(٣) روح المعاني ٣/ ٣٢.

(و) المدح بما يشبه الذم:

وفيه مراعاة لأحوال المخاطبين على ما بهم من تباين في الطبائع، فالكريم من الناس يعرف للمحسن إحسانه، أما اللئيم فإنه يرى الإحسان إساءة، وحتى يراعي المبدع كل هذه النفوس فهو يمدح بشكل يشبه الذم حتى إذا قرأه منصف علم للمحسن إحسانه، وإذا قرأه غير منصف فليظن أن المبدع في هذه الحال يذم ولا يمدح، أي أن المدح بما يشبه الذم يعتمد على إرضاء المستمعين أو القارئین للنص على اختلاف طباعهم ونفوسهم، ومن المعروف أن المستمع أو مجموعة المستمعين، من عناصر السياق غير اللغوي (سياق الموقف)^(١).

(و-١) النساء:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ مَسِيرًا﴾ (النساء: ٢٢). فنكاح الأبناء لنساء الآباء كان عرفاً في الجاهلية وفي صدر الإسلام، حتى حرمة الآية الكريمة. يقول القرطبي: «كان الناس يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ فصار حراماً في الأحوال كلها؛ لأن النكاح يقع على الجماع والتزوج،

(١) ومن ذلك قول النابغة عن ملوك الشام من غسان:

وَلَا قَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ * يَمْنُ فُلُوسٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُنَائِبِ

انظر:

- ديوانه، شرح كرم البستاني، بيروت، ١٩٥٣ م، ص ١٥.
- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ت: مفيد قمحية وجماعة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٤ م، ١٠١/٧.
- سيويه، الكتاب، ٣٢٦/٢.

فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حرمت على ابنه؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى^(١). أي أن الآيات قد راعت أحوال المسلمين - المخاطبين في الآية - في صدر الإسلام قبل التحريم بهذا الاستثناء، ويوضح الزمخشري الحكمة في استخدام هذا الاستثناء فيقول: "فإن قلت: كيف استثنى **(مَا قَدْ سَلَفَ)** عما نكح آبائكم، قلت: كما استثنى (غير أن سيوفهم) من قوله: (ولا عيب فيهم)، يعني: إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه فلا يحل لكم غيره، وذلك غير ممكن، والغرض المبالغة في تحريمه وسد الطريق إلى إباحته، كما يعلق بالمحال في التأييد نحو قولهم: حتى يبيض القار، وحتى يلج الجمل في سم الخياط^(٢). وهذا ما أكدته - أيضاً - القرطبي بقوله: **(إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)** أي تقدم ومضى. والسلف؛ من تقدم من آبائك وذوي قرابتك. وهذا استثناء منقطع، أي لكن ما قد سلف فاجتنبوه ودعوه. وقيل: **(إِلَّا)** بمعنى بعد، أي بعد ما سلف؛ كما قال تعالى: **(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى)** أي بعد الموتة الأولى. وقيل: **(إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)** أي ولا ما سلف؛ كقوله تعالى: **(وَمَا كُنْتُمْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً)** يعني ولا خطأ. وقيل: في الآية تقديم وتأخير، معناه: ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا إلا ما قد سلف. وقيل: في الآية إضمار لقوله **(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ)** فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف^(٣).

(و-٢) الأعراف:

• قَالَ تَعَالَى: **(وَمَا نَنْقِمُ مِنَ آلٍ أَنْ عَمَوْا بِنِهَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)** (الأعراف: ١٢٦). يقول الزمخشري: «وما تعيب منا إلا الإيهان

(١) تفسير القرطبي، ١٠٣/٥.

(٢) الكشف، ٥٢٥/١.

(٣) تفسير القرطبي ١٠٤/٥.

بآيات الله، أرادوا: وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها، وهو الإيمان. ومنه قوله: وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ...^(١). أي أن سحرة فرعون بعد ما رأوا آيات الله المعجزات أيقنوا أن ما جاء به موسى هو الحق، ولا يكون إلا من عند الله؛ فأمنوا به ولذلك جاء الاستثناء ليؤكد أن فرعون أصبح ناقماً على هؤلاء السحرة، فلو لا إيمانهم لظل راضياً عنهم. وبمثل قول الزمخشري قال به القرطبي^(٢)، وأبو حيان^(٣)، وابن عاشور^(٤).

(ز) إبدال كلمة مكان كلمة.

وليس المقصود بالإبدال -هنا- الإبدال النحوي، أو الاستبدال الذي سبق وتحدثنا عنه في فصل السبك، ولكن المقصود به المعنى البسيط وهو: استعمال كلمة مكان كلمة قد تكون من نفس الحقل الدلالي، وقد تكون من حقل دلالي مختلف أو مضاد أحياناً، ومن ذلك:

(ز-١) النساء:

• قَالَ تَمَّالٌ: ﴿بَشِيرَ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٣٨). كلمة بشر تستعمل غالباً في سياق الفرح والسعادة، وعلى الرغم من ذلك فقد جاءت في الآية الكريمة في سياق الحزن والعذاب، والعلة في ذلك كما قال الزمخشري: «وضع (بشر) مكان أخبر تهكما بهم»^(٥). وكذلك يؤكد البيضاوي نفس العلة فيقول: «يدل على أن الآية في المنافقين، وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا

(١) الكشاف ٢/ ١٣٣.

(٢) تفسير القرطبي ٧/ ٢٦١.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢٣.

(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٦١٤.

(٥) الكشاف ١/ ٦١١.

بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين، ووضع بشر مكان أنذر تهكم بهم^(١). أما ابن عاشور فهو يشرح لنا من خلال السياق غير اللغوي (سياق الموقف) العلة في استعمال كلمة (بشر) - التي تستعمل في سياق الفرح - في سياق العذاب فيقول: «استئناف ابتدائي ناشئ عن وصف الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً، فإن أولئك كانوا مظهرين الكفر بمحمد - ﷺ - ، وكان ثمة طائفة تبطن الكفر وهم أهل النفاق، ولما كان التظاهر بالإيمان ثم تعقيب الكفر ضرباً من التهكم بالإسلام وأهله؛ جيء في جزاء عملهم بوعيد مناسب؛ لتهكمهم بالمسلمين فجاء به على طريقة التهكم إذ قال ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ فإن البشارة هي الخبر بما يفرح المخبر به وليس العذاب كذلك»^(٢).

(ز-٢) الأعراف:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ شُرَكَّاءَ لَهُمْ ثُمَّ يَأْتِيَانَا إِذَا يَرْجِعُونَ وَمَلَأْنَاهُ ظُلْمًا إِنَّهَا ظَنُورٌ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٣). جاءت كلمة ﴿ظَلَّمُوا﴾ في الآية الكريمة بدلاً من كلمة (كفروا) وبمعناها. قال الزمخشري - مبيناً العلة - : ﴿ظَلَّمُوا﴾ : فكفروا بآياتنا. أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنها من واحد ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، أو فظلموا الناس بسببها حين أوعدوهم وصدوهم عنها، وأذوا من آمن بها، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلمًا، فلذلك قيل: فظلموا بها، أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان^(٣). وعن أهمية السياق بنوعه - اللغوي وغير اللغوي - في توضيح العلة من استعمال كلمة ظلموا مكان كلمة كفروا.

(١) تفسير البضاوي ٢/ ٢٦٨.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٠٤٣.

(٣) الكشاف ٢/ ١٢٩.

يقول أبو حيان: «لما قصّ الله - تعالى - على نبيه أخبار نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما آل إليه أمر قومهم، وكان هؤلاء لم يبقَ منهم أحد؛ أتبع بقصص موسى وفرعون وبني إسرائيل؛ إذ كانت معجزاته من أعظم المعجزات، وأمتة من أكثر الأمم تكديباً وتعتاً وجهلاً، وكان قد بقي من أتباعه عالم وهم اليهود فقصّ الله علينا قصصهم؛ لنعتبر ونتعظ ونترجر عن أن نتشبه بهم، ومناسبة هذه الآية لما قبلها؛ أن بين موسى وشعيب عليهما السلام مصاهرة - كما حكى الله في كتابه - ونسب؛ لكونهما من نسل إبراهيم، ولما استفتح قصة نوح بـ **(أَرْسَلْنَا)** بنون العظمة، أتبع ذلك قصة موسى فقال: **(ثُمَّ بَعَثْنَا)** والضمير في **(مِنْ بَعْدِهِمْ)** عائد على الرسل من قوله: **(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)** أو للأمم السابقة والآيات الحجج التي آتاه الله على قومهم...، وقال الأصم: ظلموا تلك النعم التي آتاهم الله بأن استعانوا بها على معصية الله - تعالى - فانظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين جعلهم مثلاً توعده به كفره عصر الرسول - ﷺ -^(١). أي أن السياق اللغوي وهو الآيات السابقة التي تحدثت عن قصص أنبياء الله: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وهلاك أقوامهم - لظلمهم وكفرهم - لم يبقَ منهم أحد، هذا السياق اقتضى سرد قصص بني إسرائيل وموسى وفرعون الذين ظلموا أنفسهم - أيضاً - وكفروا بنبيهم، ثم السياق غير اللغوي (سياق الموقف) وهو تعنت أقوام رسل الله جميعاً - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام - كل على حده، حتى نتعظ ولا نظلم أنفسنا ولا نجعل نعم الله علينا.

(١) البحر المحيط ٥/٤١٠.

(ح) التقديم والتأخير

من أهم مباحث علم المعاني موضوع التقديم والتأخير؛ حيث تتجلى فيه بلاغة الأساليب، وفصاحة التراكيب، وجمال العبارات، كما أنه ينبى عن تمكن البلغاء، يقول الزركشي: «التقديم والتأخير هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به؛ دلالة على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق»^(١). فقد يتقدم المتحدث عنه في سياق ويتأخر في سياق آخر، وذلك؛ لأن الموقف الأول يقتضي التقديم، والثاني يقتضي التأخير ويكون الحكم على بلاغة التقديم، والتأخير هو السياق، أو أحد عناصره، ومن ذلك:

(ح-١) النساء:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يُوْصِي بِهَا أَوْ دِيْنٌ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْكَ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١). بين لنا الزمخشري العلة في تقديم الذكر على الأنثى فيقول: «قصد إلى بيان فضل الذكر، ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث؛ وهو السبب لورود الآية فقيـل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث فلا يتهاذى في حظهن حتى يحرم من مع ادلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به»^(٢)، ويؤكد البيضاوي ما ذكره الزمخشري فيقول: «وتخصيص الذكر بالتخصيص على حظه لأن القصد إلى بيان فضله والتنبية على أن التضعيف كاف للتفضيل فلا يحرم بالكلية وقد اشتركا في الجهة»^(٣).

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٣٣.

(٢) الكشف ١/ ٥١١.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٣.

يتبين لنا من خلال سياق الموقف الذي وضحه الزمخشري وأكدّه البيضاوي: أن تقديم الذكر كان؛ لفضله عند العرب، كما أن العرب قبل الإسلام كانوا لا يورثون النساء شيئاً؛ فكان التقديم -أيضاً- للتأكيد على حظ الذكر من مضاعفة نصيبه فيطمئن المسلمون على ما اعتادوا عليه من تفضيل الذكر على الأنثى، ولكن بوسطية الإسلام وليس بظلم الجاهلية. ويفسر الزمخشري -استناداً إلى السياق غير اللغوي (سياق الموقف)- الحكمة من تقديم الوصية على الدين، فيقول: «فإن قلت لم قدمت الوصية على الدين والدين مقدم عليها في الشريعة؟ قلت لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاضدهم ولا تطيب أنفسهم بها فكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه فلذلك قدمت على الدين بعثاً على وجوبها والمسارة إلى إخراجها مع الدين ولذلك جيء بكلمة (أو) للتسوية بينهما في الوجوب.

ويقول البيضاوي معللاً -أيضاً- من خلال سياق الموقف «سياق الحال» وهو حال الورثة، الحكمة من تقديم الوصية على الدين: «وقدم الوصية على الدين، وهي متأخرة في الحكم؛ لأنها مشبهة بالميراث، شاقة على الورثة، مندوب إليها الجميع، والدين إنما يكون على الدور»^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٧). يقول الزمخشري: «فإن قلت لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعرضه للمنافع فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به، ثم شكر شكراً

(١) تفسير البيضاوي، ٢/ ١٥٥.

مفصلاً؛ فكان الشكر متقدماً على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره^(١). فالرغم من أن
يعتمد على سياق الحال (السياق غير اللغوي) في تفسير علة تقديم الشكر على الإيمان؛
وذلك لأن الشكر من مقدمات وأولى خطوات الإيمان كما ذكر. في حين نجد الألوسي
يعتمد على السياق اللغوي، فيقول: «وإنما قدم الشكر مع أن الظاهر تأخير؛ لأنه
لا يُعتدُّ به إلا بعد الإيمان؛ لما أنه طريق موصل إليه في أول درجاته...، فتقديم الشكر
على الإيمان، وحقه التأخير في الأصل؛ إعلام بأن الكلام فيه، وأن الآية السابقة مسوقة
ليبان كفران نعمة الله تعالى العظمى، والكفر تابع، فإذا أحر الشكر بهذه الأسرار
واللطائف، ومن ثم ذيل - سبحانه - الآية على سبيل التعليل بقوله - جل وعلا -
(وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا)، أي: مثيباً على الشكر علياً^(٢). أي أن الألوسي اعتمد على نظم
الآية مع سابقتها وهو يمثل السياق اللغوي أو النصي الداخلي في تفسيره للعلة في
تقديم الشكر على الإيمان بالشكل الذي ذكره.

(ط) الحذف:

وللسياق - بنوعيه - دور بارز في إظهار المعنى وإن كان في النص حذف؛
وذلك لأن المحذوف إذا دل عليه سياق الموقف أصبح في حكم الملفوظ به بالنسبة
لمتلقي النص «ومن ذلك أن ترى رجلاً قد سدد سهماً نحو الغرض الذي أرسله،
فتسمع صوتاً فتقول: القرطاس والله، أي: أصاب القرطاس ف (أصاب) الآن في
حكم الملفوظ به البتة، وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب
اللفظ به»^(٣)، وقد سبق وذكرنا الحذف في سورتي النساء والأعراف من خلال فصل

(١) الكشف ٦١٦/١.

(٢) روح المعاني ١٨٠/٥.

(٣) ابن جني: الخصائص ٢٨٥/١.

السبب، وسوف نذكر هنا أمثلة على دور السياق في فهم المعنى على الرغم من وجود المحذوف، ومن ذلك:

(ط - ١) النساء:

• قَالَ تَمَّالُ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَنَى مِنْهُمَا بَنَاتٍ كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَقُولُ اللَّهُ أَلَّذِي قَسَمَ لَكُمْ بِهِ وَالْأَرْحَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١). يقول الزمخشري: «قلت: فيه وجهان أحدهما: أن يعطف على محذوف كأنه قيل: من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها وخلق منها زوجها، وإنما حذف لدلالة المعنى عليه، والمعنى شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب، وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها»^(١). أي أن الزمخشري اعتمد على (سياق الحال) حال خلق الناس من نفس آدم - عليه السلام - في تقدير المحذوف المعطوف عليه وهو وصف هذه النفس الواحدة، بينما يخالفه أبو حيان فيقول: «وجاءت الواو في عطف هذه الصلة على أحد محاملها، من أن خلق حواء كان قبل خلق الناس؛ إذ الواو لا تدل على ترتيب زمني كما تقرر في علم العربية، وإنما تقدم ذكر الصلة المتعلقة بخلق الناس، وإن كان مدلولها واقعاً بعد خلق حواء، لأجل أنهم المنادون بالمأمورين بتقوى ربهم، فكان ذكر ما تعلق بهم أولاً أكد، ونظيره: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، ومعلوم أن خلقهم تأخر عن خلق من قبلهم، ولكنهم لما كانوا هم المأمورين بالعبادة والمنادين لأجلها، اعتنى بذكر التشبيه على إنشائهم أولاً، ثم ذكر إنشاء من كان قبلهم، وقد تكلف الزمخشري في إقرار ما عطف بالواو متأخراً عن ما عطف عليه، فقد مر مطروفاً عليه محذوفاً متقدماً على المعطوف في الزمان، فقال: يعطف على محذوف كأنه قيل: من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها وخلق منها زوجها، وإنما حذف لدلالة المعنى عليه، والمعنى: شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه

(١) الكشف ١/ ٤٩١.

أنشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعها. ولا حاجة إلى تكلف هذا الوجه مع مساع الوجه الذي ذكرناه على ما اقتضته العربية. وقد ذكر ذلك الوجه الزمخشري فقال: يعطف على خلقكم^(١). والشاهد في كلام الزمخشري أنه اعتمد على السياق (سياق الحال أو الموقف) في تقدير المحذوف، وهو أحد وجهين ذكرهما، وأبو حيان نفسه يذكر الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشري، فيقول: «ويجوز أن يكون قوله: وخلق منها زوجها معطوفاً على اسم الفاعل الذي هو واحدة التقدير من نفس وحدث، أي انفردت، وخلق منها زوجها»^(٢).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِرُكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ. فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُشُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الشُّدُشُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ مَّا تَرَكَمُ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١). يقول الزمخشري: «والمعنى للذكر منهم أي: من أولادكم، فحذف الراجع إليه؛ لأنه مفهوم، كقولهم السمن منوان بدرهم»^(٣). ويؤكد الألوسي نفس تقدير المحذوف استناداً إلى فهم القارئ وهو أحد عناصر السياق غير اللغوي (سياق الموقف)، فيقول: «ولا بد في الجملة من ضمير عائد إلى الأولاد محذوف ثقة بظهوره كما في قولهم السمن منوان بدرهم والتقدير هنا للذكر منهم فتدبر»^(٤).

(١) البحر المحيط ١١/٤.

(٢) الكشف ٤٠٩/١، البحر المحيط ١٢/٤.

(٣) الكشف ٥١١/١.

(٤) روح المعاني ٢١٧/٤.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨). وفي تقدير حذف المخصوص بالمدح، يقول الزنجشيري: «(ما) إما أن تكون منصوبة موصوفة بـ ﴿يُؤَلِّمُكُمْ بِهِ﴾، وإما أن تكون مرفوعة موصولة به، كأنه قيل: نعم شيئا يعظكم به، أو نعم الشيء الذي يعظكم به، والمخصوص بالمدح محذوف أي: نعمًا يعظكم به ذلك، وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكم»^(١). فالزنجشيري اعتمد على السياق اللغوي في هذا التقدير وعدم تكرار المخصوص بالمدح وهو أداء الأمانات والعدل في الحكم، وبالمثل قال الألوسي^(٢).

(ط-٢) الأعراف:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦). وفي تقدير القسم المحذوف، يقول الزنجشيري: «بم تعلق الباء؟ قلت: تعلق بفعل القسم المحذوف تقديره: فيما أغويتني أقسم بالله لأقعدن، أي فبسبب إغوائك أقسم. ويجوز أن تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنما أقسم بالإغواء؛ لأنه كان تكليفاً، والتكليف من أحسن أفعال الله، لكونه تعريضاً لسعادة الأبد، فكان جديراً بأن يقسم به»^(٣). ويقول ابن عاشور: «والباء في قوله ﴿فَبِمَا أُغْوِيْتَنِي﴾ سببية وهي ظرف مستقر واقع موقع الحال من فاعل ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ أي: أقسم لأقعدن لهم حال كون ذلك مني بسبب إغوائك إياي»^(٤)، وكلا الرأيين اعتمدا على السياق اللغوي.

(١) الكشف ٥٥٦/١.

(٢) روح المعاني ٦٤/٥.

(٣) الكشف، ٨٨/٢.

(٤) التحرير والتنوير، ١٤٩٨/١.

• قَالَ تَمَالَى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤). يقول ابن عاشور معتمداً على السياق اللغوي في الآية في تقدير مفعول ﴿وَعَدَ﴾ الثانية: «وحذف مفعول ﴿وَعَدَ﴾ الثاني في قوله: ﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾؛ لمجرد الإيجاز؛ لدلالة مقابله عليه في قوله: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾؛ لأن المقصود من السؤال سؤالهم عما يخصهم. فالتقدير: فهل وجدتم ما وعدكم ربكم أي: من العذاب؛ لأن الوعد يستعمل في الخير والشر»^(١)، ومن قبله قال الزمخشري استناداً - أيضاً - على السياق اللغوي: «قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه»^(٢).

(ي) تفسير الضمائر والمبهمات

فقد يأتي النص وبه ضمائر ولا مرجع لها داخل النص، وقد يكون المرجع يحتمل أكثر من واحد ولا نستطيع أن نجزم أيها أصح، وعندئذ فلا بد من الرجوع إلى السياق بنوعيه، أو أحدهما؛ لنحدد مرجع الضمير.

(ي-١) النساء:

• قَالَ تَمَالَى: ﴿وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْغُوبًا﴾ (النساء: ٥). الخطاب في الآية غير مصرح به، ولكن سياق الآية يرجح كونه موجه لأولياء الأمور، يقول الزمخشري: «والخطاب للأولياء، وأضاف الأموال إليهم؛ لأنها من جنس ما يقيم به الناس معاشهم، كما قال ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النساء ٧٩)، و﴿فَإِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (النساء ٢٥)، والدليل على أنه خطاب للأولياء في أموال اليتامى قوله ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا

(١) نفسه، ١/١٥٣٩.

(٢) الكشف، ٢/١٠٢.

وَأَكْثُوهُمْ»، و﴿جَلَّ اللَّهُ لَكَرِيمًا﴾ أي: تقومون بها وتتعشون ولو ضيعتموها لضعتم فكانها في أنفسها قيامكم وانتعاشكم^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتُّ الْقَنِّ وَلَا الَّذِينَ يَمْوُتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٨). وفي تحديد مرجع الضمير (الواو) في ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ اعتماداً على السياق، يقول الزمخشري: «فإن قلت من المراد بالذين يعملون السيئات، أهم الفساق من أهل القبلة أم الكفار؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد الكفار؛ لظاهر قوله: ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، وأن يراد الفساق؛ لأن الكلام إنما وقع في الزانيين والإعراض عنهما إن تابا وأصلحوا، ويكون قوله: ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ وارداً على سبيل التغليظ، كقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران ٩٧)، وقوله: (فليمت إن شاء الله يهودياً أو نصرانياً)، و(من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر)؛ لأن من كان مصدقاً ومات وهو لم يحدث نفسه بالتوبة حاله قريبة من حال الكافر؛ لأنه لا يجترئ على ذلك إلا قلب مصمت^(٢). أي أن الزمخشري استند إلى السياق اللغوي (النصي أو الداخلي) في تحديد المعنى والمرجع للذين يعملون السيئات، وكلا الرأيين له ما يقويه داخل النص، سواء أكان المراد بمرجع الضمير هو الفساق أم الكافرين. وذكر الرأيين الألوسي - أيضاً - دون ترجيح فقال: «والكثير من أهل العلم على أن المراد بالذين يعملون السيئات ما يشمل الفسقة والكفرة، وجوز أن يراد

(١) الكشف، ٥٠٣/١.

(٢) نفسه، ٥٢١/١.

بالموصولين الكفار خاصة وأن يراد بهما الفسقة وحدهم وتسميتهم في الجملة الحالية كفاراً للتغليظ، وأن يراد بهما ما يعم الفريقين جميعاً؛ فالتسمية حينئذٍ للتغليب^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٧). فضمير المخاطب في الآية يحتمل وجهين: أحدهما: المنافقين، والثاني: المؤمنين وقد ذكر الوجهين الألوسي، فقال: «خطاب للمنافقين وقيل للمؤمنين»^(٢). ولكن سياق الآيات السابق التي تتحدث عن المنافقين ترجح توجيه الخطاب لهم دون المؤمنين، فيقول الألوسي - أيضاً -: «إن الذي يقتضيه النظم الفائق أن هذا الخطاب مع المنافقين، وأن قوله - سبحانه - ما يفعل الله بعذابكم متصل بقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾... إلخ، وتنبيه لهم على أن الذي ورطهم في تلك الورطة كفرانهم نعم الله تعالى وتهاونهم في شكر ما أوتوا، وتفويتهم على أنفسهم بنفاقهم البغية العظمى وهو الإسعاد بصحبة أفضل الخلق - ﷺ - والانخراط في زمرة الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل فاذا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله تعالى - وأخلصوا دينهم له؛ فأولئك حكمهم أن يتنظموا في سلك أولئك السعداء من المؤمنين بعد ما كانوا مستأهلين الدرجات السفلى من النيران، ثم التفت تعريضاً لهم أن ذلك العذاب كان منهم وبسبب تقاعدهم وكفرائهم تلك النعمة الرفيعة وتفويتهم على أنفسهم تلك الفرصة السنية، وإلا فإن الله غنى مطلق عن عذابهم فضلاً على أن يوقعهم في تلك الورطات»^(٣).

(١) روح المعاني ٤ / ٢٤٠.

(٢) نفسه، ٥ / ١٧٩.

(٣) نفسه، ٥ / ١٧٩.

(ي-٢) الأعراف:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمَلُّونَ أَنْ عَلَيْكُمْ مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٧٥). الضمير في قوله ﴿وَمِنْهُمْ﴾، هل يعود على ﴿قَوْمِهِ﴾ أم على ﴿الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾؟ وقد ذكر الوجهين، دون ترجيح بينهما الألويسي، فقال: «وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الموصول بإعادة العامل؛ بدل الكل من الكل، كقولك: مررت بزيد بأخيك، والضمير المجرور راجع إلى قومه، ويجوز أن يكون بدل بعض من كل؛ على أن الضمير للذين استضعفوا فيكون المستضعفون قسمين مؤمنين وكافرين»^(١). ولكن سياق الحال (حال قوم سيدنا صالح) وموقفهم من نبيهم والإيمان به يجلي لنا ترجيح عود الضمير للذين استضعفوا من قومه، بقول ابن عاشور: «والذين استضعفوا هم عامة الناس الذين أذلهم عظماءهم واستعبدوهم؛ لأن زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السيادة الدنيوية الخلية عن خلال الفضيلة من: العدل، والرافة، وحب الإصلاح؛ فلذلك وصف الملأ بالذين استكبروا، وأطلق على العامة وصف الذين استضعفوا...» وقوله: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ بإعادة حرف الجر الذي جر بمثله المبدل منه»^(٢).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَّكَ دَعَا اللَّهَ رَبُّهَا لِيَنْزِلَ عَلَيْهَا حَبْلًا مَكْنُونًا مِنْ الشَّكِرِ﴾ (الأعراف: ١٨٩). فضمير المخاطب في الآية في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ يحتمل مرجعين، أحدهما: آدم وحواء، والثاني: قريش، وقد ذكر الوجهين

(١) روح المعاني، ٨/ ١٦٤.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٥٧٦.

الزنجشري فيقول: «(مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ)» وهي نفس آدم عليه السلام، (وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)، وهي حواء، خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه، أو من جنسها كقوله: (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) (النحل: ٧٢)، (لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) ليطمئن إليها ويميل ولا يتفر؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل...، (فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) حيث جمع الضمير، ووَآدَمَ وحواء بريثان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة، وعبد شمس وما أشبه ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم. ووجه آخر، وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله - ﷺ - وهم آل قصي...، ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصي، وجعل من جنسها زوجها عريية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح السوي جعل له شركاء فيما آتاها، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار، وجعل الضمير في (يُشْرِكُونَ) لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه^(١)، أما أبو حيان فقد ذكر عدة أوجه، وهي، الأول: الخطاب عام لمشركي قريش وللمسلمين، والثاني: أن الخطاب للعرب قبل الإسلام، والثالث: أن الخطاب عام لجميع الخلق، والرابع: لآدم وحواء، والخامس: لمشركي قريش المعاصرين لسيدنا محمد - ﷺ -^(٢)، أما الطبري والشوكاني فقد ذكرا وجهين: أحدهما: آدم وحواء، والآخر: رجل وامرأة من أهل الكفر من بني آدم^(٣). والمتبع لسياق الآيات يجد أن كل الوجوه جائرة ولا تعارض بينها؛ فسواء كان المخاطب هو آدم وحواء، أو رجل وامرأة كافرين من نسلهما، أو

(١) الكشاف ١٧٦/٢.

(٢) البحر المحيط ١٠: ٨/٦.

(٣) تفسير الطبري ٣١٣/١٣، فتح القدير ٤٠٠/٢.

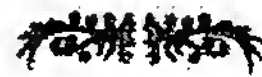
العرب قبل الإسلام، أو مشركي قريش، أو أن الخطاب عام يشمل الجميع؛ وذلك لأن من مقاصد السورة الكريمة استعراض صور الصراع بين الحق والباطل، وهذا الصراع نشأ منذ أن خلق الله - سبحانه وتعالى - آدم وحواء، كما أنه مستمر - مروراً بموقف كل قوم من نبيهم، حتى سيدنا محمد - ﷺ - إلى يوم الدين. ولكننا نجد أن أحد نوعي السياق وهو (سياق الموقف) يرجح الوجه الأول: وهو أن يكون الخطاب موجه لآدم وحواء، يقول ابن عباس: «كانت حواء تلد لآدم، فتعبد لهم الله، وتسميه (عبيد الله)، و (عبد الله)، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس وآدم، فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش! فولدت له رجلاً فسماه (عبد الحارث)، ففيه أنزل الله - تبارك وتعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَدُنْهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، إلى آخر الآية»^(١).

نخلص مما سبق: أن النص - أيّاً كان نوعه - الواحد بشكله وتركيبه يُقصد به غير معنى^(٢)، وهذه المعاني المختلفة - تختلف باختلاف المتكلم والمخاطب، وعلاقة كلٍّ منهما بالآخر، والدافع وراء الكلام، والزمان الذي يقال فيه هذا الكلام، وكذلك المكان.... وكلها من عناصر السياق - كقيلة بثبتت القارئ أو متلقي النص لولا السياق - بعناصره المختلفة - الذي حافظ على النص وتماسكه. لذا لا نبالغ إذا قلنا ما كان للنص أن يحقق تماسكه - سبكه، وحبكه، وقصده، وقبوله - بدون معرفة سياقه بنوعيه - اللغوي وغير اللغوي -؛ ومن ثمّ يمكن القول على هدي مما تقدم إن السياق - بنوعيه - قرينة لها دورها الذي لا ينكر في مجال تحقيق معايير النصية - دون تفرقة بين النص المكي والمدني - بل لا نبالغ إذا قلنا إن معيار السياق يُعدُّ أهم معيار من

(١) تفسير الطبري ١٣ / ٣١٠.

(٢) كما سيتبين لنا من خلال الفصل الأخير: القصد والقبول - إن شاء الله - ص ٢٨٥: ٢٣٨.

المعايير السبعة؛ وذلك لأنه لا يمكن فهم أي نصٍ مهما تحقق فيه من بقية المعايير الأخرى دون تحقق معيار السياق. كما تبين - أيضاً - أنه لا يمكن أن نستغني بأحد نوعي السياق عن الآخر كأن يكتفى بالسياق اللغوي للتراكيب، ويهمل السياق الغير اللغوي، فالسياق اللغوي - وحده لا يرشد إلى المعنى الدلالي للكلمة سواء كانت مفردة أو مقرونة بغيرها، كما أن السياق الغير اللغوي - كأسباب النزول - لا يكفي وحده للترجيح بين أسباب النزول المتعددة للآية الواحدة أو النص الواحد؛ إذن لا بد من تضافر السياقين معاً، فالسياق بنوعيه مرجح دلالي بين كثير من الأقوال والآراء التي ازدحمت بها كتب التفسير، خاصة تلك الآيات التي تحتل أكثر من معنى، ففهم المعنى دَوَّار مع السياق.



الفصل الخامس

(الإعلامية)

«Informativity»

مصطلح الإعلامية؛

تعد الإعلامية من المعايير المهمة للنصية؛ وذلك لأنها تتناول «مدى التوقع الذي يحظى به بعض وقائع النص المعروض في مقابل عدم التوقع، أو المعلوم في مقابل المجهول»^(١). ولعل معنى هذا المصطلح يزداد وضوحاً بقول دي بوجراندا: «إن إعلامية «Informativity» عنصر ما تكمن في نسبة احتمال وروده في موقع معين (أي إمكانه وتوقعه) بالمقارنة بينه وبين العناصر الأخرى من وجهة النظر الانتقائية، وكلما بعد احتمال الورد ارتفع مستوى الكفاءة الإعلامية»^(٢). أي أنه كلما كان النص غير متوقع كانت كفاءته الإعلامية أعلى «وذلك لأن النصوص الغامضة إلى حد ما تعطي القارئ الفرصة ليكون إيجابياً ومتفاعلاً مع النص، ومنتجاً لدلالته، وليس مستهلكاً له فحسب، حيث إن القارئ إذا لم يجد ما يغمض عليه، أو يصطدم مع توقعه بأن تتحقق توقعاته واحداً تلو الآخر فإنه لن يجد - عندئذٍ - شيئاً يمكن وصفه بالجدة، ومن ثم فإنه لا يحتاج إلى روية، أو إعمال فكر حتى يصل إلى ذلك المعنى الغامض، أو تلك الفكرة غير المتوقعة»^(٣). ومهما يكن من أمر فإنه ينبغي على منتج النص أن يتوخى الحذر، فلا يصل عدم التوقع، أو الغموض إلى درجة التعقيد؛ لأن ذلك قد يصل بالنص إلى عدم القبول؛ حيث تنقطع الصلة بين المرسل، والمستقبل. والإعلامية بهذا المفهوم تطبق عادة على المحتوى؛ فالناظر إلى إعلامية نص ما يبحث عن الجديد في المحتوى، أو غير المتوقع من معاني النص، أو أنه يبحث عن

(١) زنيسلاف واورزنيك، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة د. سعيد بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م، ص ٣٣: ٣٢.

(٢) النص والخطاب والإجراء، ص ٢٤٩.

(٣) معايير النصية، بتصرف، ص ٣٥٣.

عدم الترابط الواضح بين معاني النص (الحبك)، ومن خلال ذلك يحكم على النص بأنه ذو إعلامية مرتفعة أولاً، في حين تبدو الأنظمة اللغوية الأخرى من مثل الفونيات، أو النحو أنظمة ثانوية، مما يحرمها من البروز، والتعبير عن دورها في رفع إعلامية النص، إلا إذا تمت معالجتها بطرق بالغة الخروج عن المؤلف، فعندئذ تفرض هذه الأنظمة نفسها حيث تضيف على النص روح الغموض، أو عدم التوقع مما يرفع من درجة إعلاميته^(١). وقد يكون التركيز على النحو (السبك)، وذلك من خلال تتاليات بالغة الخروج عن المؤلف، فإن هذا الترتيب غير المؤلف له الأثر العظيم في رفع درجة الإعلامية.

مراقب الإعلامية:

ويميل اللسانيون إلى تقسيم الإعلامية إلى مراتب ثلاث:

أولاً، إعلامية من الدرجة الأولى:

وتتميز بالابتذال، فهي تكون مستوعبة استيعاباً تاماً، ومتوقعة بشكل يقيني؛ ومن ثم فلا تحظى باهتمام المتلقي، حيث إنه لا يجد فيها ما يتسم بالجدّة، أو التنوع، أو عدم التوقع، أو يكون من الساذجية بما يشبه أسلوب الأطفال في التعبير عن رغباتهم، وينضوي تحت مفهومها كذلك ما يسمى بالكلمات الوظيفية (كالأدوات)، وحروف الجر، وحروف العطف، حيث إنها تشير إلى علاقات لا إلى محتوى، فقد يتجاوزها مستقبل النص في قراءته العجولة حتى يربط بين كلمات المحتوى التي توصل إليه قصد منشي النص في أسرع وقت ممكن وبأقل جهد مبذول ليس هذا فحسب، بل قد يستغني عنها في النصوص التي تتطلب قدراً من الاقتصاد كالبرقيات مثلاً، هذا على خلاف كلمات المحتوى التي تتميز بأنه أكثر

(١) من أمثلة ذلك ما نجده من طرائف ونوادر رواها القدماء تندرأ بعض النحاة الذين يتقرون في حديثهم ويأتون بأصوات لا تؤلف كلمات معروفة؛ مما يجعلها تقع في بؤرة الاهتمام، ومن ذلك ما قاله أبو علقمة النحوي عندما ذهب إلى الطبيب «البيان والتبيين»، ٢ / ٢٧٠.

إعلامية «وأحد أسباب ذلك هو توافر مجموعة أوسع كثيراً يتم الاختيار من بين عناصرها بالقياس إلى الكلمات الوظيفية ثم إن كلمات المحتوى تستثير مواد معرفية أوسع مدى، وأكثر تنوعاً وفي وسعها أيضاً استخلاص صور ذهنية، أو انفعالات بارزة بأكثر مما تقوى على فعله الكلمات الوظيفية»^(١).

ثانياً، إعلامية من الدرجة الثانية،

إن الإعلامية من الدرجة الأولى لا تحتاج إلى جهد، أو انتباه شديد؛ لفهم وقائعها؛ حيث إن عمليات الاختيار التي يقوم بها المتلقي عند الاتصال تكون سهلة لعدم وجود أي أدلة تخالف هذا الاختيار، فالاختيار يتم بصورة شبه آلية، أما عندما تتجاوز الوقائع حالات الاختيار شبه الآلي، وعندما توجد أدلة تخالف اختيار المتلقي، ويصبح للوقائع درجة من الغموض تحتاج إلى إعمال الفكر للترجيح بين الاختيارات عندئذ نحكم على هذه الوقائع بأنها ذات إعلامية من الدرجة الثانية، فهي تحتاج إلى قدر كبير من مشاركة المتلقي، حيث إنه يشارك مبدع النص بشكل ما في إنتاج دلالات النص، ومن ثم تكون هذه الدرجة من الإعلامية ممتعة ومفيدة للمتلقي «ولعل وجود عناصر واردة من المرتبة الثانية هو المستوى العادي للاتصال بطريق النص، حتى إن العناصر الواردة من المرتبة الأولى يمكن إعلاء مرتبتها - ما لم تكن تستحق مزيد اهتمام - كما أن العناصر الواردة من المرتبة الثالثة يمكن خفض نسبتها»^(٢).

ثالثاً، إعلامية من الدرجة الثالثة،

يستطيع مستقبل النص أن يحكم على ما في النص من وقائع، أنها تتسم بإعلامية من الدرجة الثالثة عندما تكون هذه الوقائع خارجة بعض الشيء على قائمة الخيارات المحتملة، بمعنى «أن هذه الوقائع تكون نادرة الوقوع أي غير متوقعة،

(١) مدخل إلى علم لغة النص، ١٨٨.

(٢) النص والخطاب والإجراء، ٢٥٥.

وبالتالي فإنها تحتاج إلى جهد ومشقة عند معالجتها، أو الاتصال عن طريقها، ولكنها بما تمتلك من غموض، وعدم توقع تشد انتباه المتلقي، وتجعله يفكر فيها ويجتهد كثيراً لإيجاد رابط يربطها بما قبلها إذ تبدو - لأول وهلة - منقطعة الصلة بما قبلها وما بعدها، وكلما توصل مستقبل النص إلى إيجاد علاقة مقبولة كانت إسهاماته في إنتاج النص أكثر، وعندئذ تكون عملية الاتصال ناجحة، ويكون النص مقبولاً، أما عندما يفشل مستقبل النص في إيجاد تلك العلاقة فإن عملية الاتصال تكون معرضة للفشل، ومن ثم يكون النص معرضاً للرفض، لذلك يجب ألا يصل عدم التوقع، أو الغموض إلى درجة التعقيد التي لا يخرج منها للمتلقي بطائل مهما بذل من جهد، ومهما أعمل ذهنه في سبر أغوار النص^(١).

وعلى الرغم مما يجد مستقبل النص الغامض من مشقة، وعناء؛ حيث إنه يبذل أعلى درجات الاهتمام والتركيز، فإنه - في النهاية - يحصل على أعلى درجات اللذة، والمتعة عندما يتوصل إلى حل ما في النص من شفرات وملء ما به من فجوات، والتوصل على علاقات تربط ما به من مفارقات، «حيث إن هذا الغموض الذي يتتاب الوقائع التي تتسم بهذه الدرجة العالية من الإعلامية يعود غالباً إلى:

(أ) الانقطاعات: بمعنى الحذف، أو عدم وجود مادة.

(ب) المفارقات: بمعنى أن الأنماط التي ترد في النص تكون مختلفة عن أنماط المعرفة المخترنة^(٢). ومن هنا تكون تبعة مستقبل النص عظيمة، حيث إنه هو الذي يملأ هذه الفراغات بما يتناسب مع سياق النص، وهو الذي يبحث عن علاقات تربط بين هذه الوقائع التي تبدو غير منسجمة إلا أنه يوضح انسجامها، ويبرر سبب اختيارها.

(١) معايير النصية، ص ٣٦٤. بتصرف.

(٢) النص والخطاب والإجراء ص ٢٥٥. مدخل إلى علم لغة النص ص ١٩٠.

أنواع الخفض:

ومهما يكن من أمر فإنه لن يكون يسيراً على مستقبل النص أن يقوم بهذا الدور بغير خفض منزلة وقائع الدرجة الثالثة إلى الدرجة الثانية، «وعملية الخفض لها اتجاهات ثلاث:

(أ) **خفض رجعي:** ويكون بالرجوع إلى الوقائع السابقة للوصول إلى الغرض من هذا الغموض، وحل شفراته.

(ب) **خفض تقديمي:** ويكون بانتظار الوقائع اللاحقة التي تأتي لتفسير الغموض الذي واجه المتلقي، ولتضع مبرراً مقبولاً لوجود عناصر غير متوقعة.

(ج) **خفض خروجي:** وذلك عندما يخرج مستقبل النص خارج نطاق النص ليبحث عن تفسير؛ وذلك باللجوء إلى أحد عناصر سياق الموقف^(١).

وجدير بالذكر أن مراتب الإعلامية الثلاثة متوافرة في أنواع النصوص المختلفة، ولكن تختلف مطالب الناس من الكفاءة الإعلامية باختلاف أنواع النصوص والمواقف، «فالمحادثة بين الأزواج فيما يبدو تتم بقدر ضئيل جداً من الكفاءة الإعلامية على حين تتطلب الأعمال الفنية المعاصرة أعلى مرتبة»^(٢).

الإعلامية والتداولية:

إن مصطلح النص عادة يشير إلى رسالة تم تسجيلها بطريقة ما (كتابة أو تسجيل صوتي أو تسجيل تلفزيوني)؛ لذا فهي رسالة مستقلة في وجودها المادي عن مرسلها ومستقبلها. يقول الدكتور عيد بليغ: «إن النص هو مجموعة من العلامات مثل: الكلمات والصور والأصوات وأحياناً الإيحاءات، وهذه الرسالة مبنية (ومؤولة)

(١) النص والخطاب والإجراء من ٢٥٥ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ٢٥٥.

بالإشارة إلى ملابسات عرفية في نوع أدبي أو وسيط خاص من الاتصال، والوسيط المستعمل على نحو متكرر أو أكثر طلاقة أو على نحو أكثر خفاء أو أكثر وضوحاً، هذا الوسيط يميل إلى أن يكون ملائماً، وبالنسبة لأكثر الأهداف إمعاناً في تكرارها المنتظم فإن الوعي بالوسيط ربما يعوق تأثيره كوسيلة إلى النهاية، وفي الواقع يصبح الأداء نموذجياً عندما يكتسب الوسيط درجة الوضوح التي تملك قدرة كامنة في تأدية وظيفتها الأولية على نحو أعظم^(١). أي أن الرسالة تنتقل من المرسل إلى المتلقي عبر وسيط ما، هذا الوسيط يحمل العبء الأكبر في الحكم على الرسالة - النص - بالقبول أو الرفض حسب درجة ملائمته للمعنى المقصود من الرسالة. لذا من أهم المصطلحات التي يبنى عليها الرؤية التداولية «نظرية الملاءمة اللغوية» وهي من أقرب المفاهيم علاقة بالإعلامية؛ فإن «درجة ملاءمة الخطاب ليست موقوفة على الآثار السياقية التي تنشأ عن تفاعل قضيتين، لأن لوسيط الجهد المعرفي دور في تقويم مدى ملاءمة هذا الملفوظ، وكلما استدعى التعامل مع ملفوظ ما جهداً كبيراً كانت ملاءمته ضعيفة»^(٢). إضافة إلى أن ملاءمة الملفوظ تزداد إذا كانت نتائجه أكثر، من ذلك مثلاً أن يؤدي إلى استنتاجات في نهاية العملية الاستدلالية للتأويل؛ فكلما تطلب العمل جهداً أقل في تأويله ازدادت ملاءمته، وكلما كانت له نتائج أكثر كلما ازدادت ملاءمته، ومن ثم فإن الملائمة اللغوية تحقق المرتبة الثانية للإعلامية؛ فهي تتطلب جهداً

(١) عيد بليغ، التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، مجلة فصول، العدد ٦٦، القاهرة، ربيع ٢٠٠٥م، ص ٤٠.

(٢) انظر للتفصيل:

- مسعود صخراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٣٦: ٤٥.
- عبدالعزيز شرف، علم الإعلام اللغوي، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١٢٣.

للوصول إلى المعنى، ولكن هذا الجهد غير مبالغ فيه - كما ذكرنا سابقاً - حتى تتحقق الملائمة اللغوية مع المعنى الذي يقصده المتكلم. إن مفهوم الملاءمة بهذا الشكل يجعلنا نبحث عما يمكننا من الحكم على العمل بالملاءمة من عدمها، فما من شك في أن المعلومات المتوافرة في السياق، التي تمكنا من الوصول إلى بعض النتائج هي صاحبة الحظ في الحكم على القول بأنه ملائم، وتستلزم هذه الصياغة ألا نكتفي بالمعلومات الكفيلة بتحقيق نتائج مهمة، بل علينا دائماً أن نلقف المعلومات الأسهل منالاً^(١).

آليات الإعلامية:

ومن الأمثلة التي تحمل درجة عالية من الإعلامية إلى المتلقي بتأثير المتوقع واللامتوقع: (أ) التناص. (ب) الحذف. (ج) إيحائية اللغة. (د) الكناية. (هـ) الاستعارة.

(أ) التناص:

يقوم التناص بدور مؤثر في رفع درجة الإعلامية، وذلك لأن الشاعر يُضمّن شعره شعراً آخر لغيره من الشعراء، وكذلك النص القرآني كما ذكرنا سابقاً - في فصل التناص - يفسر بعضه بعضاً، والمتلقي في هذه الحالة يقرأ هذا النص ويلتقط معنى التضمن فيذكر النص المضمن، ويذكر الجوّ الذي قيل فيه، والمعاني التي يوصلها، وعندئذ فإن المتلقي يتوقع أنه سيقراً في نفس المعنى وباستئناف القراءة يصطدم بما يخالف هذا المعنى، أو بما يتعارض معه تماماً فيشعر بالمفاجأة حيث إنه عندما تذكر

(١) انظر للتفصيل:

- التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا مورييس، ص ٤٠ وما بعدها.
- آن رويول، وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغوش، دار الطليعة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣ م، ص ٣٣ وما بعدها.
- أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد بحيري، مركز الإنماء القومي، الرباط، ١٩٨٦ م، ص ٢٩ وما بعدها.

معاني النص المضمن توقع أن تستمر خلال النص، فإذا بها تخالفه، ومن هنا يكون بحث المتلقي عن الدافع وراء هذه المخالفة، فيستخلص الدوافع ويكتشف المعاني المستورة، وبذلك ترتفع إعلامية النص^(١).

(ب) الحذف

فالحذف من الأمثلة التي تتمتع بدرجة عالية من الإعلامية؛ حيث إن مرسل النص - أي نص - حين يفصح عما بداخله بدون حذف، فإنه يجعل خيال المتلقي مقصوراً على ما ذكره فقط، ولكنه عندما يذكر بعضاً ويحذف بعضاً، فإن هذا المحذوف سيكون بمثابة الصدمة التي تفجر طاقات المتلقي، وتفتح الآفاق أمام خياله، ليصل إلى هذه المعاني المحذوفة، وعندئذ يثري المتلقي النص بمعانٍ كثيرة ربما يخطر بعضها ببال المرسل نفسه «فإن ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجبدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبين»^(٢).

(ب - ١) النساء

• قَالَ تَمَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١) يقول الزمخشري: «فإن قلت علام عطف قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يعطف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها وخلق منها زوجها، وإنما حذف لدلالة المعنى عليه، والمعنى شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها وهي أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها»^(٣) فالحذف كان إعمالاً لذهن المتلقي ورفعاً لدرجة الإعلامية.

(١) بالرجوع إلى فصل التناص ما يعني عن التكرار.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ١٤٦.

(٣) الكشف، ١/ ٤٩١.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٧). يقول ابن عاشور: «وقوله (من قريب) (من) فيه للابتداء، و (قريب) صفة لمحذوف أي من زمن قريب من وقت عمل السوء، وتأويل بعضهم معنى (من قريب) بأن القريب هو ما قبل الاحتضار وجعلوا قوله بعده (حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) يبين المراد من معنى (قريب)»^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِشَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ (النساء: ٣٧ - ٣٨). يقول ابن عاشور: «فيكون قوله: (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) مبتدأ وحذف خبره، ودل عليه قوله: (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)، وقصد العدول عن العطف: لتكون مستقلة ولما فيه من فائدة العموم وفائدة الإعلام بأن هؤلاء من الكافرين؛ فالتقدير: الذين يبخلون أعتدنا لهم عذاباً مهيناً وأعتدنا ذلك للكافرين أمثالهم وتكون جملة: (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِشَاءَ النَّاسِ) معطوفة أيضاً على جملة (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) محذوفة الخبر أيضاً يدل عليه قوله (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا) إلخ، والتقدير: والذين ينفقون أموالهم رياء الناس قرينهم الشيطان، ونكتة العدول إلى العطف مثل نكتة ما قبلها»^(٢). والعدول والحذف كلاهما يرفع من درجة الإعلامية؛ لاستنادهما إلى عدم المتوقع.

(ج) إيحائية اللغة:

إن النص القرآني زاخرٌ بالاستخدامات الجديدة للغة، مما يثير اهتمام المتلقي، ويدفعه إلى القراءة الاستنباطية التي تخرج من النص معاني جديدة وثرية، مما يرفع من

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٩١٣.

(٢) نفسه، ١/ ٩٤٩.

درجة إعلامية النص «وتتخلل مثل هذه الاستخدامات الجديدة في الفعل اللغوي، إلى سياقات جديدة غير معهودة من قبل...» ولذلك فإن بعض استخدامات اللغة قد شكلت من خلال تركيب العبارات الجديدة انتهاكاً لما هو مألوف وعادي، وقد سميت مثل هذه الاستخدامات غير المألوفة للغة بالانحراف، والسوتر، والقصوة، والصدمة، والمفاجأة، والخلخلة، وكسر بنية التوقعات، وذلك قياساً على معيار الحقيقة، والواقع ومعرفة القارئ الأولية^(١). ومن الأمثلة القرآنية لسورتي النساء والأعراف التي تبرز قدرة النص القرآني على انتهاك حدود اللغة المألوفة لدى المتلقي، والتخطي إلى لغة تثير فضول المتلقي وتحثه على البحث وراءها ومحاولة سبر أغوارها:

(ج-١) النساء:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَتَّبِعَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦). زيدت اللام لإرادة التبيين، يقول الزمخشري: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَتَّبِعَ لَكُمْ﴾ أصله يريد الله أن يبين لكم؛ فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين كما زيدت في لا أبالك؛ لتأكيد إضافة الأب، والمعنى يريد الله أن يبين لكم ما هو خفي عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم^(٢). أي أن الآية الكريمة خرجت على الأصل في التعبير عن التبيين لإظهار أعلى درجات التبيين مما يثير المتلقي ويجعله يسبح بذهنه ليقدر درجة التبيين التي توضحها الآية وفيه رفعٌ لدرجة الإعلامية.

(١) جماليات الأسلوب والتلقي، ص ١٠٦.

(٢) الكشف، ١/ ٥٣٣.

• قَالَ تَمَالَى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ. وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٥). أصله شقاقاً بينهما فأضيف الشقاق إلى الظرف على طريق الإلتباس وفي هذا - أيضاً - خروج عن المألوف لدى المتلقي، يقول أبوحيان: «والشقاق: المشاقة، والأصل شقاقاً بينهما، فاتسع وأضيف، والمعنى على الظرف كما تقول: يعجبني سير الليلة القمرية، أو يكون استعمال اسماً وزال معنى الظرف، أو أجرى البين هنا مجرى حالها وعشرتها وصحبتهما»^(١). فقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى غرض بلاغي؛ مما يجعل المتلقي يعمل فكره للوصول إلى الهدف من وراء هذا الغرض البلاغي الجديد، وفيه رفع لدرجة الإعلامية.

• قَالَ تَمَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ٥٣). وكذلك نجد أم المنقطعة، ومعنى الهمزة - هنا - للإنكار، يقول الألوسي: «والمراد إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك وجحد لما تدعيه اليهود من أن الملك يعود إليهم في آخر الزمان»^(٢).

• قَالَ تَمَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤). أسلوب التفات حيث قيل استغفر لهم ولم يقل استغفرت لهم، يقول الزمخشري: «لم يقل واستغفرت لهم وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخياً لشأن رسول الله - ﷺ - وتعظيماً لاستغفاره»^(٣). وفي هذا الأسلوب إشارة لذهن المتلقي، وإعمالاً لذهنه مما يرفع من درجة الإعلامية.

(١) البحر المحيط، ١٢٤/٤.

(٢) روح المعاني ٥٦/٥.

(٣) الكشف ٥٥٩/١.

(ج-٢) الأعراف:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأعراف: ٦ - ٧). الأسلوب يحمل معنى التوبيخ والتقريع للأمم التي كذبت رسلهم يوم القيامة، يقول ابن عاشور: «وسؤال الذين أرسل إليهم سؤال عن بلوغ الرسالة، وهو سؤال تقريع في ذلك المحشر، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ - ﷻ - وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرسالة سؤال إرهاب لأنهم؛ لأنهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنهم مسوقون إلى العذاب، وقد تقدم ذلك في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ (النساء: ٤١)، وقوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ (المائدة: ١٠٩). والذين أرسل إليهم هم أمم الرسل، وعبر عنهم بالموصول لما تدل عليه الصلة من التعليل فإن فائدة الإرسال هي إجابة الرسل فلا جرم أن يسأل عن ذلك المرسل إليهم ولما كان المقصود الأهم من السؤال هو الأمم لإقامة الحجة عليهم في استحقاق العقاب قدم ذكرهم على ذكر الرسل»^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥). أسلوب لإبتلاء العباد بوسوسة إبليس - لعنه الله - حتى يوم الدين، يقول الزمخشري: «فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده»^(٢).

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٤٨٩.

(٢) الكشاف ٢/ ٨٧.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْقَىٰ عَادَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧). أسلوب للتحذير والتخويف، يقول الألوسي: «أي قرناء لهم مسلطين عليهم متمكنين من إغوائهم بها أو جلدنا بينهم من المناسبة، أو بارسأهم عليهم وتمكينهم منهم، والجملة إما تعليل آخر للنهي وتأكيد للتحذير إثر تأكيد، وإما فذلكة لحكاية السابقة»^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢). أسلوب للإنكار، يقول أبو حيان: «ومعنى الاستفهام إنكار تحريم هذه الأشياء وتوبيخ محرميها، وقد كانوا يحرمون أشياء من لحوم الطيبات وألبانها، والاستفهام إذا تضمن الإنكار لا جواب»^(٢).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَلَانَا بِهِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأعراف: ٧٠). استفهام للإنكار، يقول الزمخشري: «أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء، في اتخاذ الأصنام شركاء معه؛ حباً لما نشأوا عليه، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به»^(٣).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩). يقول الشوكاني: «والاستفهام في (أفأمنوا مكر الله) للتقريع والتوبيخ وإنكار ما هم عليه من أمان ما لا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم، وفي

(١) روح المعاني ١٠٦/٨.

(٢) البحر المحيط ٣٣٧/٥.

(٣) الكشف ١١١/٢.

تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لانكار ما أنكره عليهم، ثم بين حال من آمن مكر الله فقال **﴿لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾** أي الذين أفرطوا في الخسران ولم يفعوا في وعيده الشديد، وقيل: مكر الله هنا هو استدراجه بالنعمة، والصحة والأولى حمله على ما هو أعم من ذلك^(١).

• قال تعالى: **﴿قُلْ بِحَاثِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ لَقَائِمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأَمِينُ الَّذِي يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ وَكَفَّلَكُمُوهُ وَالْأَيُّمُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** (الأعراف: ١٥٨). أسلوب التفات، يقول ابن عاشور: «وفي قوله **﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأَمِينُ﴾** التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموهود بها في التوراة في شخص محمد ﷺ»^(٢).

(د) الكناية:

إن التعبيرات المجازية بشكل عام تحمل شحنات إبلاغية أعلى بكثير من التعبيرات الحقيقية التي تخلو من المجاز ومن الخيال، حيث إن التعبيرات الخيالية تأتي بحاطة بشي من الغموض الذي يحتاج إلى روية وبحث من قبل المتلقي حتى يحدث لها عملية خفض تمكنه من فهم المطلوب، وتمكنه من إيجاد علاقة بين المعنى المراد، والمعنى المستخدم، ودرجة الإعلامية العليا التي تتميز بها هذه التعبيرات ليس مرجعها فقط الغموض، لكن إلى كثرة المعاني التي توحى بها وتستفزها في ذاكرة المتلقي، وذلك لأن «الصفة إذا لم تأت مصرية بذكرها، مكشوفة عن وجهها، ولكن مدلولاً عليه بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، والطف لمكانها، كذلك إثباتك الصفة للشيء تثبتها له، إذا لم تلقه إلى السامع صريحاً، وجئت إليه من جانب التعريض، والكناية، والرمز،

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٣٢.

(٢) نفسه ١١/ ١٦٥٧.

والإشارة، كان له من الفضل، والمزية، ومن الحسن والرواق، ما لا يقل قلبه، ولا يُجمل موضع الفضيلة فيه^(١)، ومما ينطبق عليه هذا الكلام الكناية، ففيها مثلاً تريد وصف إنسان بصفة فتترك التصريح بذلك وتكفي عن كونها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه، ويتصل به بشكلٍ ما، ومن أمثلة ذلك من خلال سورتي النساء والأعراف:

(د-١) النساء:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٢١). الكناية: في قوله تعالى (وقد أفضى بعضكم إلى بعض): الكلام كناية عن الجماع، والعرب إنما تستعملها فيما يستحي من ذكره كالجماع، يقول القرطبي: «فتأويل الكلام إذ كان ذلك معناه: وكيف تأخذون ما آتيموهن، وقد أفضى بعضكم إلى بعض بالجماع»^(٢)، وبه قال الألوسي^(٣).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْمُتَضَاعِفَاتُ قَلِيلَتٌ حَفِظْتِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُزُوحَهُمْ فَوْضُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرُوهُمْ فَإِنْ أطمعناكم فَلَا تُبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤). يقول الزمخشري: «(في المضاجع) في المراقدة أي: لا تدخلوهن تحت اللحف، أو هي كناية عن الجماع، وقيل هو أن يولها ظهره في المضجع، وقيل في المضاجع في بيوتهن التي يتن فيها أي لا تبايئوهن»^(٤)، وكلها معاني تدور - أيضاً - حول عدم الجماع أو ما يقاربها من مداعبات،

(١) دلائل الإعجاز، ص ٣٠٦.

(٢) تفسير القرطبي، ١٢٦/٨.

(٣) روح المعاني، ٢٤٤/٤.

(٤) الكشف، ٥٣٨/١.

ومن ثم تركت الآية الكريمة التصريح بمعنى الهجر في المضاجع؛ إعمالاً للذهن المتلقي وحفظاً للدرجة الإعلامية.

• قَالَ تَمَّالٌ: «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا»

(النساء: ١٤٨). يقول الألوسي: «عدم محبته - سبحانه وتعالى - لشيء كناية عن غضبه»^(١). والمعنى كما يقول الطبري: «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، ولكن من ظلم فلا حرج عليه أن يخبر بما يبل منه، أو يتصرح من ظلمه»^(٢).

(د-٢) الأعراف:

• قَالَ تَمَّالٌ: «وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْتَكُمْ ثُمَّ فَلَكُمْ السُّوءَ فَسَجَدُوا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَا يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» (الأعراف: ١١). الكناية: في قوله تعالى:

«وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْتَكُمْ» فالكلام كناية عن خلق آدم - عليه السلام - والمعنى

خلقنا أباكم آدم - عليه السلام - طينا غير مصور ثم صورناه أبداع تصوير وأحسن

تقويم، يقول ابن عاشور: «خلقنا أصلكم ثم صورنا وهو آدم كما أفصح عنه قوله: (ثُمَّ

فَلَكُمْ السُّوءَ فَسَجَدُوا لِآدَمَ)»^(٣).

• قَالَ تَمَّالٌ: «فَأَغْنَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا

وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ» (الأعراف: ٧٢). فالكلام كناية عن الاستئصال، والدابر الآخر

أي أهلكناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم، يقول الطبري: «أي: استأصلناهم»^(٤).

ويؤكد الألوسي ما ذهب إليه الطبري فيقول: «كناية عن الاستئصال والدابر الآخر أي

أهلكناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم»^(٥).

(١) الكشاف، ٢/٦.

(٢) تفسير الطبري، ٣٤٨/٩.

(٣) التحرير والتنوير، ١/١٤٩٣.

(٤) تفسير الطبري، ٥٢٤/١٢.

(٥) روح المعاني، ١٥٩/٨.

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الْعَسْكَرَ فَلَنُقَمَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ١٠٢). أي: احترازهم شبهه بما يتحصن به من الآلات؛ ولذا أثبت له الأخذ تخيلاً، وإلا فهو أمر معنوي لا يتصف بالأخذ، ولا يضر عطف قوله سبحانه: وأسلحتهم عليه للجمع بين الحقيقة والمجاز، وهو من البلاغة في ذروتها ومن الفصاحة في شدتها، قاله الألويسي^(١). ويقول ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ استعمل الأخذ في حقيقته ومجازه: لأن أخذ الحذر مجاز إذ حقيقة الأخذ تناول وهو مجاز في التلبس بالشيء والثبات عليه، وأخذ الأسلحة حقيقة ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (الحشر: ٩). فإن تبوأ الإيمان الدخول فيه والاتصاف به بعد الخروج من الكفر»^(٢).

(ز-٢) الأعراف:

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَنْتَهُي مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧) الاستعارة التمثيلية: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَنْتَهُي مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ حيث شبه حال تسويل إبليس ووسوسته لهم كذلك بحال إتيان العدو لمن يعاديه من أي جهة أمكته ولذا لم يذكر الفوق والتحت إذ لا إتيان منها. يقول الشوكاني: «ذكر الجهات الأربع؛ لأنها هي التي يأتي منها العدو عدوه؛ ولهذا ترك ذكر جهة الفوق والتحت وعدي الفعل إلى الجهتين

(١) روح المعاني ١٣٦/٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٠١٩/١.

الأولين بمن وإلى الآخرين بعن؛ لأن الغالب فيمن يأتي من قدام وخلف أن يكون متوجهاً إلى ما يأتيه بكلية بدنه، والغالب فيمن يأتي من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفاً؛ فناسب في الأولين التعدية بحرف الابتداء، وفي الآخرين التعدية بحرف المجاوزة، وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتي حقيقة^(١).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَنَقُمُ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِثَابِتٍ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُتَسَلِّينَ﴾ (الأعراف: ١٢٦). الاستعارة: في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي أفض علينا صبراً يغمرنا كما يفرغ الماء، أو صب علينا ما يطهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون، فـ ﴿أَفْرِغْ﴾ على الأول استعارة تبعية تصرّحية و﴿صَبْرًا﴾ قرينتها، والمراد هب لنا صبراً تاماً كثيراً، وعلى الثاني يكون ﴿صَبْرًا﴾ استعارة أصلية مكنية و﴿أَفْرِغْ﴾ تخيلية. يقول الزمخشري: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا، حتى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء فراغاً، وعن بعض السلف: إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنباً ثم يقول: قد مازحتك، أي يغمره بالحياء، والحجل، أو صب علينا ما يطهرنا من أضرار الآثام، وهو الصبر على ما توعدنا به فرعون؛ لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم^(٢).

• قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُفُسِهِمُ هُذًى وَرَحَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَهَبُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٤). الاستعارة: في قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب) ففي الكلام استعارة مكنية، حيث شبه الغضب بشخص ناه أمر،

(١) فتح القدير ٢/ ٢٨١.

(٢) الكشف، ٢/ ١٣٤.

وأثبت السكوت على طريق التخيل يقول الزمخشري: «(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) هذا مثل، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألقي الألواح، وجر برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك»^(١).

وقال السكاكي: إن فيه استعارة تبعية، حيث شبه سكوت الغضب وذهاب حدته بسكون الأمر الناهي، والغضب قرينتها وقيل: الغضب استعارة بالكناية عن الشخص الناطق، والسكوت استعارة تصريرية لسكون هيجانه وغليانه، فيكون في الكلام مكنية قرينتها تصريرية لا تخيلية، وأيا ما كان ففي الكلام مبالغة وبلاغة لا يخفى علو شأنها قاله الألوسي^(٢).

نخلص مما سبق بأن هذا هو ديدن القرآن الكريم، حيث إنه يزخر بالآيات، والنصوص المرتفعة في درجة الإعلامية - لا فرق في ذلك بين السور المكية والسور المدنية - كما رأينا في التطبيق العملي لمعيار الإعلامية على سورتي النساء والأعراف -، والتي تدعو إلى التأمل الطويل بغرض الوصول إلى المعنى المراد، ومما لا شك فيه أن المتعة التي تأتي سهلة تذهب سريعاً، أما المتعة التي يحصل عليها المتلقي بعد طول نظر، وإمعان فكر، وكد ذهن فإنها تدوم، فكلما كان حصوله على الفائدة أصعب كان بقاء لذتها أطول، لكن يجب ألا يصل هذا الغموض إلى درجة التعقيد التي تنغلق عنده النصوص فيكده المتلقي ذهنه ويمعن فيها فكره ثم لا يخرج منها بشيء؛ فالتعقيد مذموم عند جميع النقاد منذ أقدم العصور.

(١) الكشاف، ٢/ ١٥٤.

(٢) روح المعاني، ٩/ ٧١.

الفصل السادس

أولاً: (القصـد)

«Intentionality»

مصطلح القصد:

القصد له معانٍ لغوية كثيرة منها: «القَصْدُ الاعتقادُ والأَمُّ...»، وهو قَصْدُكَ وقَصْدُكَ أي مُجَاهَدُكَ...، والقَصْدُ إتيان الشيء تقول قَصَدْتُهُ وقَصَدْتُ لَهُ وقَصَدْتُ إِلَيْهِ بمعنى...، والقَصْدُ في الشيء خلافُ الإفراطِ وهو ما بين الإسراف والتقتير...، قال ابن جني أصل «ق ص د» ومواقعها في كلام العرب الاعتزام والتوجه والنُّهْدُ والنُّهْوُضُ نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أو جَوْرُ هذا أصلُهُ في الحقيقة»^(١) فالجامع بين هذه المعاني هو النية والتوجه والاعتزام، ولكنها نية عامة وتوجه عام. فإذا ما كانت هذه النية من منشيء النص ويوجهها إلى صورة من صور اللغة يعترزم أن تكون نصاً كان هذا هو معنى القصد بوصفه من معايير النصية،

وهو - كما يعرفه روبرت دي بوجراند - «يتضمن موقف منشيء النص من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصاً يتمتع بالسبك والالتحام - الحبك - وأن مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة والوصول إلى غاية بعينها، وهناك مدى متغير للتفاضي في مجال القصد، حيث يظل القصد قائماً من الناحية العملية حتى مع عدم وجود المعايير الكاملة للسبك والالتحام»^(٢). ومن خلال هذا التعريف تبين لنا مجموعة من الملاحظات المهمة وهي كالتالي:

أولاً، السبك والحبك معياران لها صلة وثيقة بمادة النص نفسه غير أنها من اختيار منشيء النص، أما القصد والقبول فهما معياران لها صلة وثيقة بمستعملي النص،

(١) لسان العرب: ٥/ ٣٦٤٢، ٣٦٤٣ مادة: (ق ص د).

(٢) النص والخطاب والإجراء ص ١٠٣.

حيث إن القصد يختص بمنشئ النص والقبول يختص بمستقبل النص، ومن ثم فالسبك والحبك تابعان للقصد.

ثانياً: أن القصد قصدان؛ الأول منهما وهو «متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها» وهذه الغاية هي القصد الأصلي لمنشئ النص، أما الثاني، وهو القصد الفرعي فهو قصد منشئ النص بصورة ما من صور اللغة أن يكون نصاً يتمتع بالسبك والحبك، وهذا القصد الفرعي وسيلة للوصول إلى القصد الأصلي الذي يؤمّه منشئ النص.

ثالثاً: وجود مساحة متغيرة من التفاضل في مجال القصد؛ حيث إن هناك مواقف يصعب فيها تحقيق السبك والحبك، ومع ذلك يظل القصد - من الناحية العملية - قائماً، «ولا سيما في مجال المحادثات العارضة»^(١).

أنواع المقاصد:

هذا الأمر يجعلنا نتساءل عن: مصدر الدلالة داخل النص، هل هو النص نفسه؟ أم المبدع؟ أم المتلقي؟ وبتعبير آخر، من صاحب القصد داخل النص؟ وللإجابة عن هذا السؤال تُورد المخطط التالي لأحد الباحثين الذي تتضح فيه الإجابة^(٢).

(١) معايير النصية، دراسة في نحو النص، ص ٢٠٨.
(٢) نفسه، ص ٢١٩.

وحقيقة الأمر أن اكتشاف الفعل الكلامي الشامل أو الكلي للنص يمثل المقصد الرئيس للمتكلم من نصه، وقد لا يكون اكتشاف هذا المقصد من السهولة بمكان في بعض النصوص التي تحوي في ما وراء النص قصوداً خفية أو إضافية، وربما كان النص في وادٍ وقصده في وادٍ آخر^(١).

القصد والمعنى القرآني:

معرفة مقاصد القرآن الكريم وسوره قائمة على الاحتمال والاجتهاد، ولا يمكن لبشر أن يقف على مراد الله ومقاصده - عز وجل - في كتابه جزماً و يقيناً، بيد أن الوقوف على ذلك القصد والمعنى القرآني لا يتأتى بإدراك معاني كلمات القرآن في حقولها المعجمية منفردة عن غيرها؛ ذلك «أنا زعمنا أن الألفاظ، التي هي أوضاع اللغة، إنما وضعت ليُعرف بها معانيها في أنفسها، لأدّى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالة»^(٢). وقد جعل بعضهم المعنى القرآني ضربين:

الأول: المعنى القصدي، وهذا هو عين مراد الله - سبحانه وتعالى -

وهو معنى توفيقى، ليس لنا معه إلا الاجتهاد في فهمه، حين يبلغنا بسند صحيح عن سيد المرسلين سيدنا محمد - ﷺ -

الثاني: المعنى الإدراكي، وهو كل ما يدركه أهل العلم والتدبر من

النص القرآني، وفقاً لأصول الإدراك والتدبر وضوابطهما. وتعريفه: كل ما يدركه ويستنبطه أهل العلم من النص في سياق السورة المقالي والمقامي وفقاً لأصول الفهم

(١) انظر للتفصيل:

• محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية (دط)،

القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٢ وما بعدها

• فلييب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحياشنة، دار الحوار، ط ١،

سوريا، ٢٠٠٧م، ص ١٨ وما بعدها.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥٣٩.

والاستنباط»^(١). ومن ثم فإن مناط بحثنا هو ذلك المعنى الإدراكي القائم على التمييز والاجتهاد بعيداً عن الهوى والغواية، أما المعنى القصدي فلا يمكن لنا ولا لغيرنا من بشر أن نُجزم أن ما يقصده البشر من كلامه - سبحانه وتعالى - هو عين مراده عز وجل - من قرآنه الموحى إلى نبيه - ﷺ - .

مقاصد سورتي النساء والأعراف:

أولاً: سورة النساء:

سورة النساء مدنية، فقد روى البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده» - ﷺ -^(٢). ولا خلاف أن النبي - ﷺ - إنما بنى بها بالمدينة. وقد تباينت آراء العلماء والمفسرين في الكشف عن الموضوع الرئيس لسورة النساء ومنها: رأي الرازي الذي يرى أن في السورة طابع عام غالب على السورة دون تحديد وتصريح للموضوع الرئيس، فيقول: «اعلم أن هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكليف، وذلك لأنه تعالى أمر الناس في أول السورة بالتعطف على الأولاد والنساء والأيتام والرافة بهم، وإيصال حقوقهم إليهم، وحفظ أموالهم عليهم، وبهذا المعنى ختمت السورة»^(٣).

في حين نجد الفيروز آبادي - كما هو دأبه - يخصص في بيان الأغراض الجزئية لمعاقد السورة، فيقول: «وأما ما اشتملت عليه السورة مجملأً في بيان خلق آدم وحواء، والأمر بصلة الرحم، والنهي عن أكل مال اليتيم، وما يترتب عليه من عظم

(١) محمود توفيق سعد، العزف على أنوار الذكر؛ معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة، ط ١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ص ١٤.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط ٣، بيروت، ١٤٠٧ هـ.

١٩٨٧ م، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، رقم (٤٩٩٣)، ٤٥/٩.

(٣) مفاتيح الغيب، ١٦٣/٩.

الإثم،.... إلخ»^(١). وسار على نهجه ابن عاشور^(٢). أما البقاعي فلم يكتف بالنظرة الثاقبة إلى سورة النساء ليكشف عن محورها الرئيس فحسب، بل امتدت نظرتة إلى ربط مقصودها بمقصود السورتين السابقتين عليها، يقول: «مقصودها الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه سورة آل عمران، والكتاب الذي حدث إليه سورة البقرة، لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة؛ تحذيراً عما أراده شاس بن قيس، وأنصاره من الفرقة. ولما كان مقصودها الاجتماع على ما دعت إليه السورتان قبلها من التوحيد، وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل عادة الأرحام العاطفة التي مدارها النساء، ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد»^(٣).

وما ذكره البقاعي ذكره علماء التفسير الموضوعي ونسبوه إليه، ولكنهم زادوا عليه تقسيم السورة إلى ثلاثة عشرة مقطعاً تمثل المحاور الجزئية للسورة^(٤). وما ذكره معظم المفسرين لا يخرج مضمون اجتهاداتهم للموضوع الرئيس للسورة عما ذكره البقاعي عن وحدة الدين، فكل الأحكام التي ذكرت في السورة، سواء كانت تعالج الشأن الداخلي، أو الخارجي للمجتمع المسلم لا يخرج عن كونه وحدة الدين الذي لا يفرق بين موضوعاته وجزئياته التي تتصل ببعضها اتصالاً عضوياً مترابطاً غير قابل للانفصال.

(١) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ت: محمد علي النجار، المكتبة

العلمية، ط ١، بيروت، لبنان، ١٧٠ / ١

(٢) التحرير والتنوير، ٤ / ٢١٤: ٢١٣.

(٣) مصاعد النظر، ٢ / ٨٩: ٨٨.

(٤) يُنظر تفصيل هذه المقاطع في: نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، التفسير الموضوعي لسور

القرآن الكريم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، ط ١، جامعة الشارقة، ١٤٣١ هـ

٢٠١٠ م، ٢ / ٢٧٨: ٤.

ثانياً: سورة الأعراف:

هذه السورة نزلت بمكة إجماعاً. ولهذه السورة ثلاثة أسماء: سورة الأعراف، لاشتغالها على ذكر الأعراف في ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ وهي سور بين الجنة والنار. الثاني سورة الميقات؛ لاشتغالها على ذكر ميقات موسى في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾. الثالث سورة الميثاق؛ لاشتغالها على حديث الميثاق في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ وأشهرها الأعراف^(١). والأعراف هو الاسم الذي عرفت به هذه السورة من عهد النبي ﷺ - أخرج النسائي من حديث أبي مليكة عن عروة بن زيد بن ثابت: أنه قال لمروان بن الحكم: «ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور وقد رأيت رسول الله ﷺ - يقرأ فيها بأطول الطولين. قال مروان قلت: يا أبا عبد الله ما أطول الطولين قال: الأعراف»^(٢). والمراد بالطولين سورة الأعراف وسورة الأنعام فإن سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام باعتبار عدد الآيات^(٣). وقد أجمل الفيروز آبادي أغراض السورة الجزئية فقال: «مقصود السورة على سبيل الإجمال تسلية النبي ﷺ - في تكذيب الكفار إيّاه، وذكر وزن الأعمال يوم القيامة، وذكر خلق آدم، وإبائه إبليس من السجدة لآدم، ووسوسته لها لأكل الشجرة، وتحذير بني آدم من قبول وسوسته، والأمر بالتخاض الزينة، وستر العورة في وقت الصلاة، والرد على المكذبين، وتحريم الفواحش ظاهراً وباطناً، وبيان مذبلة الكفار في النار، ومناظرة بعضهم بعضاً، وبأسهم من دخول الجنة، وذكر المنايا بين الجنة والنار، ونداء أصحاب الأعراف لكلا

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ١٤٣

(٢) انظر:

- صحيح البخاري (باب القراءة في المغرب) حديث رقم (٧٦٤).
- سنن أبي داود (باب قدر القراءة في المغرب) حديث رقم (٨١٢).
- سنن النسائي حديث رقم (٩٩٠).
- مسند أحمد حديث رقم (٢١٦٤٦ - ٢١٦٤١).

(٣) التحرير والتنوير، ١/ ١٤٨٠.

الفريقين وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا، وحُجّة التوحيد، والبرهان على ذات الله تعالى وصفاته، وقصة نوح والطوفان، وذكر هود وهلاك عاد، وحديث صالح وقهر ثمود، وخبر لوط وقومه، وخبر شعيب وأهل مَدْيَن، وتخويف الآمنين من مكر الله، وتفصيل أحوال موسى (وفرعون والسحرة، واستغاثة بنى إسرائيل، وذكر الآيات المفصّلات، وحديث خلافة هارون، وميقات موسى)، وقصة عجل السامريّ في غيّة موسى و (رجوع موسى) إلى قومه، ومخاطبته لأخيه هارون، وذكر النبي الأمّي العربي - ﷺ - والإشارة إلى ذكر الأسباط، وقصة أصحاب السّبت، وأهل أيلة، وذم علماء أهل الكتاب، وحديث الميثاق ومعاهدة الله تعالى الذرية وطرده بلعام بسبب ميله إلى الدنيا، ونصيب جهنّم من الجنّ والإنس، وتخويف العباد بقرب يوم القيامة، وإخفاء علمه على العالمين، وحديث صحبة آدم وحواء في أوّل الحال، وذم الأصنام وعُبادها وأمر الرّسول بمكارم الأخلاق، وأمر الخلائق بالإِنْصَات والاستماع لقراءة القرآن، وخطبة الخطباء يوم الجمعة، والإخبار عن خضوع الملائكة في الملكوت، وانقيادهم بحضرة الجلال في قوله: **(رَبِّهِمْ هُوَ الْغَنِيُّ ذُو الْعَرْشِ)**،^(١)

وقد حدّ ابن عاشور أغراض السورة ومقاصدها الفرعية - أيضاً - دون تحديد موضوع رئيس واحد تدور حوله تلك المقاصد الفرعية فقال: وتدور مقاصد هذه السورة على محور مقاصد منها:

- ١ - النهي عن اتّخاذ الشركاء من دون الله.
- ٢ - وإنذار المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا والآخرة.
- ٣ - ووصف ما حلّ بالمشركين والذين كذبوا الرّسل: من سوء العذاب في الدنيا وما سيحلّ بهم في الآخرة.

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ١٤٣.

- ٤- تذكير الناس بنعمة خلق الأرض وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض
وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله.
- ٥- وما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان.
- ٦- وتحذير الناس من التلبس ببقايا مكر الشيطان من تسويله إياهم حرمان
أنفسهم الطيبات ومن الوقوع فيما يزوج بهم في العذاب في الآخرة.
- ٧- ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين.
- ٨- والتذكير بالبعث وتقريب دليله.
- ٩- والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسان.
- ١٠- والتذكير ببديع ما أوجده الله صلاحها وإحيائها.
- ١١- والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة
رسل الله إلى التقوى والإصلاح.
- ١٢- وأفاض في أحوال الرسل مع أقوامهم المشركين ومما لاقوه من عنادهم وأذاهم
وأندر بعدم الاغترار بإمهال الله الله الناس قبل أن ينزل بهم العذاب وإعذارا لهم
ان يقلعوا عن كفرهم وعنادهم فإن العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.
- ١٣- وأطال القول في قصة موسى مع فرعون وفي تصرفات بني إسرائيل مع موسى - ﷺ.
- ١٤- وتحلل قصته بشاره الله ببعثة محمد - ﷺ - وصفة أمته وفضل دينه.
- ١٥- ثم تخلص إلى موعظة المشركين كيف بدلوا الحنيفية وتقلدوا الشرك وضرب
لهم مثلا بمن آتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلك عن الهدى.
- ١٦- ووصف حال أهل الضلالة ووصف تكذيبهم بما جاء به الرسول ووصف
أهتهم بما ينافي الإلهية وأن لله الصفات الحسنى صفات الكمال.

١٧ - ثم أمر الله رسوله ﷺ والمسلمين بسعة الصدر والمداومة على الدعوة وحذرهم من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سرا وجهرا والإقبال على عبادته^(١).

أما سيد قطب فقد لخص موضوع السورة الرئيس والذي تدور حوله كل المقاصد الفرعية السابقة حول قضية الاتباع؛ منذ أن خلق الله آدم وحواء - عليهما السلام - ومروراً بالصراع القائم بين الخير والشر في صورته المختلفة والمتنوعة إلى يومنا الحالي، بل إلى يوم الدين، فيقول: «هذه هي قضية هذا الدين الأساسية.. إنه إما اتباع لما أنزل الله فهو الإسلام لله، والاعتراف له بالربوبية، وإفراده بالحاكمة التي تأمر فتطاع، ويتبع أمرها ونهيها دون سواء.. وإما اتباع للأولياء من دونه فهو الشرك، وهو رفض الاعتراف لله بالربوبية الخالصة...؛ ولأن المحاولة ضخمة.. وهي تعني التغيير الأساسي الكامل الشامل للجاهلية: تصوراتها وأفكارها، وقيمها وأخلاقها، وعاداتها وتقاليدها، ونظمها، وأوضاعها، واجتماعها واقتصادها، وروابطها بالله، وبالكون، وبالناس...؛ لأن المحاولة ضخمة على هذا النحو؛ يمضي السياق فيهز الضمائر هزاً عنيفاً؛ ويوقظ الأعصاب إيقاظاً شديداً؛ ويرج الجبلات السادرة في الجاهلية، المستغرقة في تصوراتها وأوضاعها رجاً ويدفعها دفعا.. وذلك بأن يعرض عليها مصارع الغابرين من المكذبين في الدنيا، ومصائرهم كذلك في الآخرة»^(٢).

آليات القصد في سورتي النساء والأعراف:

(أ) براعة الاستهلال:

• وقد استهلت سورة النساء بما يحقق الموضوع الرئيس للسورة وهو وحدة الدين ومن قبل وحدة النوع الإنساني، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَ

(١) التحرير والتوير، ١/ ١٤٨١.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٩٠.

مِنْ نَفْسٍ وَجَدَتْ وَلَدًا مِنْهَا وَجَّهًا وَبَتَّ مِنْهُمَا بِحَالٍ كَثِيرًا وَبَسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (النساء: ١). يقول ابن عاشور: «لقد جاء الخطاب بـ (بَيْنَا)»
 النَّاسُ: ليشمل جميع أمة الدعوة الذين يسمعون القرآن يومئذ. وفيما يأتي من الزمان؛
 فضمير الخطاب في قوله (خَلَقَكُمْ) عائد إلى الناس المخاطبين بالقرآن أي لئلا يختص
 بالمؤمنين؛ إذ غير المؤمنين حينئذ هم كفار العرب، وهم الذين تلقوا دعوة الإسلام قبل
 جميع البشر؛ لأن الخطاب جاء بلغتهم، وهم المأمورون بالتبليغ لبقية الأمم، وقد كتب
 النبي - ﷺ - كتبه للروم وفارس ومصر بالعربية لترجم لهم بلغاتهم، فلما كان ما
 بعد هذا النداء جامعاً لما يؤمر به الناس بين مؤمن وكافر نسودي جميع الناس
 فدعاهم الله إلى التذكر بأن أصلهم واحد إذ قال: (أَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
 وَجَدَتْ وَلَدًا) دعوة تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع ووحدة الاعتقاد؛ فالمقصود من
 التقوى في (أَتَقُوا رَبَّكُمْ) اتقاء غضبه ومراعاة حقوقه، وذلك حق توحيده،
 والاعتراف له بصفات الكمال وتنزيهه عن الشركاء في الوجود والأفعال
 والصفات، وفي هذه الصلة براعة استهلال مناسبة لما شتمت عليه السورة من
 الأغراض الأصلية فكانت بمنزلة الديباجة»^(١).

ويقول سيد قطب: «هذا الشوط الأول في السورة يبدأ بآية الافتتاح، التي
 ترد «الناس» إلى رب واحد، وخالق واحد؛ كما تردهم إلى أصل واحد، وأسرة واحدة،
 وتجعل وحدة الإنسانية هي «النفس» ووحدة المجتمع هي الأسرة، وتستجيش في
 النفس تقوى الرب، ورعاية الرحم... لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف
 التكافل والتراحم في الأسرة الواحدة، ثم في الإنسانية الواحدة. وترد إليه سائر
 التنظيمات والتشريعات التي تتضمنها السورة»^(٢).

(١) التحرير والتنوير ١ / ٨٨١.

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ٣٨.

• يقول تعالى: ﴿التَّصَوُّبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَتُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١ - ٢) يقول ابن عاشور: «افتتحت هذه السورة بالتنويه بالقرآن والوعد بتيسيره على النبي - ﷺ - ليبلغه وكان افتتاحها كلاماً جامعاً وهو مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد فهو افتتاح وارد على أحسن وجوه البيان وأكملها شأن سور القرآن»^(١).

(ب) العدول:

• ولتأكيد أحد مقاصد السورة - وهو مراعاة حق اليتيم والمحافظة على أمواله - يأتي تعليل العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِأَلْفٍ حَسِيْبًا﴾ (النساء: ٦). فيقول ابن عاشور: «يجوز أن يكون جملة ﴿وَابْتَغُوا﴾ معطوفة على جملة ﴿وَلَا تُوْثَرُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ لتتربلها منها منزلة الغاية للنهي، فإن كان المراد من السفهاء هنالك خصوص اليتامى فيتجه أن يقال: لماذا عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر وعن الاسم الظاهر المساوي للأولى إلى التعبير بآخر أخص وهو اليتامى؛ ويجاب بأن العدول عن الإضمار لزيادة الإيضاح والاهتمام بالحكم، وأن العدول عن إعادة لفظ السفهاء إيدان بأنهم في حالة الابتلاء مرجو كمال عقولهم ومتفائل بزوال السفاهة عنهم؛ لئلا يلوح شبه تناقض بين وصفهم بالسفه وإيناس الرشد منهم»^(٢).

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٤٨٥.

(٢) نفسه، ١/ ٨٩٣.

• ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٢٢). وعدل عن أن يقال: «لا تنكحوا نساء آبائكم ليدل بلفظ نكح على أن عقد الأب على المرأة كاف في جرمه تزوج ابنه إياها»^(١). وهذا العدول يحقق أحد مقاصد السورة وهو الحفاظ على أواصر الأسرة - خاصة - والقرابة والمجتمع بوجه عام

• ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤). والخطاب في قوله ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ الالتفات من طريق الغيبة وهو طريق الموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ إلى طريق المخاطبة والالتفات أحد مظاهر العدول، وفيه التأكيد على حض المؤمنين على القتال والجهاد في سبيل الله للمحافظة على هذا الدين، وللمحافظة على كيان الدولة المسلمة - من مقاصد السورة - من أعدائها المتربصين بها الدوائر.

• ومنه قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْنَا مِن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا دُورِيَّةَ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٣). ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ «فالضمير عائد إلى المشركين على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أعرض عنهم ووجه الكلام على غيرهم من السامعين: إلى النبي - ﷺ - والمسلمين، أي تذكر أ قليلاً أو زماناً قليلاً تذكرون لا كثيراً، حيث لا تتأثرون بذلك، ولا تعملون بموجبه وتركون الحق وتتبعون غيره»^(٢). وفيه ما لا يخفى من تحقير لشأن المشركين لعدم إتباعهم للرسول - ﷺ - وهو المحور الرئيس للسورة: قضية التوحيد والاتباع.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٩٢٥.

(٢) روح المعاني، ٨/ ٧٧.

• ومنه قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

(الأعراف: ٥٥). وجيء لتعريف الرب بطريق الإضافة دون ضمير الغائب مع وجود معاد قريب في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾، ودون ضمير المتكلم؛ «لأن في لفظ الرب إشعاراً بتقريب المؤمنين بصلة الربوبية، وليتوسل بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين إلى تشریف المؤمنين، وعناية الرب بهم كقوله ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾^(١).

• ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا

لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأعراف: ١٥٣). ففي قوله: ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة؛ لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص سيدنا محمد - ﷺ -.

(ج) الحذف:

• ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ

وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٩). استمراراً في دحض حجج كل من يخالف عقيدة التوحيد والحفاظ على وحدة هذا الدين والدولة المسلمة، يقول الألوسي: «وجوز أن تكون الجملة مستأنفة وجوابها مقدر أي حصلت لهم السعادة ونحوه وإنما قدم الإيذان ههنا وآخر في الآية المتقدمة لأنه ثمة ذكر لتعليل ما قبله من وقوع مصارفهم في دنياهم في غير محلها وهنا للتحريض فينبغي أن يبدأ فيه بالأهم فالأهم»^(٢).

• ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا هَذَا الَّذِي كُنَّا نَعْتَدُ﴾

﴿فَكَيْفَ﴾ (النساء: ٦٢). «أي: كيف حالهم حين تصيبهم مصيبة بسبب ما فعلوا فيجيثونك معتذرين»^(٣).

(١) روح المعاني، ١/ ١٥٥٤.

(٢) نفسه، ٥/ ٣١.

(٣) التحرير والتنوير، ١/ ٩٧٨.

• ومن رد النص القرآني لشبهات منكري البعث قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧). فجملة ﴿يُجَمِّعُكُمْ﴾ جواب قسم محذوف واقع جميعه موقع الخبر عن اسم الجلالة «وأكد هذا الخبر: بلام القسم ونون التوكيد وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوية تحقيق هذا الخبر إبطالاً لإنكار الذين أنكروا البعث»^(١).

• ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ١٣٤). وعلى الاحتمالات كلها فجواب الشرط لـ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ محذوف تدل عليه علته والتقدير: من كان يريد ثواب الدنيا فلا يعرض عن دين الله أو فلا يصد عن سؤاله أو فلا يقتصر على سؤاله أو فلا يحصله من وجوه لا ترضي الله - تعالى -^(٢).

• يقول تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ لَأَنَّا نَسْتَأْذِنَهُمْ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُمْ لَأُدْنِيَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أُضِلُّونَا فَعَاقِبْتَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٨). ومن مقاصد السورة الكريمة بيان مذلة الكافرين وسوء عاقبتهم في الآخرة «فجملة: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ معترضة بين جملة: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾، وبين جملة: ﴿حَقَّ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا﴾ إلخ، على أن تكون جملة ﴿حَقَّ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا﴾ مرتبطة بجملة ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ بتقدير محذوف تقديره: فيدخلون حتى إذا ادركوا»^(٣)، وكذلك مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ محذوف دل عليه قوله ﴿لِكُلِّ﴾ ضعف والتقدير: لا تعلمون سبب تضعيف العذاب لكل من الطائفتين يعني لا تعلمون سبب تضعيفه لكم لظهور أنهم علموا سبب تضعيفه للذين أضلواهم.

(١) روح المعاني ٥/ ١٠٤.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٠٣٨.

(٣) نفسه، ١/ ١٥٣١.

• ومنه قوله تعالى: ﴿ أَهْوََاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنْتَهِمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٩). وجملة: ﴿ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ مقول قول محذوف اختصاراً لدلالة السياق عليه، وحذف القول في مثله كثير ولا مسيهاً إذا كان المقول جملة إنشائية، والتقدير: «قال الله لأهل التكبر عن الإقرار بوحدة الله، والإذعان لطاعته وطاعة رسوله، الجامعين في الدنيا الأموال مكاثرة ورياء: أيها الجبابرة -الذين كانوا في الدنيا- أهؤلاء الضعفاء الذين كنتم في الدنيا أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟ قال: قد غفرت لهم ورحمتهم بفضلي ورحمتي، ادخلوا يا أصحاب الأعراف الجنة لا خوف عليكم بعدها من عقوبة تعاقبون بها على ما سلف منكم في الدنيا من الآثام والإجرام، ولا أنتم تحزنون على شيء فأنكم في دنياكم»^(١).

• ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَسْتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَسَكْرٌ مَكْرُمٌ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٣). ومن المقاصد التي تتكرر في السورة: التوبيخ للمشركين في كل العصور لعدم اتباعهم لرسولهم ومنه: «الإنكار والتوبيخ الوعيد بقوله ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وحذف مفعول ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ لقصد الإجمال في الوعيد لإدخال الرعب ثم بينه بجملة ﴿ لَا أَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ﴾»^(٢).

(د) الاحتراس،

• وحرصاً على الإماء المسلمات ودفعهن ليرفعن عن الفواحش حتى يتساوين مع الحرائر كان النص القرآني واشترطه عليهن دليلاً على الوحدة الإنسانية بعد وحدة التوحيد، نفس الآية (٢٥). استخدام النهي في قوله: ﴿ غَيْرُ مُسْتَفْهِمٍ ﴾، وكذلك ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا سَبَأً ﴾ احتراساً. يقول ابن عاشور: «قصد منها تظهير ما كانت

(١) تفسير الطبري ١٢ / ٤٧٠.

(٢) التحرير والتوير ١ / ١٦١٣.

ترتكبه الإمام في الجاهلية بإذن مواليهن لاكتساب المال بالبغاء ونحوه، وكان الناس يومئذ قريباً عصرهم بالجاهلية، والمسافحات الزواني مع غير معين، ومتخذات الأخدان هن متخذات أخلاء تتخذ الواحدة خليلاً تختص به لا تألف غيره، وهذا وإن كان يشبه النكاح من جهة عدم التعدد إلا أنه يخالفه من جهة التستر، وجهل النسب، وخلع برقع المروءة؛ ولذلك عطفه على قوله **(غَيْرُ مُسْتَفْحَتٍ)** سد لمداخل الزنى كلها^(١).

• ومنه قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرْتُمْ فَمَنْ لَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا)** (النساء: ١٣٥). يقول ابن عاشور: «فإن أبيت إلا جعل الأنفس بمعنى ذوات الشاهدين فاجعل عطف **(الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)** بعد ذلك؛ لقصد الاحتراس لتلا يظن أحد أنه يشهد بالحق على نفسه؛ لأن ذلك حقه فهو أمير نفسه فيه، وأنه لا يصلح له أن يشهد على والديه أو أقاربه؛ لما في ذلك من المسبة والمعة أو التأثم، وعلى هذا تكون الشهادة مستعملة في معنى مشترك بين الإقرار والشهادة كقوله: **(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدِيمُ الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ)** (آل عمران: ١٨)، والمقصود من ذلك التحذير من التأثر بأحوال يلتبس فيها الباطل بالحق»^(٢).

• ومنه قوله تعالى: **(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا)** (النساء: ١٤٨). فقد رخص الله للمظلوم الجهر بالقول السيئ ليشفي غضبه حتى لا يشوب إلى السيف أو إلى البطش باليد في هذا الإذن توسعة على من لا يمسك نفسه عند لحاق الظلم به، والمقصود من هذا هو الاحتراس في حكم **(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّ مِنَ الْقَوْلِ)** (النساء: ١٤٨)^(٣).

(١) التحرير والتنوير، ٩٣١/١.

(٢) نفسه، ١٠١٣٨/١.

(٣) نفسه، ١٠٥٠/١.

• ومنه قوله تعالى: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٦٢). والاستدراك بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جمعاً لمعان كثيرة مما تتضمنه الرسالة، وتأيداً لثباته على دوام التبليغ، والنصح لهم والاستخفاف بكراهيتهم وأذاهم؛ لأنه يعلم ما لا تعلمونه مما يحمله على الاسترسال في عمله ذلك فجاء بهذا الكلام الجامع، ويتضمن هذا الإجمال البديع تهديداً لهم بحلول عذاب بهم في العاجل والآجل وتنبهاً للتأمل فيما أتاهم به وفتحاً لبصائرهم أن تتطلب العلم بما لم يكونوا يعلمونه، وكل ذلك شأنه أن يبعثهم على تصديقه وقبول ما جاءهم به، وهذه المعاني التي تضمنها هذا الاستدراك هي ما يسلم كل عاقل أنها من الهدى والصلاح، وتلك هي أحواله وهم وصفوا حاله بأنه في ضلال مبين ففي هذا الاستدراك نعي على كمال سفاهة عقولهم^(١).

• ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ (الأعراف: ٧٩). والاستدراك بـ (لكن) ناشئ عن قوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ لأنه مستعمل في التبرؤ من التقصير في معالجة كفرهم سواء كان بحيث هم يسمعون أم كان قاله في نفسه؛ فذلك التبرؤ يؤذن بدفع توهم تقصير في الإبلاغ والنصيحة؛ لانعدام ظهور فائدة الإبلاغ والنصيحة فاستدرك بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ أي: تكرهون الناصحين فلا تطيعونهم في نصحتهم؛ لأن المحب لمن يحب مطيع فأراد بذلك الكناية عن رفضهم النصيحة^(٢).

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٥٦٤.

(٢) نفسه، ١/ ١٥٧٩.

• ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٩). ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ عطف على قوله: ﴿وَالْحَدِّ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية. «فهذا تخصيص لظاهر العموم الذي في قوله: ﴿وَالْحَدِّ قَوْمٌ مُوسَى﴾» قصد به الاحتراس لنسبهم أن ذلك قد عمله قوم موسى كلهم وللتبني على دفع هذا التوهم قدم ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ على متعلقه^(١).

• ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ مَثَلُ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ مَتَرُكُمْ وَيَنْزِلُ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩). ومعنى: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ التحذير من أن يعملوا ما لا يرضي الله - تعالى - والتحريض على الاستكثار من الطاعة ليستحقوا وصف المؤمنين تذكيراً لهم بأنه عليهم بما يعملونه^(٢).

(هـ) التقديم والتأخير:

• يقول تعالى: ﴿يُؤَيِّدُكُمُ اللَّهُ فِي أَوَّلِكُمْ لِلَّذِي مِثْلُ حَوَالِ الْأَشْيَاءِ فَإِنْ كَانَ نِسَاءُ فَوْقَ الذَّكَرِ فَلَهُنَّ ثُلَاثُ مَآثِرَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُؤَيِّدُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ وَمَآثِرُهُ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّ الشُّدُّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوسَى هَآؤُلَاءِ دِينٌ مَا بَالُكُمْ وَأَتَاكُمْ لَا تَذَرُونَ أَيْتُهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١).

ولحرص النص القرآني على التأكيد من رفع شأن النساء اللاتي كن لا قيمة ولا شأن لهن قبل الإسلام - وخاصة في الميراث - بل كن من أنفسهن من متاع الميراث فجاء تقديم الخبر (للذكر) على المبتدأ (مثل) لإثبات حق النساء ومشاركتهن للرجال في

(١) التحرير والتوير: ١ / ١٦٥٧

(٢) نفسه، ١ / ١٦١٧

المواريث يقول ابن عاشور: «وتقديم الخبر على المبتدأ في هذه الجملة للتنبيه من أول الأمر على أن الذكر صار له شريك في الإرث وهو الأنثى لأنه لم يكن لهم به عهد من قبل إذ كان الذكور يأخذون المال الموروث كله ولا حظ للإناث كما تقدم آنفاً في تفسير قوله تعالى: **(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ)**»^(١).

• ومنه قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ يَأْتِيْنَهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمْ فَإِنْ نَكَحَا فَلَا غَرَضُ فِيْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيْمًا)** (النساء: ١٦). فمن أجل الحفاظ على كيان الأسرة جاء تقديم الشهادة على الحكم، يقول ابن عاشور: «ومن البين أن إتيان النساء بالفاحشة هو الذي سبب إمساكهن في البيوت، وإن كان قد بنى نظم الكلام على جعل **(فَأْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ)** هو الخبر لكنه خبر صوري وإلا فلإن الخبر هو **(فَأَمْسِكُوهُنَّ)** لكنه جيء به جواباً لشرط هو متفرع على **(فَإِنْ شَهِدُوا)** ففء **(فَأْتَشْهَدُوا)** هي الفاء المشبهة لفاء الجواب وفاء **(فَإِنْ شَهِدُوا)** تفرعية وفاء **(فَأَمْسِكُوهُنَّ)** جزائية، ولولا قصد الاهتمام بإعداد الشهادة قبل الحكم بالحبس في البيوت لقليل: واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فامسكوهن في البيوت إن شهد عليهن أربعة منكم»^(٢).

• ومنه قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أُولَىٰ بِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرْتُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)** (النساء: ١٣٥). فقد تقدم القسط على الشهادة وذلك؛ «لأن القيام بالقسط أعم، والشهادة أخص. ولأن القيام بالقسط فعل وقول، والشهادة قول فقط»^(٣).

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٩٠٤.

(٢) نفسه، ١/ ٩١٣.

(٣) نفسه، ١/ ٢٩٠.

• يقول تعالى: ﴿ كَتَبْنَا نُزْلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٢). فقد جعل الإنذار به مقدماً في التعليل؛ «لأنه الغرض الأهم لإبطال ما عليه المشركون من الباطل، وما يخلقونه في الناس من العوائد الباطلة التي تعاني أزالتها من الناس بعد إسلامهم»^(١).

• ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٣). يقول الألوسي: «وأما الإثم فهو كل ذنب فهو أعم من الفواحش وتقدم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ في سورة البقرة. وقوله: ﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ في سورة الأنعام فيكون ذكر الفواحش قبله للاهتمام بالتحذير منها قبل التحذير من عموم الذنوب فهو من ذكر الخاص قبل العام للاهتمام كذكر الخاص بعد العام إلا أن الاهتمام الحاصل بالتخصيص مع التقديم أقوى لأن فيه اهتماماً من جهتين»^(٢).

• ومنه قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَانِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٦). فتقديم ﴿ وَبَيْنَهُمَا ﴾ وهو خبر على المبتدأ؛ للاهتمام بالمكان المتوسط بين الجنة والنار وما ذكر من شأنه.

• ومنه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ١٩ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٢٠ أَتُلْفِكُمْ رَسُولِي مِنِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٢١ أَوْ عَجَبْتُمْ أَن جَاءَ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٢ فَكَذَّبُوا فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا ٢٣ ﴾

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٤٨٣.

(٢) روح المعاني، ٨/ ١١٢.

يَتَابِعُنَا إِنْتُمْ مَكَانُوا قَوْمًا عَمِيمِينَ ﴿١﴾ وقد رتب الجملة على ترتيب حصول مضمونها في الوجود، فإن الإنذار مقدم؛ لأنه حمل على الإقلاع عما هم عليه من الشرك، أو الوثنية ثم يحصل بعده العمل الصالح، فترجى منه الرحمة^(١).

• ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٩). فكان مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخر قوله: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ الآية. عن قومه ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى وَرَأَوْا فِرْطَ غَضَبِهِ وَسَمِعُوا تَوْبِيخَهُ أَخَاهُ وَإِيَاهُمْ، وَإِنَّمَا خُولِفَ مقتضى الترتيب تعجيلاً بذكر ما كان لا تخاذلهم العجل من عاقبة الندامة، وتبين الضلالة موعظة للسامعين لكيلا يعجلوا في التحول عن سبيلهم حتى يتبينوا عواقب ما هم متحولون إليه^(٢). ولا يخفى في كل ما سبق من أمثلة التقديم والتأخير في سورة الأعراف، أنها كلها تدور حول قضية التوحيد والإتباع، وجزاء المتبعين، وعقاب المنكرين المعاندين - غير المتبعين - لله ولرسوله - عليهم وعلى نبينا - جميعاً - الصلاة والسلام -.

(و) التعريف والتنكير:

• ومن التأكيد على مصدر التلقي للتوحيد والتشريع - من أهم مقاصد السورة بل هو الموضوع الرئيس للسورة ووحدة الدين ووحدة النوع الإنساني - تنكير لفظ كلمة ﴿شَيْئًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَسْتَبْدِلَ زَوْجَ مَكَانِكَ زَوْجَ وَءَاتَيْنَاكُمْ إِحْدَثَهُنَّ فَتَنَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَ بِهِتَنَّا وَإِنَّمَا هُنَّ نِسَاءٌ ۖ﴾ (النساء: ٢٠). ولفظ ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة متوعدة في الإيهام فهو في حيز الشرط يفيد العموم أي: في كل شيء

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٥٦٦.

(٢) نفسه، ١/ ١٦٤٢.

فيصدق بالتنازع في الخصومة على الحقوق ويصدق بالتنازع في اختلاف الآراء عند المشاورة أو عند مباشرة عمل ما كتنازع ولاية الأمور في إجراء أحوال الأمة... إلخ. يقول ابن عاشور: «والرد هنا مجاز في التحاكم إلى الحاكم وفي تحكيم ذي الرأي عند اختلاف الآراء...، وعموم لفظ شيء في سياق الشرط يقتضي عموم الأمر بالرد إلى الله والرسول وعموم أحوال التنازع تبعاً لعموم الأشياء المتنازع فيها، فمن ذلك: الخصومات والدعاوى في الحقوق...، ومن ذلك التنازع في طرق تنفيذ الأوامر العامة كما يحصل بين أفراد الجيوش، وبين بعض قوادهم، وقد قيل: إن الآية نزلت في نزاع حدث بين أمير سرية الأنصار عبد الله بن حذافة السهمي...، ومن ذلك الاختلاف بين أهل الحل والعقد في شؤون مصالح المسلمين وما يرومون حل الناس عليه، ومن ذلك اختلاف أهل العلم في الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد والنظر في أدلة الشريعة؛ فكل هذا الاختلاف والتنازع بأمور أصحابه برد أمره إلى الله والرسول، ورد كل نوع من ذلك يتعين أن يكون بحيث يرجى معه زوال الاختلاف وذلك ببذل الجهد والوسع في الوصول إلى الحق الجلي في تلك الأحوال»^(١).

• ولتوضيح بعض التشريعات الخاصة بحقوق الرجال والنساء والمجتمع العائلي جاء التعريف في (الرجال) و (النساء) في قوله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالتَّائِبَاتُ عَلَى فِئَتِكُمْ حَتَّى تَنْفِقُوا فِي مَا يَنْفِقُونَ أَنْفُسَهُنَّ فِي ظُحُومِكُمْ فَأَهْبِرُوهُنَّ فِي الْفَضَائِلِ وَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ كَمَا أَنْفَقْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَرِيماً) (النساء: ٣٤). يقول ابن عاشور: «فلذلك فالتعريف في (الرجال)

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٩٤١.

• ومنه قوله تعالى: **(أَوْعِظَكُمُ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)** (الأعراف: ٦٣). وتنكير **(ذِكْرٌ)** و **(رَجُلٍ)** للنوعية إذ لا خصوصية لذكر دون ذكر ولا لرجل دون رجل فإن الناس سواء والذكر سواء في قبوله لمن وفقه الله ورده لمن حرم التوفيق أي هذا الحدث الذي عظمت موه وضججتم له ما هو إلا ذكر من ربكم على رجل منكم^(١)

• ومنه قوله تعالى: **(فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَلِنُصِيبَهُمْ حَسَنَةً بَطَرُوا يَمُوتُونَ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا مَلَائِكُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)** (الأعراف: ١٣١). وفي ذلك تعريض بأن نعم الله كانت متكاثرة لديهم، وأنهم كانوا معرضين عن الشكر، وتعريض بأن إصابتهم بالسيئات نادرة، وهم يعدون السيئات من جراء موسى، ومن آمن معه فهم في كلتا الحالتين بين كافرين بالنعمة، وظالمين لموسى ومن معه؛ ولهذين الاعتبارين عرفت الحسنة تعريف الجنس المعروف في علم المعاني بالعهد الذهني أي: جاءتهم الحسنات لأن هذا الجنس محبوب مألوف كثير الحصول لديهم ونكرت **(سَيِّئَةً)** لندرة وقوعها عليهم^(٢).

(ح) الإجمال والتفصيل؛

• قوله تعالى: **(لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرُ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا)** (النساء: ٧). أول إعطاء لحق الإرث للنساء في العرب؛ وهو أحد مقاصد السورة المحورية وهو المحافظة على حقوق النساء. قال ابن عاشور: «ولكون هذه الآية كالمقدمة جاءت بإجمال الحق والنصيب في الميراث وتلاه تفصيله لقصد تهيئة النفوس وحكمة ورود الأحكام المراد نسخها إلى أثقل لتسكن النفوس إليها بالتدرج»^(٣).

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٥٦٥.

(٢) نفسه، ١/ ١٦١٨.

(٣) نفسه، ١/ ٨٩٩.

• ومنه قوله تعالى: **(يُؤْيِيكُمُ اللَّهُ فِي بَيْتِهِ أَوْلَادَكُمْ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَثَلِ الْأُنثِيَّاتِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُشُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُشُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْمَ يَمُوتُ بِنْتٌ أَوْ دَيْنٌ وَأَبَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)** (النساء: ١١). يقول ابن عاشور: «تنزل آية **(يُؤْيِيكُمُ اللَّهُ فِي بَيْتِهِ أَوْلَادَكُمْ)** منزلة البيان والتفصيل لقوله: **(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ)** وهذا المقصد الذي جعل قوله: **(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ)** إلخ بمنزلة المقدمة له فلذلك كانت جملة **(يُؤْيِيكُمُ)** مفصولة لأن كلا الموقعين مقتضى للفصل»^(١).

(ط) أسباب النزول:

• ومن مظاهر تحقيق مقاصد السورة، ومنها الحفاظ على حقوق النساء، بل إن النساء أصبحن يطالبن بحقوقهن؛ فيأتي النص القرآني ليقرهن ما طلبن، ومنه قوله تعالى: **(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرُ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا)** (النساء: ٧). روى الواحدي في أسباب النزول والطبري في تفسيره ما حاصله: «إن أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأة يقال لها أم كحة فجاءت رسول الله ﷺ - فقالت: (إن زوجي قتل معك يوم أحد وهاتان بنتاه وقد استوفى عنهما ما لهما فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما تنكحان أبدا إلا ولهما مال). فقال رسول الله ﷺ: (يقضي الله في ذلك). فنزلت سورة النساء وفيها **(يُؤْيِيكُمُ اللَّهُ فِي بَيْتِهِ أَوْلَادَكُمْ)**. قال جابر بن عبد الله: فقال لي رسول الله: (ادع لي المرأة وصاحبها)، فقال لعمها: (أعطهما الثلثين وأعط أمهما الثمن وما بقي فلك).

ويروي: أن ابني عمه سويد وعرفطة وروى أنهما قتادة وعرفجة وروى أن النبي - ﷺ - لما دعا العم أو ابني العم قال أو قال: «يا رسول الله لا نعطي من لا يركب فرسا ولا يحمل كلاً ولا ينكي عدواً» فقال: «انصرف أو انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله فيهن» فنزلت آية ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآية. وروى أنه لما نزلت هاته الآية أرسل النبي - ﷺ - إلى ولي البنتين فقال: (لا تفرق من مال أبيهما شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً)^(١).

• بل من مظاهر تحقق المقصد الرئيس للسورة وهو وحدة الدين ووحدة الشروع الإنساني، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفَرِّقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (النساء: ٦٠ - ٦١). ما ذكره الطبري في تفسيره، قال: «كان بين قريظة والخزرج حلف، وبين النضير والأوس حلف في الجاهلية، وكانت النضير أكثر وأشرف؛ فكانوا إذا قتل قرظي نضيراً قتل به، وأخذ أهل القتيل دية صاحبهم بعد قتل قاتله، وكانت الدية مائة وسق من تمر، وإذا قتل نضيري قرظياً لم يقتل به وأعطى ديته فقط: ستين وسقا، فلما أسلم نفر من قريظة والنضير قتل نضيري قرظياً، واختصموا؛ فقالت النضير: نعطيكم ستين وسقا كما كنا اصطالحنا في الجاهلية، وقالت قريظة: هذا شيء فعلتموه في الجاهلية؛ لأنكم كثرتم وقللنا فقهرتمونا، ونحن اليوم اخوة وديننا ودينكم واحد، فقال بعضهم: (وكان منافقاً: انطلقوا إلى أبي بردة،

(١) انظر:

- سنن أبي داود، حديث رقم (٢٨٩١) ٤ / ٥١٩.
- البيهقي السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، لبنان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، حديث رقم (١٢٣١١) ٦ / ٣٧٦.
- الواحدي، أسباب النزول ١ / ٥٠.
- تفسير الطبري، ١ / ٥٩٨.

وكان أبو بردة كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتسافرون إليه فيه)، وقال المسلمون: لا بل نطلق إلى النبي - ﷺ - فأنزل الله هذه الآية. أو ما جاء في رواية...: أن الذين عناهم الله تعالى ناس من أسلم تنافروا إلى أبي بردة الأسلمي، وفي رواية...: أن الآية نزلت في رجلين أحدهما: اسمه (بشر) من الأنصار، والآخر: من اليهود، تدارءا في حق فدعاه اليهودي إلى التحاكم عند النبي - ﷺ -؛ لعلمه بأنه يقضي - بالحق، ودعاه الأنصاري إلى التحاكم للكاهن؛ لأنه علم أنه يرتشي فيقضي له؛ فنزلت فيهما هذه الآية، وفي رواية الشعبي مثل ما قال قتادة ولكنه وصف الأنصاري بأنه منافق، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن الخصومة بين منافق ويهودي، فقال اليهودي: (لنتطلق إلى محمد)، وقال المنافق: (بل نأتي كعب بن الأشرف اليهودي)، وهو الذي سماه الله الطاغوت^(١).

• ومن تحقيق الموضوع الرئيس للسورة وهو وحدة الدين والنوع الإنساني قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (النساء: ٦٤) عن الزبير: أحسب هذه الآية نزلت في خصومة بيني وبين أحد الأنصار في شِراج من الحرّة (أي مسيل مياه جمع شِرج بفتح فسكون وهو مسيل الماء يأتي من حرّة المدينة إلى الحوائط التي بها) إلى رسول الله - ﷺ - قال رسول الله: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصاري: لأن كان ابن عمّتك. فتغير وجه النبي - ﷺ - وقال: اسق يا زبير حتى يبلغ الماء الجذر ثم أرسل إلى جارك واستوف حَقَّك (والجذر هو ما يدار بالنخل من التراب كالجدار) فكان قضاؤه الأول صلحاً، وكان قضاؤه الثاني أخذاً بالحق، وكان هذا الأنصاري ظنّاً أن النبي - ﷺ - أراد الصلح بينهم على وجه فيه توفير لحق الزبير جبراً لحظاظره، ولم ير في ذلك ما ينافي العصمة، فقد كان الصحابة

(١) تفسير الطبري ٨/ ٥١٠: ٥١٦.

متفاوتين في العلم بحقائق صفات الرسول مدفوعين في سبر النفوس بسيا اعتادوه من الأميال والمصانعات، فتبهم الله تعالى على أن ذلك يجر إلى الطعن في المعصية، وليس هذا الأنصاري بمنافق ولا شاك في الرسول فلاهم وصفوه بالأنصاري، وهو وصف لخيرة من المؤمنين وما وصفوه بالمنافق، ولكنه جهل وغفل فعفا عنه رسول الله ولم يستتب^(١).

• نخلص مما سبق،

أن القصد هو بمثابة العمود الفقري للنص — أيًا كان نوع النص —، كما أن مبدع/ منشئ النص يستخدم كل الآليات، والوسائل التي تخدم، وتحقق مقصده، والغاية التي من أجلها أنشأ وأنتج النص، ومن ثم فإننا لا نتردد في قولنا: بأن معياري السبك والحبك — خاصة — بل كل المعايير الأخرى — الإعلامية والسياق والتناص — تُعتبر آليات تحقق قصد المبدع/ منشئ النص، كما أنه يجوز أن يتحقق قصد منشئ النص وإن خلا النص من معياري السبك والحبك، ولا يجوز العكس، إذن فلا نص بدون قصد أو غاية.

(١) أسباب النزول ٥٨/١، التحرير والتوير، ٩٨١/١.

ثانياً: (القبول)

«Acceptability»

مصطلح القبول:

للقبول في اللغة معانٍ كثيرة؛ يقول ابن فارس: «قَبِلَ: القاف والباء واللام أصل واحد صحيح تدل كلُّهُ كَلِمَةً على مواجهة الشيء للشيء، ويتفرع بعد ذلك»^(١). ويقول ابن منظور: «قَبِلْتُ الهدية قبولاً، وكذلك قَبِلْتُ الخبر: صدَّقْتُهُ... وقَبِلَ الشيء قبولاً وتَقَبَّلَهُ كلاهما: أخذه...» ويقال: عليه قبولٌ، إذا كانت العين تقبله... وفي الحديث: ثم يوضع له القبول في الأرض - بفتح القاف - أي المحبة والرضا بالشيء وميل النفس إليه»^(٢). وأما الراغب الأصفهاني فيفرق بين التَّقبُّل والقبول بقوله: «التَّقبُّل: قبول الشيء على وجه يقتضي ثواباً كالهديّة ونحوها، قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾» (المائدة آية: ٢٧)، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْمَقَاصِدِ وَالَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾» (الأحقاف آية: ١٦)... وإنا قيل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾» (المائدة آية: ٣٧)... ولم يقل سبحانه وتعالى - بِتَقَبَّلَ: للجمع بين الأمرين: فالتَّقبُّل الذي هو الترفي في القبول، والقبول الذي يقتضي الرضا والإثابة»^(٣). فالتَّقبُّل أعلى منزلة من القبول، كما بين الراغب الأصفهاني، وبيانعام النظر في الأقوال السابقة يبين لنا أن للقبول دلالات كلها تدور حول: التصديق، والمواجهة، والأخذ، والرضا،

(١) معجم مقاييس اللغة، ٥١/٥.

(٢) لسان العرب، (مادة: قبل)، ٥٣٤/١١، وتمام الحديث: عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (باب ذكر الملائكة)، حديث (٣٠٣٧)، ٣/١١٧٥، ورواه مسلم (باب إذا أحب الله عبداً)، حديث (٢٦٣٧)، ٤/٣٠٠.

(٣) انظر تحت الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ت: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص ٣٩٢-٣٩١.

والمحبة، وميل النفس، والإثابة. وهذا الكلام وثيق الصلة بالمعنى الاصطلاحي للقبول، فالقبول من منظور «روبرت دي بوجراند» هو: اتجاه مستقبل النص إلى أن تُؤلف مجموعة الوقائع اللغوية نصاً متضاماً متقارناً ذا نفع للمستقبل أو صلة ما به، أي اكتسابه معرفة جديدة أو قيامه بالتعاون لتحقيق خُطة ما، ويستجيب هذا الاتجاه لعوامل من مثل: نوع النص، والمقام الثقافي والاجتماعي، ومرغوبة الأهداف...، وهنا أيضاً يمكننا اعتبار المحافظة على تضام النص وتقارنه من جانب المستقبل هدفاً بذاته، فيرى رأيه في تزويد مادة ما أو التساهل إزاء جوانب الاختلال في تضام النص وتقارنه^(١). ومن خلال هذا التعريف تبين لنا مجموعة من الملاحظات المهمة وهي كالتالي:

أولاً، أن المتلقي هو الذي يعتبر النص مسبوكاً محبوكاً حتى وإن خلا من السبك والحبك، وهو ما سماه بروان (بانسجام المتلقي)، فالنص نفسه قد يفتقد للسبك أو الحبك - خاصة في المحادثات الشفوية - ثم يفهمه المتلقي بمساعدة عوامل أخرى تغني عن الكلام كالأشارات، والإيحاءات، وتعبيرات الوجه، والسياق بنوعيه... إلخ.

ثانياً، من عوامل قبول النص أن تميل النفس إليه وإلى مغزاه والغرض منه، وهو ما سماه بروان (ذا نفع للمستقبل)، ومن ثم فلا بد أن يكون النص ذا إعلامية عالية، حتى يحقق التشويق والإثارة والمتعة للمتلقي فيقبل على النص بنفس متلهفة إقباله على كلام جديد يسمعه لأول مرة.

ثالثاً، تعاون المتلقي مع المتكلم شرط أساسي لإنجاح عملية التواصل، وبه يُعَدُّ النص مقبولاً، وهو ما سماه بروان (أو قيامه بالتعاون لتحقيق خطة ما)، وفي حالة عدم التعاون يصبح النص معرضاً لعدم القبول.

رابعاً، فإن القبول وإن كان متصلاً بالمتلقي، إلا أنه يؤثر في منشئ النص، وبخاصة في المحاورات الشفوية.

(١) مدخل إلى علم لغة النص، ص ٣١.

ولقد تنبه علماءنا إلى القبول بمعناه الواسع الذي تجاوز القواعد النحوية والدلالية ومنهم: سيبويه (ت: ١٨٠ هـ) الذي قسم الكلام إلى: مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وجعل الكلام المستقيم هو الكلام المقبول، والكلام المحال هو الكلام غير المقبول، والجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ) الذي رفع من شأن المتلقي وجعل وجود المبدع ومنشئ النص واستمراريته في صناعته الأدبية؛ رهناً ببرد الفعل عند المتلقي المثالي، وابن طباطبا العلوي (ت: ٣٢٢ هـ) الذي صرح بعلّة قبول الفهم للنصوص: حسنّها واعتدالها، وعلّة إنكارها: قبحها واضطرابها، كقبول الحواس لما طبعت عليه من حسنٍ ولطفٍ واعتدال، وتأذيها بما يضاده، بل جعل للجوانب النفسية دوراً لا يقل عن دور الجوانب العقلية، ويذكر أهمية مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ فلسياق الموقف أثر في قبول النص إن وافقته المعاني... إلخ^(١). وهذا قليلٌ من كثير نفخر به ونجتهد أن نضم إلى فخرنا به مواكبة العصر، ونكمل درب أسلافنا الذين قطعوا أشواطاً كثيرة، ولا تقتصر أن نشدق بمآثرهم فحسب.

(١) ينظر للتفصيل:

- الكتاب، ١/ ٢٦: ٢٥.
- البيان والتبيين، ١/ ٢٠٤: ٢٠٣.
- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر ت: عباس عبد الستار، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م، ص ٢٢: ١٥.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٥، بيروت، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م، ١/ ١٩٩: ٢٢٥.
- النحر الدلالة، ص ٦٣: ٦٢.
- معايير النصية، ص ٢٠٤: ٢٠٣.

القبول والتداولية،

إن التداولية تتدخل في قضايا فلسفية ومنطقية ونفسية واجتماعية لا حصر لها، ومنها مفهوم الذاتية، فهي تشير تساؤلات حول مفهوم الفاعل عندما ننظر إليه بوصفه متكلماً ومتحدثاً، لا انطلاقاً من الفكر بل انطلاقاً من التواصل، ومنها مفهوم الغيرية وما توليه التداولية من نظر إلى المتلقي بوصفه الطرف الآخر في عملية التواصل اللغوي في المحادثة وغيرها من أشكال التواصل اللغوي، وأن هذا الطرف يمثل - بشكل ما - سلطة على المتكلم، إذ يراعى المتكلم ما يقتضيه حال المخاطب مهما كان شأنه الاجتماعي^(١).

ومن ثم فإن اللغة ليست وظيفة المتحدث ولكنها منتج يتم استقباله بواسطة الفرد (المتلقي)....، وتدخل الانعكاسات والمشاعر فقط لتحديد نوع اللغة - وهذا ما ذكرناه أثناء الحديث عن الإعلامية والتداولية - . يقول كلاوس برينكر: «إن التركيز على دور (الباث) فقط لمعرفة المؤشرات التي تشير إلى وظيفة النص، قد يعني إهمال دور (المتلقي) في التأشير الصريح أو الضمني إلى الوظيفة الحقيقية للنص أو فهمه للوظيفة الحقيقية للنص، وذلك أمر يجب أخذه في الحسبان خصوصاً في النصوص التفاعلية كنص المداخلة الذي يأتي بعده نص الرد»^(٢).

لذا فالمتلقي عنصر مهم في عملية التواصل؛ إذ يكون هو الطرف الآخر الذي يوجه إليه المرسل خطابه عمداً، فهو مكون أساسي في العمليات التخاطبية والتواصلية، ومن جانب آخر، فإن (المرسل إليه/ المتلقي)، عند البلاغيين ذو أهمية قد تفوق أهمية المرسل؛ الذي لولا وجود وجهة لخطابه ما كان ليكون «ففي النموذج

(١) التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص ٢٤.

(٢) كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص (مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج)، ص ١٠٧.

البلاغي للتواصل يحتل متلقي الخطاب المقام الأول بدون منازع^(١)، حيث أن قيام التواصل مرتبط أصلاً بوجود مخاطب يتفاعل معه المرسل، ومن خلال معرفته لـ..... (المرسل إليه/ المتلقي) تكون طريقة الخطاب، ويختار الإستراتيجية المناسبة له^(٢).

القبول والنص القرآني:

فلا غرو أن العرب قد أدركوا تمام الإدراك النص القرآني: فهمًا، ولغةً، وبلاغةً، ودعوةً، وما يرنوا إليه من دلالات: صريحة أو ضمنية. وما رواه ابن اسحاق، وابن هشام عن تأثير هذا النص القرآني العظيم على من أصرَّ على عناده؛ بعدم توحيده واتباعه لرسول الله ﷺ - أمثال: أبي سفيان بن حرب، وأبي جهل بن هشام، والأخنس بن شريق^(٣)، وقصة الوليد بن المغيرة المخزومي^(٤)؛ لأكبر دليل على تأثير هذا النص الكريم في نفس المشرك العنيد الذي وعى النص، وأدرك لغته وبلاغته وما يدعو إليه. لذا نستطيع القول بأن عدم قبول النص الكريم من قِبَل المشركين؛ لم يكن

(١) هنري بليث، البلاغة والأسلوبية (نحو نموذج سيميائي لتحليل النص)، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشرق، ط ٢، المغرب، ١٩٩٩م، ص ٣٨.

(٢) انظر للتفصيل:

- الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٠٤.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة تداولية)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط ١، المغرب، ٢٠٠٤م، ص ٤٥.
- الطاهر بومزير، التواصل اللساني والشعرية، منشورات الاختلاف، ط ١، المغرب، ٢٠٠٧م، ص ٢٤.
- سليم حمدان، أشكال التواصل في التراث البلاغي العربي (دراسة في ضوء اللسانيات التداولية)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، ٢٠٠٨م/ ٢٠٠٩م، ص ٤٩ وما بعدها.

(٣) ابن اسحاق، السيرة النبوية. ت: أحمد فريد الزبيدي، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت،

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، ١/ ٢٢٦: ٢٢٧.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ت: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، ١/ ٣٣٨: ٣٣٧.

مبعثه إلا الخوف على زعامتهم، وهيتهم، ومكانتهم الدينية، والأدبية، والاجتماعية، بل الاقتصادية بين أقوامهم، وعلى مر العصور، وليس معنى إعراضهم عن النص الكريم الطعن في فصاحته وبلاغته، والدليل على ذلك أنهم قد اعترفوا جميعاً بتلك الفصاحة والبلاغة ولم يستطع أحد منهم، أو يجرؤ على معارضته.

مظاهر القبول في سورتي النساء والأعراف

أولاً: سورة النساء

سورة النساء - شأن السور المدنية - تعني بالتشريعات التي تنظم حياة المجتمع والدولة المسلمة، سواء ما يخص العلاقات بين المسلمين بعضهم مع البعض - كأفراد، وجماعات، وحكام، ومحكومين - أو ما يخص العلاقات الداخلية - أيضاً - بين المسلمين وغيرهم - خاصة اليهود الذين كانوا يعيشون داخل الدولة المسلمة الجديدة بالإضافة إلى وجود المنافقين، أو العلاقات الخارجية بين الدولة المسلمة الناشئة في المدينة وبين غيرها من الدول والحضارات المحيطة بتلك الدولة، سواء منهم: الوثنيين أم من أهل الكتاب. ومن ثم فإن تلك التشريعات قد تبين موقف المتلقين منها؛ وذلك لتنوعهم داخل المجتمع المدني؛ فهم بين مؤمن، ومنافق، ويهودي، ومن خلال عرض مظاهر القبول لسورة النساء سوف يتبين لنا أثر هذا التنوع للمتلقين على النص القرآني - المدني - سورة النساء - قبولاً ورفضاً.

- فمن مظاهر ترقب المسلمين للنص القرآني بالقبول السؤال فيما لا نص فيه؛ فينزل الوحي على رسوله - ﷺ - تجاوباً مع المتلقين، ومنه قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي مِمَّا حَوْلَ الْأُنثَىٰ ذَكَرٌ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأَبِ ثُلُثُ الْوَرِثَةِ وَلِلْأُمِّ ثُلُثُ الْوَرِثَةِ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّ الشُّدُّسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ

يُوسَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ مَا بَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَنْدُرُونَ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (النساء: ١١). فقد رويت في سبب نزول الآية أحاديث كثيرة. ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله: أنه قال: (مرضت فعادني رسول الله وأبو بكر في بني سلمة فوجداني لا أعقل، فدعا رسول الله بهاء فتوضأ ثم رش علي منه فأفقت، فقلت: (كيف أصنع في مالي يا رسول الله)؛ فنزلت: (يُوسَىٰكُمْ اللَّهُ فِي أَرْكَاسِكُمْ) (١). وروى أبو داود عن جابر قال: جاءت امرأة سعد ابن الربيع فقالت لرسول الله - ﷺ -: «إن سعداً هلك وترك ابنتين، وأخاه فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد؛ وإنما تنكح النساء على أموالهن، فلم يجبهما في مجلسها ذلك ثم جاءته، فقالت: (يا رسول الله ابتأ سعد)، فقال رسول الله - ﷺ -: (ادع لي أخاه)، فجاءه فقال: (ادفع إلى ابنتيه الثلثين، وإلى امرأته الثمن، ولك ما بقي)، ونزلت آية الميراث» (٢).

• ومن مواقف تلقي المسلمين للنص القرآني بالقبول مراجعتهم لأنفسهم، ومنه قوله تعالى: (وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَسْتَبْدِلَ زَوْجَ مَكَاتٍ زَوْجٌ وَأَن تَيْسَّرَ لَّهِنَّ فَنُطَارَا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَن تَأْخُذُوا مِنْهُ بِهَتَّكُنَا وَإِنَّمَا مَبِينَا ⑤ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا) (النساء: ٢١-٢٢). ما حدث لعمر بن الخطاب أثناء حديثه عن المغالاة في المهور والصدقات؛ ولذلك خطب عمر بن الخطاب فنهى عن المغالاة في الصدقات، قالت له امرأة - من قريش بعد أن نزل -: «يا أمير المؤمنين كتاب الله أحق أن يتبع أو قولك» قال: (بل كتاب الله! بسم ذلك؟). قالت: إنك نهيت الناس آنفاً أن يغالوا في صداق النساء، والله يقول في كتابه: (وَأَن تَيْسَّرَ لَّهِنَّ فَنُطَارَا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا) ، فقال عمر: (كل أحد أفقه من

(١) صحيح البخاري، باب (يُوسَىٰكُمْ اللَّهُ...)، حديث (٤٥٧٧)، ١٥/١١٣.

(٢) أبو داود، سنن أبي داود، ٣: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط ١، بيروت، باب ما جاء في ميراث الصلب، حديث (٢٨٩٤)، ٨/٤٨٣.

عمر)، وفي رواية قال: (امرأة أصابت وأمير أخطأ والله المستعان)، ثم رجع إلى المنبر فقال: (إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صدقات النساء فليفعل كل رجل في ماله ما شاء)، والظاهر من هذه الرواية أن عمر رجع عن تحجير المباح؛ لأنه رآه ينافي الإباحة بمقتضى دلالة الإشارة، وقد كان بدأ له من قبل أن في المغالاة علة تقتضي المنع فيمكن أن يكون نسي الآية بناءً على أن المجتهد لا يلزمه البحث عن المعارض للدليل اجتهداه، أو أن يكون حملها على قصد المبالغة؛ فرأى أن ذلك لا يدل على الإباحة ثم رجع عن ذلك، أو أن يكون رأى لنفسه أن يحجر بعض المباح للمصلحة ثم عدل عنه؛ لأنه ينافي إذن الشرع في فعله أو نحو ذلك^(١).

• ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨). فالخطاب لكل من يصلح لتلقي هذا الخطاب والعمل به من كل مؤتمن على شيء، ومن كل من تولى الحكم بين الناس في الحقوق. فقد ذكر الواحدي في أسباب النزول: «أن الآية نزلت يوم فتح مكة؛ إذ سلم عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة العبدري الحنفي مفتاح الكعبة للنبي - ﷺ -، وكانت سدانة الكعبة بيده وهو من بني عبد الدار، وكانت السدانة فيهم، فسأل العباس بن عبد المطلب من رسول الله أن يجعل له سدانة الكعبة يضمها من السقاية وكانت السقاية بيده وهي في بني هاشم؛ فدعا رسول الله - ﷺ - عثمان بن طلحة، وابن عمه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة؛ فدفع لهما مفتاح الكعبة، وتلا هذه الآية، قال عمر ابن الخطاب: وما كنت سمعتها منه قبل ذلك، وقال النبي - ﷺ - لعثمان بن طلحة: «خذوها خالدة تالدة لا يتزعها منكم إلا ظالم»، ولم يكن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة أخذ انتزاع، ولكنه أخذه ينتظر الوحي في شأنه؛ لأن كون المفتاح بيد عثمان بن طلحة مستصحب من قبل الإسلام، ولم يغير

(١) التحرير والتنوير، ١/٩١٩.

الإسلام حوزة إياه، فلما نزلت الآية تقرر حق بني عبد الدار فيه بحكم الإسلام فبقيت سدانة الكعبة في بني عبد الدار، ونزل عثمان بن طلحة عنها لابن عمه شيبه بن عثمان، وكانت السدانة من مناصب قريش في الجاهلية؛ فأبطل النبي -ﷺ- بعضها في خطبة يوم الفتح، أو حجة الوداع ما عدا السقاية والسدانة^(١).

• ومن مظاهر تفاوت المتلقين للنص القرآني - (مسلم أو يهودي أو منافق):
بالرفض أو القبول، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

(النساء: ٧٧). قال جمهور المفسرين: إن هذه الآية نزلت في طائفة من المسلمين كانوا لقوا بمكة من المشركين أذى شديداً، فقالوا للنبي -ﷺ-: «يا رسول الله كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة»، واستأذنوه في قتال المشركين، فقال لهم: إني أمرت بالعفو؛ فكفوا أيديكم، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فلما هاجر النبي -ﷺ- إلى المدينة، وفرض الجهاد جُبن فريق من جملة الذين استأذنوه في القتال؛ ففيهم نزلت الآية^(٢).

• ومن مظاهر قبول المؤمنين للنص القرآني: ترقب النص قبل نزوله من خلال السؤال فيما لا نص فيه فينزل الوحي بالنص على رسول الله -ﷺ-، ومنه قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ قُلُوبُ اللَّهِ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلِمَةِ إِنِ امْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلُّانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثِيِّينَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦). فقد سأل الناس رسول الله -ﷺ- عن صورة أخرى

(١) أسباب النزول، ٥٥/١.

(٢) نفسه، ٥٤٧/٨.

من صور الكلالة، وثبت في الصحيح أن الذي سأله هو جابر بن عبد الله قال: عাদني رسول الله وأبو بكر ماشيين في بني سلمة فوجداني مغمى علي فتوضأ رسول الله ﷺ وصب علي وضوءه؛ فأفقت وقلت: كيف أصنع في مالي؛ فلما يبرئني كلاله؛ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية^(١).

ثانياً، سورة الأعراف:

فسورة الأعراف - شأن السور المكية خاصة - تمثل أكبر تجسيد لموقف المتلقين من النص القرآني - أو الخطاب القرآني - قبولاً أو رفضاً -، فالمجتمع المكي قبل الهجرة ومع بعثة النبي ﷺ - تلقى دعوة الإسلام إما بالرفض وهو غالب حال أهل مكة من المشركين، وإما بالقبول وهو حال المسلمين الأوائل الذين شرح الله صدرهم للإسلام؛ لذا فإننا نجد أن أنواع المتلقين في المجتمع المكي ينحصر بين نوعين فقط وهما: مشرك ومؤمن، ومن ثم نجد أن الخطاب في السورة الكريمة موجه في المقام الأول لمشركي مكة، وأن عرض القصص التي تصور لنا حلقات الصراع بين الحق والباطل - مثل:

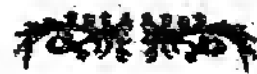
- صراع الحق والباطل: قصة آدم مع إبليس - لعنه الله - الآيات (١١ - ٣٠).
- صراع أهل الجنة وأهل النار، وقصة أصحاب الأعراف: (الآيات ٤٤ - ٥١).
- عرض الصراع بين الحق والباطل عبر قصص الأنبياء على مر العصور:

فقد عرضت الآيات قصة كل نبي مع قومه، والصراع بين الخير والشر، وكيف أن الله ينجي نبيه، ومن اتبعه على عدوهم من خلال الآيات (٥٩ - ١٧١)، - من أجل التأكيد أن الغرض من هذه الأخبار تنظير أحوال الأمم المكذبة رسلها - وهو الرفض للنص أو الخطاب القرآني - بحال مشركي العرب في تكذيبهم رسالة محمد ﷺ^(٢).

(١) صحيح البخاري، باب (يستفتونك...)، حديث (٤٣٦٤)، ٢٨٧/١٤، وصحيح مسلم، باب (ميراث الكلالة)، حديث (١٦١٦)، ١٢٣٤/٣.

(٢) التحرير والتنوير ١/١٥٦٢.

• ومن مظاهر ترقب مشركي مكة للنص القرآني - المكي - للإدعاء بأن رفضهم للنص ليس لمجرد العناد، وإنما لما أخذوا بها فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠). فقد روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أن أبا جهل سمع بعض أصحاب النبي - ﷺ - يقرأ فيذكر الله في قراءته، ومرة يقرأ فيذكر الرحمن، فقال أبو جهل: «محمد يزعم أن الإله واحد، وهو إنما يعبد آلهة كثيرة» فنزلت هذه الآية ^(١). وكل ذلك تأكيد للرد على المشركين أن يكون بعض الأسماء الواردة في القرآن أو كلام النبي - ﷺ - أسماء لله - تعالى؛ بتخييلهم أن تعدد الاسم تعدد للمسمى.



(١) التحرير والتنوير ١/ ١٦٨٧.

المصادر

والمراجع

أولاً: المصادر العربية.

- إبراهيم محمد الدسوقي: نحو النص، دراسة تطبيقية بإقاهيم علم النص، قصة موسى عليه السلام في النص القرآني نموذجاً، رسالة دكتوراه، إشراف أ.د. تمام حسان، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م.
- أحمد محمد عبد الراضي: المعايير النصية في القرآن الكريم، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، القاهرة، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
- أحمد محمود نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- الأزهر الزناد: نسيج النص بحث فيها يكون به الملفوظ نصاً، المركز الثقافي العربي، ط ١، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٣م.
- أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد: مدخل إلى علم لغة النص، الهيئة المصرية للكتاب، ط ٢، القاهرة ١٩٩٩م.
- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت: ٢٥٦هـ): ١ - صحيح البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط ٣، بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- ٢ - صحيح البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- البقاعي (إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي، ت: ٨٨٥هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، ط ٢، القاهرة، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
- البيضاوي (أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ت: ٦٨٥هـ): تفسير البيضاوي، دار الفكر، ط ٣، بيروت، (د.ت).

- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص الثري، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة ٢٠٠٧ م.
- ابن حنبل (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ت: ٢٤١ هـ): مستد الإمام أحمد، ت: شعيب الأرناؤوط، وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م.
- أبو حيان (أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، ت: ٧٤٥ هـ): البحر المحيط، ت: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤١٢ هـ ١٩٩٣ م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون، ت: ٨٠٨ هـ): المقدمة، ت: علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، مطبعة الرسالة، ط ٢، ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م.
- أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: ٢٧٥ هـ): سنن أبي داود، ت: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط ١، بيروت، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م.
- الرازي (فخر الدين محمد الرازي، ت: ٦٠٤ هـ): مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار الفكر، ط ١، بيروت، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد، ت: ٥٠٢ هـ): المفردات في غريب القرآن، ت: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
- الزرقاني (محمد عبد العظيم الزرقاني، ت: ١٣٦٧ هـ): مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط ٣، القاهرة، (د.ت).
- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ت: ٧٩٤ هـ): البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط ١، بيروت، ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م.

- الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ): ١ -
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار
الكتاب العربي، ط ١، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م. ٢ - أساس البلاغة، ت: محمد
باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، لبنان ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- سعد مصلوح: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، بحث ضمن الكتاب
التذكاري لقسم اللغة العربية - جامعة الكويت، عبد السلام هارون معلماً
ومؤلفاً ومحققاً، إعداد وديعة طه نجم، وعبد بدوي، ١٩٨٩م، ١٩٩٠م.
- سعيد بحيري: ١ - علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية
العالمية للنشر، (لونجمان) القاهرة، ١٩٩٧م. ٢ - دراسات لغوية تطبيقية في
العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، (د. ت.).
- سعيد غلوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سوشيريس للطباعة،
ط ١، الدار البيضاء، المغرب، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط ١، الدار
البيضاء، ١٩٨٨م.
- السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي، ت: ٦٢٦هـ): مفتاح
العلوم، ت: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت،
لبنان، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- سيويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت: ١٨٠هـ): الكتاب، ت: عبد
السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٩م.
- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، ط ٣٢، القاهرة.

- السيد علي خضر: ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين، رسالة دكتوراة مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة طنطا، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧ م.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: ٩١١ هـ): ١ - الإتيان في علوم القرآن، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة لصاحبها مصطفى محمد، ١٣٦٨ هـ. ٢ - أسرار ترتيب القرآن، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام - القاهرة، (د.ت). ٣ - تناسق الدرر في تناسب السور، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، ط ٢، القاهرة، ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م. ٤ - لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة المختار، ط ١، القاهرة، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- الشنقيطي (محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ت: ١٣٣١ هـ): أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت: ١٢٥٠ هـ): فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ت: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط ١، المنصورة، ١٩٩٤ م.
- صبحي الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، القاهرة، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م.
- صلاح فضل: ظواهر أسلوبية في شعر شوقي، فصول، مجلد ١، عدد ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨١ م.
- طاهر سليمان حمودة: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية، ط ١، الإسكندرية، (د.ت).

- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ت: ٣١٠هـ): جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، تعليق حواشي: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- ابن عاشور (محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ت: ١٣٩٣هـ): التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار المنار، ط ١، القاهرة، ١٤١١هـ.
- عبد القاهر الجرجاني (أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ت: ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط ٣، القاهرة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب (مقاربة تداولية)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط ١، المغرب، ٢٠٠٤م.
- عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار المعرفة الجامعية، ط ١، الإسكندرية، ٢٠٠٨م.
- عدنان ذريل: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق من منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط ١، دمشق، ٢٠٠٠م.
- عزة شبل: علم لغة النص (النظرية والتطبيق)، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- علي آيت أوشان: النص والسياق الشعري (من البنية إلى القراءة)، مطبعة النجاح الجديدة، ط ١، المغرب، ٢٠٠٠م.

- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس، ت: ٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط ١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- فريد عوض حيدر: اتساق النص في سورة الكهف مكتبة زهراء الشرق القاهرة ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.
- الفيروز آبادي (أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت: ٨١٧هـ): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ط ١، بيروت، لبنان، (د.ت).
- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين القرطبي، ت: ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، ط ٢، الرياض، المملكة العربية السعودية ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣ م.
- القزويني (أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر، القزويني، ت: ٧٣٩هـ): الإيضاح في علوم البلاغة، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣ م.
- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ت: ٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، ت: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ط ٢، الرياض، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- الكرمانلي (أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر-الكرمانلي، ت: ٥٠٥هـ): أسرار التكرار في القرآن، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة، (د.ت).

- الألويسي (أبو الفضل شهاب الدين محمود ابن عبد الله الألويسي البغدادي، ت: ١٢٧٠ هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت.).
- ابن ماجه (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت: ٢٧٣ هـ): مسند ابن ماجه، ت: شعيب الأرناؤوط، وآخرين، دار الرسالة العالمية، ط ١، بيروت، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م.
- مجموعة من علماء مجمع اللغة العربية بمصر: المعجم الوسيط، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، ١٩٦٥ م.
- محمد حماسة عبد اللطيف: ١ - الإبداع الموازي، التحليل النصي للشعر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١ م. ٢ - بناء الجملة العربية، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣ م.
- محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط ١، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩١ م.
- محمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، ط ١، كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، ٢٠٠١ م.
- محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، القاهرة، ١٩٨٩ م.
- محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط ١، القاهرة، ١٩٩٥ م.

- محمد عزام: النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي) منشورات اتحاد الكتاب العربي، ط ١ دمشق، ٢٠٠١م.
- محمد بن عمر بن سالم باز مول: علم المناسبات في السور والآيات ويليهِ مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للسيوطي، المكتبة المكية، ط ١، مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، ط ٣، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٢م.
- محمد يوسف حبص: البحث الدلالي عند الأصوليين، عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- محمود توفيق سعد: العزف على أنوار الذكر؛ معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة، كلية اللغة العربية، الأزهر (فرع شبن الكوم)، ط ١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- محمود السمران: علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، ط ١، بيروت، (د.ت.).
- محمود بن عبد الرحيم الصافي: الجدول في إعراب القرآن، دار الرشيد مؤسسة الإيمان، ط ٤، دمشق، ١٤١٨ هـ.
- محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة، دار قباء، ط ١، القاهرة، (د.ت.).
- محيي الدين درويش: إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، ط ٤، دمشق، بيروت، ١٤١٥هـ.!
- مسعود صحرأوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط ١، لبنان، ٢٠٠٥م.!

- مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، ت: ٢٦١هـ): صحيح الإمام مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، ت: ٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)!
- موسى رابعة: جماليات الأسلوب والتلقي، دراسة تطبيقية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٠م.
- نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، ط ١، جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
- النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ت: ٣٠٣هـ): السنن الكبرى، ت: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- الواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، ت: ٤٦٨هـ): أسباب نزول القرآن، ت: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، ط ٢، الدمام، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

ثانياً: الكتب المترجمة

- أرسطو طاليس: فن الشعر، مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٥٣م.

- آن روبول، وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوش، دار الطليعة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣ م.
- أوزوالد ديكر: مقام الخطاب، مقال ضمن القاموس الموسوعي الجديد للعلوم اللسان، ترجمة: منتر عياشي، المركز الثقافي العربي، ط ٢، المغرب، ٢٠٠٧ م.
- براون. ج. يول: تحليل الخطاب، ترجمة د محمد لطفى الزليطني د. منير التريكي، النشر العلمي، جامعة الملك سعود ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.
- رولان مارك أنجينو: بحث في اثبات حقول مفهومي وانتشاره، مقال ضمن كتاب آفاق التناسية المفهوم والمنظور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩٨ م.
- جون لايتز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة المائة كتاب، ١٩٨٧ م.
- جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار تويقال للنشر، ط ٢، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧ م.
- جيرار جينت: طروس، الأدب على الأدب، ضمن كتاب آفاق التناسية، المفهوم والمنظور، ترجمة د. محمد خيرى البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، القاهرة، ١٩٩٨ م.
- جيفري ليتش، وجيني توماس: اللغة والمعنى والسياق: البراهمية (المعنى في السياق)، الموسوعة اللغوية، تحرير د. ن. ي. كولنج، ترجمة د. محي الدين حميدي، ود. عبدالله الحميدان، مج ١، كلية اللغات، جامعة الملك سعود، ١٩٩٩ م.
- ديكر ووتودوروف: القاموس الموسوعي لعلوم اللغة باريز أسوي ١٩٧٢ م.

- رولان بارت: لذة النص، ترجمة فؤاد صفا، و الحسين سحبان، دار توبقال للنشر، ط ٢، ٢٠٠١ م.
- روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.
- زتسيسلاف واورزنيك: مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة د. سعيد بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط ١، القاهرة، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، ط ١، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- فان ديك: ١ - علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، ترجمة سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، (د.ط)، ١٤١٢ هـ ٢٠٠١ م. ٢ - النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، (د.ط)، المغرب، ٢٠٠٠ م.!
- فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (دط)، الرباط، المغرب، ١٩٨٦ م.
- ف.ر. بالمر: علم الدلالة، ترجمة: صبري إبراهيم السيد، ط ١، القاهرة، ١٩٩٥ م.
- فولفجانج هاينه مان، ديتير فيهفجر: مدخل إلى لغة النص، ترجمة: سعيد بحيري، زهراء الشرق، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٤ م.!
- فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار، ط ١، سوريا، ٢٠٠٧ م.!

- هنري بليث: البلاغة والأسلوبية (نحو نموذج سيميائي لتحليل النص)، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشرق، ط ٢، المغرب، ١٩٩٩ م.
- يوري لوتمان: تحليل النص الشعري، ترجمة: محمد فتوح أحمد، دار المعارف، ط ١، القاهرة، ١٩٩٤ م.

ثالثاً: الدوريات العلمية

- أحمد عفيفي: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، صحيفة دار العلوم، العدد ١٦، مكتبة زهراء الشرق، ط ١، القاهرة، ديسمبر ٢٠٠٠ م.
- تمام حسان: ١- العلاقات الملفوظة والعلاقات الملحوظة في النص القرآني، مجلة الدراسات القرآنية، مجلد ٣، العدد ٢، يصدرها مركز الدراسات الإسلامية - كلية الدراسات الشرقية، جامعة لندن، ٢٠٠١ م. ٢- مقال قرينة السياق، الكتاب التذكاري لكلية دار العلوم، مطبعة عبير للكتب، ط ١، القاهرة، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م. ٣- نحو الجملة ونحو النص، نص محاضرة أقيمت في معهد اللغة العربية بأم القرى، الموسم الثقافي الصيفي، مكة المكرمة، ١٩٩٥ م.
- شربل داعز: التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري وغيره، مجلة النقد الأدبي (فصول)، المجلد ١٦، العدد (١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧ م.
- صلاح صبري حافظ: التناص وإشارات العمل الأدبي، مجلة البلاغة المقارنة ألف، العدد ٤، ربيع ١٩٨٤ م.

- عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم: المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مجلد ٢، العدد ٢، ربيع الثاني ١٤٢٦ هـ، يونيو ٢٠٠٥ م.
- عبد الرحمن بسيسو: قراءة النص في ضوء علاقاته بالنصوص المصادر، مجلة النقد الأدبي (فصول)، المجلد ١٦، العدد ١، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧ م.
- عبد العزيز حمودة: الخروج من التيه أدراسة في سلطة النص، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٩٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر ٢٠٠٣ م.
- علي عزت: اللغة ونظرية السياق، مقال في مجلة الفكر المعاصر، العدد (٧٦)، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١ م.!
- فايز أحمد الكومي: أثر الروابط في البناء النصي، دورية علوم اللغة، مجلد ١١، العدد ٣، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨ م.
- محمد سالم صالح: صور التماسك النصي في سورة القتال، مجلة فكر وإبداع، الجزء ٤٦، دار الإبداع، القاهرة، يوليو ٢٠٠٨ م.
- محمد العبد: حبك النص، منظورات من التراث العربي، مجلة النقد الأدبي (فصول)، العدد ٥٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ربيع ٢٠٠٢ م.
- نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، ط ١، عدد ٩، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، سبتمبر ١٩٧٨ م.

فهرس

٥	إهداء.....
٧	شكر وعرفان.....
٩	آية قرآنية.....
٢٣-١١	تمهيد.....
١٣	النص لغة.....
١٤	النص اصطلاحاً.....
١٧	تعريفات النص.....
٢٤	معايير النص.....
٣١	مهام نحو النص.....
١٢٢-٢٥	الفصل الأول: (السبك).....
٢٧	مصطلح السبك.....
٣٩	وسائل السبك.....
٤١	أولاً: وسائل السبك النحوي.....
٩٩	ثانياً: وسائل السبك المعجمي.....
١٦٦-١٢٢	الفصل الثاني: (الحبك).....
١٢٥	أولاً: مصطلح الحبك.....
١٣٠	ثانياً: علم المناسبة.....
١٥٥	ثالثاً: العلاقات الدلالية.....

١٨٦-١٦٧ الفصل الثالث: (التناص)

١٦٩ مصطلح التناص

١٧٢ التناص القرآني

٢٤٧-١٨٧ الفصل الرابع: (السياق)

١٨٩ مصطلح السياق

١٩١ السياق والتداولية

١٩٢ العلاقة بين النص والسياق

١٩٥ أنواع السياق

١٩٩ أسباب النزول وعلاقتها بالسياق

٢٠١ السياق القرآني ودوره

٢٧١-٢٤٩ الفصل الخامس: (الإعلامية)

٢٥١ مصطلح الإعلامية

٢٥٢ مراتب الإعلامية

٢٥٧ آليات الإعلامية

٢١٧-٢٧٢ الفصل السادس:

٢٧٢ أولاً: (القصد)

٢٧٥ مصطلح القصد

٢٧٦ أنواع المقاصد

٢٧٧ انقصد والتداولية

٢٧٩ القصد والمعنى القرآني

٢٨٥ آليات القصد

٣٠٥ثانيا: (القبول)
٣٠٧مصطلح القبول
٣١٠القبول والتداولية
٣١١القبول والنص القرآني
٣١٢مظاهر القبول
٣١٩المصادر والمراجع
٣٢٥الفهرس

يهدف هذا الكتاب إلى دراسة المعايير النصية
في السور القرآنية في ضوء اللسانيات النصية الحديثة،
من خلال دراسة تطبيقية مقارنة بين السور الملكية
والسور المدنية، وتحليل الخصائص والمعايير النصية
فيهما، لاستجلاء جوانب جديدة في آفاق الإعجاز
البلاغي في القرآن الكريم .

